الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 7

الجزء العشرون‏

سورة الحج‏

[سورة الحج (22): الآيات 1 الى 16]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ‏ءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى‏ عَذابِ السَّعِيرِ (4)

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (6) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (8) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (9)

ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (10) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى‏ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (14)

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (15) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 9

سورة تسمى باسم أفضل فريضة من فرائض اللّه و أشملها تحليقا على كلّ شرعة اللّه، حيث تضم كل مرادات اللّه من الأمة المرحومة في سبيلها إلى اللّه، فكأنها هي القرآن كله، و كما فضلت سورتها- فيما فضلت- على سائر القرآن بسجدتين اثنتين، و

قد يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 10

و سلم) «فمن لم يسجدهما فلا يقرءهما» «1»

و الثانية أوجب و أحرى بها لمكان الأمر بها.

و مدنية السورة لائحة من آي الهجرة، و الإذن للقتال، و ناصية القوة في العدّة و العدّة للمسلمين، المعدّة للنضال، و قد يلمح الإذن للقتال مع بعض السياق من آياتها، انها من المدنيات الأوائل حيث أسّست دولة الإسلام جديدة قائمة على ساق، محضّرة نفسها لغزوات، و كما الظلال المحلّقة على جو السورة هي ظلال القوة و الهيبة و الهيمنة و التحذير و الترهيب و استجاشة مشاعر التقوى على الطغوى.

فانها تبدء بمشهد القيامة مزلزلا مزمجرا، ثم عذاب الذين كفروا «قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ» و مثل الشرك باللّه‏ «فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ» و من ييأس من نصر اللّه‏ «فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ» ثم مشهد القرى الكافرة «وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها» و إلى الاذن في القتال: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ ...».

ذلك كله جو القوة مهما لمعت شذر من آيها كأنها مكيات ام نازلة بين مكة و المدنية، فان جوّ السورة جو مدني إلا ما لمحت من هذه او تلك، مهما شابهت بعض الشي‏ء الجو المكي لأنها في بداية الهجرة، فليكن جوا هو عوان بين العهدين إلا في أمثال آيات القتال، و العقاب بالمثل، و قد يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حين بايعه المدنيون و عرضوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هما الآية (18) و (77) و

في الدر المنثور 4: 342- اخرج احمد و ابو داود و الترمذي و الحاكم و البيهقي في سننه و ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال‏ قلت يا رسول اللّه أ فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما

و

فيه عن خالد بن معدان ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين‏

و

اخرج ابن أبي شيبة عن علي و أبي الدرداء أنهما سجدا في الحج سجدتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 11

عليه ان يميلوا على اهل منى من الكفار فيقتلوهم، قوله: «اني لم أؤمر بهذا» حتى تمكنت دولة الإسلام فيها، فعندئذ «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ ..».

تبدء السورة بزلزال الساعة و تختم بالجهاد حق جهاده‏ «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ ..» جهادا في اللّه بكل الجنبات، و بينهما متوسطات من توجيهات صادرة من مصدر القوة و الشوكة الحالقة البالغة.

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ‏ءٌ عَظِيمٌ (1).

خطاب هام عام يشمل كل الناس، استجاشة لتقوى اللّه بدرجاتها، تهويلا مجملا في تجهيل: «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْ‏ءٌ عَظِيمٌ» يستحثّ عظيم التقوى العميم، اتقاء عن عذاب يوم عظيم.

زلزلة الساعة و ما ادراك ما زلزلة الساعة؟ انها تعم الكائنات كلها، سماوية و ارضية اما هيه بما تزلزل السماء بأنجمها و طبقاتها، و تزلزل الكائنات برمّتها إلا من شاء اللّه: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68).

اجل- إذا نفخ في الصور و نقر في الناقور، ترى النقرة النافخة و النفخة الناقرة تزلزل كل شي‏ء عن كيانه و حيويته، فلا يبقى ساكن إلا و يسيّر، و لا متحرك ماكن الا و يرجف فيدمّر، و تلك هي قيامة الإماتة و التدمير، و من ثم الإحياء و التعمير «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ».

و قد تكون هذه الزلزال من أشراط الساعة، فهي- إذا- قبل النفخة النقرة، إلّا ان الزلزلة الثانية المحيية- كما تعنيها آيات الزلزال- قد تلمح ان الأولى هي المميتة، المتدرجة من أشراطها الثلاثة إلى تلك الصعقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 12

الشاملة: «1» و كما آية الراجفة تقرر رجفتين و هما صيغة أخرى عن الزلزلتين: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (79: 7).

رجفة الإحياء الرادفة لرجفة الإماتة، ثم لا رجفة قبلهما تعتبر زلزالا هي من أشراط الساعة، و في هذه الزلزلة الهائلة رجفان في القلوب من خوف، و زلات الأقدام من روعة الموقف.

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ 2.

«يَوْمَ تَرَوْنَها»: زلزلة الساعة، و رؤيتها هي لمسها بواقعها، و قضية الجمع في «ترونها» هي جمعية تلك الرؤية لأهل الجمع كلهم.

و الذهول هو الذهاب و الانصراف عن شي‏ء بدهشة، و «كُلُّ مُرْضِعَةٍ» دون «مرضع» علها للاشارة إلى حالة الإرضاع، فتاءها- إذا- للمبالغة فقد تكون مرضعا في غير حالته، فذهولها- إذا- ليس لمذهل لأنها في غير حالته، و أما ذهولها حالة الإرضاع‏ «عَمَّا أَرْضَعَتْ»، من رضيع و رضعة، فقد يكون أقوى من ذهولها عن نفسها، حيث المرضعة يهمها ما أرضعت اكثر من نفسها، فهي إذا خالية عن نفسها، خاوية عن كل ما يهمها، من هول الموقف المزلزل كلّ شي‏ء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الفخر الرازي 23: 2 روى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حديث الصور إنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع و نفخة الصعقة و نفخة القيام لرب العالمين، و ان عند نفخة الفزع يسير الجبال و ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة و تكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج او كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 13

ثم‏ «وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها» لوقته ام قبله لوقعة الزلزال و انقلاب الحال، و قد تكفي هاتان الحالتان الهائلتان عرضا عن حالات الآخرين، الواصلة لحدّ يبدل «ترونها» ب «ترى» حيث لا يتأثر بالزلزال، لأنه ممن شاء اللّه:

«وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏» كأنهم سكارى الشرب‏ «وَ ما هُمْ بِسُكارى‏» الشرب‏ «وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» فهم كما السكارى يتموّجون في قالاتهم و حركاتهم كالمجانين خوفة من عذاب اللّه الذي يرصدهم، و تأثرا من زلزلة الساعة التي تحشرهم.

و كما ان شديد السكر و الذهول قد يغشي و يغمي ثم يميت، كذلك تكون هذه الزلزلة المذهلة المسكرة: «فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» و منهم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث يرى الناس سكارى و ليس هو منهم.

ذلك «يوم‏ يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً. السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا» (73: 18).

و ترى الناس كل الناس إلّا من شاء اللّه‏

«ذاهبة عقولهم من الحزن و الفزع متحيرين» «1».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ 3.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي قال قال (عليه السلام) في الآية: ... و

في كتاب طب الأئمة (عليهم السلام) باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال: اني لأعرف آيتين من كتاب اللّه المنزل تكتبان للمرأة إذا عسر عليها تكتبان في ورق ظبي و تعلقه عليها في حقويها: بسم الله و بالله ان مع العسر يسرا- سبع مرات- يا ايها الناس اتقوا ربكم- الى- شديد».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 14

«وَ مِنَ النَّاسِ» المخاطبين بواجب التقوى، المكلفين بالتجنب عن الطغوى، من هم في الحق نسناس: «مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» فالمجادلة في اللّه بعلم فطري ام عقلي ام تجريبي، بصورة مجردة غير دخيلة بالهوى، توصل صاحبها إلى حق في اللّه كونا و كيانا و توحيدا، حيث الكون بكافة ما فيه، من ظاهره و خافيه، مستخدم في الحق للحصول على معرفة باللّه قدر المحاولات اللائقة اللابقة في هذه السبيل.

ذلك و ان كان اللّه لا يجادل فيه، و لكن الشكّ القاصر شك مقدس، لا بد من إزالته بمجادلة قدسية هادفة لتخطّي الشك إلى اليقين و هذه من المجادلة في اللّه بعلم حيث تنتهي إلى علم إذ تهدف العلم، و اما المجادلة المشككة المقصّرة فهي على أية حال لا تملك اي برهان أيا كان و أيان، فهي- إذا- مجادلة في اللّه بغير علم، لا يتبّع صاحبها علما، و انما «يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ» من شياطين الجن و الانس، المجادلين في اللّه بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير.

و المجادلة المشككة في اللّه تعم اصول الدين و فروعه، مبدء و معادا و ما بينهما من وحي و مواده، حيث الكل للّه و من اللّه لا سواه، و المتحري عن الحق لا يتطرق طريق الجدال في اللّه لأنها مخاصمة لا تعني إلّا إبطال الحق في اللّه و «ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» (40: 4) و لا مصير لهم في ذلك المسير إلّا أن يأخذهم اللّه‏ «وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ» (40: 5)!.

و هذا الذي‏ «يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ»: المرتفع الأملس، المتمرد على علم، هو لا سواه يعيش حياته الشيطنات و الضلالات و التضليلات عاندة عامدة، جامعة كل ضروبها من شتات أصحابها، حيث الشيطنات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 15

دركات، كما الهدايات درجات، و لكن: «سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ» (7: 146).

اصرفهم عن آياتي ختما على قلوبهم فهم لا يعقلونها جزاء بما كانوا يعملون، و صدا لهم عن الوقيعة فيها و صرف المؤمنين عنها.

و كضابطة ادبية- في الحوار عامة- إن الجدال بالباطل ممنوع، سواء أ كان لدحض الحق ام إثباته، فان واجب الجدال على اية حال ان تكون بالتي هي احسن‏ «وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (16: 125) و الجدال بغير علم باطل على أية حال، و إذا كان الجدال بعلم بغير الأحسن- كالحسن- ممنوعا، فباحرى الجدال بغير علم فانه سي‏ء ام أسوء.

و يا ليت الذين يجادلون في اللّه جادلوا بعلم، لا بغير علم، تطاولا أجرد عن كل علم، ناشئا من اتبّاع كل شيطان مريد، فهو ركام من الجهالات و الضلالات دون اية بارقة من حق، فلذلك:

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى‏ عَذابِ السَّعِيرِ 4.

«كُتِبَ عَلَيْهِ»: كل شيطان مريد «أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ» اتباعا له في ضلاله و إضلاله، كما «كُتِبَ عَلَيْهِ»: «مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» «أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ» «1» فرأس الضلالة مكتوب عليه، سواء أ كان كل شيطان مريد،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الوجه الاول‏ «كُتِبَ عَلَيْهِ ...» مواصفة لكل شيطان مريد، و في الثاني خبر بعد خبر ل «مَنْ يُجادِلُ ..» و الوجهان معنيّان لأنهما معنيان صالحان، و لو كان مخصوصا بالاحتمال الاول لوجب جمع الضمير «عليهم» اعتبار بكل شيطان مريد، كما و لا يصلح اختصاصه بالثاني لأن الاول أحرى معنويا لأنه اصل الإضلال، إذا ف «عليه» راجع إلى كل واحد منهما على البدل، جمعا بين المعنيين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 16

امن يتبعه في خطواته‏ «أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ» دون شك و لا ريبة، لأن الضلال و الإضلال كيانه، و هو شغله الشاغل في حياته، فلا يهديه إلى حق ابدا، بل‏ «وَ يَهْدِيهِ إِلى‏ عَذابِ السَّعِيرِ» هدى إلى غاية الضلال و مصيره، و هذا تهكم في التعبير إذ يسمي قيادته إلى عذاب السعير هداية، انه لا تتأتى منه هداية الا إلى عذاب السعير، و ما الطفه جمعا بين الإضلال و الهداية عناية لمعنى واحد هو الضلالة! و هذه الكتابة هي القضاء الرباني على الولي و المتولي، حيث ان كيان الضلال لا يصدر منه الا ضلال، و ليس اللّه بمنج من يضل بغير علم، امن يتولاه على علم بضلاله، ام غير علم بهداه، اللهم إلا القاصر في تحريه عن الحق فعسى اللّه ان يهديه سواء السبيل.

فلا تعني‏ «كُتِبَ عَلَيْهِ» ان اللّه فرض ضلال من ضل بإضلال من أضل تسييرا دون تخيير إلى ضلال، و انما هو بيان للواقع حسب الأسباب و المقتضيات، ان المتحري عن باطل ليتّبعه ليس بحري الا ان يحيق به الباطل الذي تحرى عنه و تمناه، معاكسة للمتحري عن الحق‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و من المجادلة في اللّه هي المجادلة بغير علم في يوم اللّه، إحالة له بمحاولات جاهلة قاحلة، و اللّه يبرهن لحقه و واقعه هنا بواقع الحياة الاولى، و هم مصدقوها، دون إبداء مادة للبرهان بعيدة عنهم، بل هي ما يعيشونها طول حياتهم:

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 17

شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ‏ 5.

«يا أَيُّهَا النَّاسُ» ملحدين و مشركين او موحدين مرتابين في البعث، حيث البرهان الحاضر ليس حاصرا فيمن يعتقد في وجود اللّه، فان خلق الإنسان من تراب ثم .. ليس ينكره احد، طالما المادي يزعم ان الخالق هو المادة، و يرى المشرك أنه اللّه، و الموحد لا يشرك في خلق و سواه، فالقدرة الخالقة للإنسان من تراب هي هي الخالقة له في المعاد، فالخلق اوّل مرة دليل امكانيّته مرة ثانية بل‏ «هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»!.

«إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ» بعد الموت، و الريب هو شك مسنود إلى برهان ام زعم البرهان، فلئن صدقناكم في ريبكم، فواقع خلقكم أول مرة يزيل واقع ريبكم، حيث الريب لا يصارع واقع البرهان أيا كان.

«فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ» و جمعية الضمير فيها تعني جمعية الصفات في خلقنا، علما و قدرة و حكمة و تصميما و ارادة اما هيه من صفات ربوبية متطلّبة في ذلك الخلق المنضّد المتدرج العظيم، لأجنة مختلقة في الصور و السير، مقرّة في الأرحام او ملفوظة ساقطة، ثم الطفل الخارجون عن الأرحام بين بالغ أشدّه او متوفّى قبله، او مؤخر إلى أرذل العمر، فصورة الخلق و سيرته تدلاننا على ارادة و تصميم باختيار، دونما صدفة فوضى جزاف! «خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ» خلق الإنسان الاول من تراب قفزة دونما تطور معوّد في خلق سائر الإنسان، ثم و خلق أنساله متدرجا حيث البداية هي التراب، من نطفة هي من دم هو من غذاء هو من نبات و حيوان هما من تراب.

فخلق الإنسان من تراب ضابطة صارمة تعم الإنسان الاول و أنساله،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 18

من أبوين كسائر الإنسان، ام دون أب كالمسيح (عليه السلام) و قد تلمح «كم» في خلقناكم، ان الإنسان بجزئيه مخلوق من تراب، فطالما اختلفا في حاضرة الصورة و السيرة، الا ان أصلهما كليهما هو التراب، «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ» تراخيا عن الخلق الاول بأنساله، و في سائر الخلق بأنساله، فأين النطفة و التراب، و المسافة بينه و بين النطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية مسافة هائلة! و النطفة هي الدودة العلقة المتحولة بعد مراحل إلى جنين، و هي واحدة من ملايين العلقات في البحر المنوي و هو قطرة ام قطرات! فنقطة واحدة من تلك الملايين هي الدودة التي تلقح البويضة من ماء المرأة في الرحم و تتحد به فتعلق في جدار الرحم فتصبح علقة:

«ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» متحولة عن نطفة، الكامنة فيها كل خصائص الإنسان المقبل.

«ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ» و هي اللحمة الصغيرة المتحولة من العلقة، قدر ما يمضغ‏ «مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» فما هي المخلقة و ما هي غير المخلقة؟

التخليق هو التحليق في الخلق، فهو كمال الخلق الصالح لتحوله إلى جنين صالح، و غيره هو غير الصالح، سواء سقط «1» ام أصبح جنينا ناقصا في عضو او أعضاء.

و من تخليق المضغة خلقها عظاما، ثم كسوتها لحما ثم انشاءها خلقا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 471 عن تفسير القمي قال قال: المخلقة إذا صارت تامة و غير مخلقة قال: السقط.

أقول و هذا تفسير بأحد المصداقين لغير المخلقة، فلا بد له مصداق آخر و هو من يولد ناقصا قضية العموم في‏ «فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 19

آخر و هو كمال الجنين مهما كان ناقص الخلقة: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» (23: 14).

ذلك‏ «لِنُبَيِّنَ لَكُمْ» و هنا محطّة للتبيين بين التراب و المضغة، و بينه و بين الطفل، تبيينا للقدرة القاصدة المصممة في خلقكم، و انها هي الخالقة لكم في بعثكم مرة اخرى.

فقد توقّف فتسقط المضغة مخلقة و غير مخلقة، و اخرى‏ «نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ» من مضغة مخلقة او غير مخلقة و لكنها صالحة لتحولها جنينا مهما كانت ناقصة الخلقة، فقد تقرّ غير المخلقة و تسقط المخلقة، و اخرى المعاكسة مهما كانت هي الاكثرية المطلقة الثّلة، و تلك هي القلة.

فليس إقرارها في الأرحام لزاما لكونها مخلّقة رغم انه طبيعة الحال فيها، و لا اسقاطها عنها لزاما لكونها غير مخلقة، رغم انها خلاف طبيعة الحال‏ «لِنُبَيِّنَ لَكُمْ» ان هناك القدرة القاصدة عاملة، دون خلقة اوتوماتيكية فوضى جزاف.

«وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ» من مخلقة و غير مخلقة، و «ما نشاء» من شكليات و حالات‏ «إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» في الذكر الحكيم المقرر عندنا، المقدر بارادة عالمة حكيمة و تصميم، من ستة أشهر إلى تسعة، بزيادة طفيفة ام نقيصة.

«ثم» بعد قضاء مسمى الأجل‏ «نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» و الطفل هنا جمع لا ينافيه‏ «وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ» (24: 59) مفردا مجموعا، لأنه مفرد و جمع، و من جمعه‏ «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» (40: 67) «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى‏ عَوْراتِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 20

النِّساءِ» (14: 31) و تأويل كونه مصدرا يراد به الجمع عليل، حيث الظهور على عورات النساء ليس للمصدر، بل هو للصادر منه الظهور و هو هنا ذات الجمع، ثم «طفلا» في‏ «نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» إخراج لذوات الأطفال دون طفولتهم.

و كون «الطفل»- الخارجين صغارا لحدّ يصح التعبير عنهم بالمصدر- مبالغة في الصغر كرجل عدل، تنافيه مبالغة الكبر في‏ «الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ...» إذ لا تشمل الولائد الجدد، إلا الغلمة المدركة المشرفة لذلك الظهور، كصاحب العشر و حواليها، فان الأدنى منها خارج عن مقسم السماح و التحريم، فمن المضحك المبكي القول: بأنه يجب التحجب عن ابن خمس و حواليها، إذا فمن طفولة التأويل، تأويل الطفل إلى المصدر توجيها لجمعية الموقف.

«ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ» شد الجسم و العقل و الحكمة الجماعية، استيفاء لنموكم العضلي و العقلي و النفسي، شدّات ردف بعض و لصق بعض بنفس الترتيب في الاكثرية المطلقة، قياما على سوقكم في متطلبات الحياة، خروجا عن كافة الطفولات الفردية و الجماعية، العقلية و الجسمية، و يا لها من قدرة حكيمة او دعت الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد الشديد، التي تتكشف كلّ في أوانها المقررة له، كما أودعت النطفة كل خصائص الطفل و هي ماء مهين! فبلوغ الأشد هي الغاية القصوى من ذلك الإخراج، و هي أشد الانسانية السامية، دون البدنية الحيوانية الا ذريعة و ساعدا لشد الإنسانية.

«وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ» و هذه المقابلة دليل ان التوفي هنا هو الأخذ وافيا في حياة الأشد، ترقية لشدّات الإنسان إلى القمة الصالحة، ثم إماتة له في تلك الحالة «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 21

وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» (16: 70) «1».

فلا يعني التوفي هنا- فقط- الإماتة فانها تعم من يرد إلى أرذل العمر، بل هو التعمير بحالة الأشد، ثم الإماتة عنها، خلاف من يردّ إلى أرذل العمر، إذ لم يتوفّ من الناحية الأولى، ام هدّمت أشده التي تخطاها بارذل العمر.

و لان العمر هو منذ الولادة حتى الموت، إذا فأرذل العمر هو عمر الوليد الجديد-:

«لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً» فمحور الرذالة هو اللّاعلم عقليا و معرفيا، دون النكسة البدنية، و هما الشدّان الإنسانيان، و الثالثة البدنية هي الحيوانية المستخدمة المقارنة لهما زمنيا في الاكثرية المطلقة.

فيا ويلاه حين يرد إلى أرذل العمر، مرتدا الى طفولته الطفلاء، في عواطفه و انفعالاته، في وعيه و معلوماته، في تقديراته و تدبيراته، اقل شي‏ء يضحكه و يرضيه، و اقل شي‏ء يسخطه و يبكيه، ناسيا أوائل الأمور قبل انتهاءه إلى أواسطها و أواخرها، فالتا عن عقله الناضج و علمه الهائج، المتخايل بهما المتطاول فيهما، ثم:

«وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً»: عوانا بين الموت و الحياة، مستعدة للحياة فالهامد هو الحيوان الذي همد و سكن بعد حراكه، و خشع بعد تطالّه و اشرافه لعلة طرأت عليه فأصارته إلى ذلك، ثم أفاق من تلك الغمرة و صحا من هذه السّكرة فتحرك و استهب بعد هموده و ركوده.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا قول فصل في تفسير أرذل العمر فراجع سورة النحل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 22

و كذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب و اهمدها المحل، ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله، و بلّها القطر ببلاله، و اهتزت بنابتاتها ناضرة، و ربت بعد الجفوف متزيلة، و ذلك تقدير العزيز العليم! و هكذا التراب المخلوق منه الإنسان في المبدء و المعاد، «فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ» أحييت‏ «اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ» فتراها في حركة اهتزازية رابية نامية، و كأنها حيوانة عطشانة تشرب الماء و تهتز بعد همود و تفزّ بعد جمود «وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» بهجة مختلفة الحيويات النباتية و الحيوانية فان‏ «اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً» (71: 18).

ف «كل زوج» لا اقل من ان تعني كل الأزواج النباتية و الحيوانية و الانسانية النابتة من الأرض، اضافة إلى معادن نابتة نتيجة نزول الماء و مزيجه ثم‏ «وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» تعم كافة جنبات الحياة النابتة عن الماء.

ذلك، و بالتالي تستنتج من هنا و هناك خلفيّات و لزامات خمس لا نكير لها إلا المتجاهل عن ذلك الخلق المتواصل الذي يعيشه طول حياته:

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ 6 وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ 7.

«ذلك» الإحياء المتواصل لميتات الإنسان و الأرض بكل نابتاتها «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» «هو الحق» لا سواه، و كل حق سواه يتمحور اللّه الحق، فلا باطل منه أو اليه، و قضية الحق الطليق طلاقة الرحمة المتمركزة على الإحياء بغية بلوغ الاشدّ للإنسان، و سائر البلوغ لسواه، و لو ان الحياة انحصرت في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 23

هذه الدانية الفانية كان الخلق عبثا باطلا «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا» (38: 27).

«وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى‏» في المعاد كما يحيي هنا، فلو لا الإحياء الآتي لكان الإحياء الآن باطلا، «وَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» سواء فيه شي‏ء الإحياء الاول و سواه، ام اي شي‏ء صالح للخلق و الإحياء أيا كان و أيان.

فكما الحكمة في القدرة الطليقة تقتضي الإحياء في الخلق الاول، كذلك و بأحرى في الثاني‏ «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» (50: 15).

«وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها» قضية الحق في الخلق و الخلق الحق، ساعة يحاسب فيها اهل التقوى و الطغوى‏ «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» (20: 15) و إتيان الساعة هو قضية السنة الحقة المستمرة، ان لكل عملية ساعة تظهر فيها كما هيه، ساعة غير مجازية و لا مجازفة.

«وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» و هم الأموات حيث البعث حقهم العادل برحمة الرحيم الرحمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟

فحين تثبت امكانية الإحياء مرة الاخرى بكرور الإحياءات في حياتنا الدنيا، و ان الخلق حق دون اي باطل، فلولا البعث لكان الخلق باطلا و لعبا حين لا يقتص للمظلوم من الظالم، و لا تظهر حقائق حقائق المساعي لكل ساع.

و هذه الإمكانية باولويتها الذاتية، هي ضرورية التحقق بدليل ان اللّه هو الحق فخلقه حقّ، و ان كتابات الوحي مخبرة بتلك الضرورة، و حتى لولاها لكان دليل العقل بالعدل فيه الكفاية لإثباتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 24

أ ترى ان الحق يطوّر الإنسان من تراب إلى نطفة و إلى اكتماله ليبلغ أشده في هذه الأدنى، و ما هو ببالغها تماما سعيا و نتيجة قضية العرقلات و الزحامات، ثم لا يطوّره بعد موته إلى حياة ارقى ليبلغ أشده بمبلغ ما بلغها في الدنيا، حين‏ «يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏»؟.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ 9 ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ 10.

مقابلة «بِغَيْرِ عِلْمٍ» ب «وَ لا هُدىً وَ لا ..» تدلنا ان القصد منه هو العلم الذاتي، عقليا او فطريا او سواهما، فلتعن «هدى» العلم المكتسب من مكسب الحق اليقين تلقينا، ثم‏ «كِتابٍ مُنِيرٍ» هو كل كتاب ينير الدرب على كل متحر للحق، و طبعا هو كتاب الوحي.

و المجادلة في اللّه- إذا صحت و سلمت- لا تخرج عن هذه الثلاث، بعلم هو حجة الحق و أفضله الوحي المكمل لعلم الفطرة و الوحي، ام هدى من اصحاب الوحي مشافهة حاضرة، ام بالأخير «كِتابٍ مُنِيرٍ» فيه العلم و الهدى، و هذه تشرك في انها حجة الحق دون ريب، و قد عبر عنها في آية مضت ب «علم» و حقا هو التعبير الصالح عن كل حجة صارمة، و هي كل ما يفيد علما، دون ان يعارضه ما ينقضه او ينقصه، و قد تتفارقان ان الاولى بشأن المقلّدين لمكان «يتبع» و الثانية بشأن المقلّدين لمكان «ليضل» بعدها كفاية لأصحابها.

و ذلك ترتيب رتيب في الحجة بدء بالعلم، ففيه الكفاية لمن يعلم، ثم هدى لمن ليس له علم فيهتدي بعلم غيره، و من ثم‏ «كِتابٍ مُنِيرٍ» فيه كل علم ذاتي و مستفاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 25

و قد تعنيها الآية «وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا» (17: 36) و ان كان ترتيبها غير ترتيبها، فالسمع هو هدى، و البصر كتاب منير، و الفؤاد هو العلم المتفئد في القلب.

«ثاني عفطه» حال انه يثني و يكسر عطفه، ليّا بشدقه و عنقه، كبرا متعجرفا، و اعراضا و نأيا بجانبه، اعراضا عن سماع الرشد و اتباع الحق، يصرف دونه بصره و ينثي عنه عطفه و عنقه بكل رعونة و دلال، رغم انه ليس الا في ضلال، مخيلا اليه كأنه يملك ما يعوضه الحق، فهو- إذا- أحق من كل حق، «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»: يجادل .. ليضل، و ثاني عطفه ليضل، قرنا لإعراض الحال بإعراض المقال، ليحق الباطل و الضلال بحال بعد مقال، و ذلك أوقع في الإضلال، ان المجادل في اللّه بغير حجة، يثنى عطفه متظاهرا انه يملك الحق كله، بل هو الحق كلّه، و سواه باطل كله!

«و ليس احد أشد عقابا ممن لبس قميص النسك بالدعوى بلا حقيقة و لا معنى» «1».

«لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ» معنويا أمام دعاة الحق و اهله، و أمام اصحاب العقول في كل الحقول، و خزي بعذاب الاستئصال و المعيشة الضنك رغم كل دلال‏ «وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ» كما احرقوا هنا عقول الناس بحريق الجهل و التجاهل جزاء وفاقا، و يقال له حينذاك:

«ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ» يد الروح و الجسم، يد الجدال بغير علم وثني العف، يد العقل المدخول، و النفس الامارة بالسوء، و قد تعني «يداك» كافة الطاقات التي كان يملكها، سلبية و ايجابية. «وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 26

فمن كونه ظلّاما للعبيد ان يجبرهم على الضلال و الإضلال ثم يخزيهم بعذاب الدارين، و منه الا يعذبهم كما لا يعذب عباده الصالحين، تسوية بين المحسن و المسي‏ء، او يعذب المضلّلين دون المضلّلين، او يعاكس أمرهما أمّاذا من ظلم هو بالنسبة لرب العالمين ان يكون ظلاما للعبيد.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ‏ 11.

ذلكم الناس مقلّدين و مقلّدين كانوا هم النسناس المشركين، لا يعبدون اللّه على اية حال، و هؤلاء ناس موحدون و لكنهم لانحرافهم في حرفهم لعبادة ربهم خاسرون، فما هو ذلك الحرف الهارف الجارف الذي يزلّ به الأقدام و يضل به أقوام؟

حرف الشي‏ء طرفه و جانبه و هامشه، دون أصله و متنه، و لكنه جانب له يربطه بغيره عند عدم الارتباط، إذا فهو في أصله لا اصل له و لا معنى في ذاته ربطا و سواه، و لذلك سمى الحرف في الكلام حرفا لأنه جانب غير اصيل يربط أصيلا باصيل، اسما باسم ام بفعل، فلا معنى له في نفسه.

و عبادة اللّه كسائر الأفعال قد تكون متأصلة في حياة العابد، متعرقة في قلبه و إلى جوارحه، فسائر أفعاله حرف، و سائر حيوياته هامشية على ذلك المتن المتين المكين، فلا ينحرف او ينجرف عن عبادة ربه مهما قاست الظروف و عرقلت الحياة، بل و تزدهر و تنبهر تحت الضغوط و تلك عبادة الأحرار.

و تقابلها العبادة الحارفة المحترفة، التي هي حرف و أداة لما يهواه من حياته و شهواته، فأصله في حياته ما يهواه، فإن يعبد اللّه فهي على حرف و طرف و هامش من الحياة ام وجه واحد من وجوه العبادة، و هو وجه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 27

التجارة الدنيوية، فلا يعبد ربه على كل الوجوه، عبادة طليقة عن هواه و رضاه، فانما اتخذ إلهة هواه يهوى منه كما يهوى من هواه، إذا فهو عابد هواه دون اللّه.

فهي تزداد إذا زادت فيها نزوات الحياة، و تنقص ام تنقض إلى ضدها إذا نقصت او نقضت فيها نزوات، فليست عبادة اللّه له أصلا يهدف، فانما هي حرف يحرف و يهرف.

يحترف بها لحيونة الحياة و شهواتها، ام إذا قارنتها فنعما هي، و إذا فارقتها فبئسما هي:

«فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ» بحرف العبادة ام في ظرفها «اطْمَأَنَّ بِهِ» بخيره لا بعبادته إلا كأداة و قرين، فعبادته إذا ذريعة اطمئنانه بخير يهواه، فان كانت المعصية توصله إلى ذلك الخير انقلب إليها لنفس الاطمئنان.

«وَ إِنْ أَصابَتْهُ» بها او في ظرفها «فتنة» و ابتلاء «انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» و علّه حرفه الذي كان يعبد اللّه عليه حيث كانت العبادة وجها ظاهرا حارفا لحياته دون اصالة، فهو ينقلب على حرفه و يترك العبادة حيث يراها- بزعمه- سبب الفتنة ام قرينة لها.

و هذه صفة الإنسان المضطرب الدين، الضعيف اليقين، الذي لم تثبت في الحق قدمه، و لا استمرت عليه مريرته، فأوهى شبهة تعرض له ينقاد بقيادها، و يفارق دينه لها، كالقائم على حرف مهواة، فادنى عارض يزلقه، و أضعف دافع يطرحه.

و

قد أسلم رجل من اليهود فذهب بصره و ماله و ولده فتشاءم بالإسلام فأتى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: اقلني فقال: ان الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب في ديني هذا خيرا ذهب بصري و مالي و مات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 28

ولدي، فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): يا يهودي! الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد و الذهب و الفضة، و نزلت الآية» «1».

و «كان ناس من الاعراب يأتون النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فان وجدوا عام غيث و عام خصب و عام ولاد حسن قالوا ان ديننا صالح فتمسكوا به، و ان وجدوا عام جدب و عام ولاد سوء و عام قحط قالوا ما في ديننا هذا خير فانزل اللّه الآية «2».

ثم‏ «يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ» قد تعم اصل العبادة و فرعها، فالاولى هي العبادة الطليقة عن طقوس مقررة في الشرعة المرضية، و الثانية هي المرضية، و من الأول‏

«هم قوم وحدوا الله و خلعوا عبادة من يعبد من دون الله فخرجوا من الشرك و لم يعرفوا ان محمدا (صلى الله عليه و آله و سلم) رسول الله فهم يعبدون الله على شك في محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و ما جاء به فاتوا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و قالوا: ننظر فان كثرت أموالنا و عوفينا في أنفسنا و أولادنا علمنا انه صادق و انه رسول الله،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 346- اخرج ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد قال:

اسلم رجل ...

(2) المصدر اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال كان ناس ...

و فيه عن الحسن كان الرجل يأتي المدينة مهاجرا فان صح جسمه و تتابعت عليه الصدقة و ولدت امرأته غلاما و أنتجت فرسه مهرا قال و الله لنعم الدين وجدت دين محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) هذا ما زلت اعرف الزيادة في جسدي و ولدي و ان سقم بها جسمه و احتبست عليه الصدقة و أزلقت فرسه و اصابته الحاجة و ولدت امرأته الجارية قال و الله لبئس الدين دين محمد هذا و الله ما زلت اعرف النقصان في جسدي و اهلي و ولدي و مالي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 29

و ان كان غير ذلك نظرنا ...» «1».

هؤلاء الأغبياء، بعبادتهم الجوفاء الخواء قد يخسرون الآخرة و الاولى بترك الدنيا للدنيا، متذرعين بعبادتهم و التظاهر بزي الصالحين لذّات هذه الأدنى كالرئاسة الباطلة «2» يفضلونها على سائر اللذات و هيهات هيهات من هذه الهوّات، التي هي اركس من كافة الحيونات و الشهوات، يترك لذات ظاهرة لأخرى متخيلة مزخرفة باطنة، «فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» و ظلّ على ظاهر تقشفه و عبادته‏ «وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» ترك الظاهر الى متروك الباطن‏ «خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ».

«السائر في مفاوز الاعتداء، و الخائض في مراتع الغي و ترك الحياء باستحباب السمعة و الرئاء و الشهوة و التصنع إلى الخلق، المتزيي بزي الصالحين، المظهر بكلامه عمارة باطنه و هو في الحقيقة خال عنها، قد غمرتها وحشة حب المحمدة، و غشيتها ظلمة الطمع، فما افتنه بهواه و أضل الناس بمقالته؟ ..» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 473 عن الكافي بسند متصل عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال سألته عن هذه الآية قال: هم قوم .. قال اللّه عز و جل‏ «فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» يعني عافية في الدنيا «وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ» يعني بلاء في نفسه‏ «انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» انقلب على شكه إلى الشرك ...

(2)

نور الثقلين 3: 474 في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: فان في الناس من خسر الدنيا و الآخرة بترك الدنيا للدنيا و يرى ان لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال و النعم المباحة المحللة فيترك ذلك اجمع طلبا للرئاسة الباطلة.

(3) المصدر عن مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام): و اما السائر ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 30

ذلك بالرغم من ان العقيدة الصالحة هي الركيزة الثابتة الدائبة في حياة المؤمن، يدأب في تكميلها، و يعبد اللّه بحبها قدر المستطاع كالأصل القمة أو الوحيد في حياته، تضطرب الدنيا و أهلوها من حوله و هو ثابت لا تزعزعه أو تتجاذبه الأحداث، و تتهاوى حوله الأسناد و هو مستند في كل ذلك إلى قاعدة الايمان القائمة على أية حال.

ليس الايمان و العبادة هنا له رأس مال يتجربهما لمتعة الحياة الدنيا، فلا يعبد اللّه نظرة جزاء في هذه الأدنى، مهما كان ناظرا إلى الاخرى، بل هي هنا في ذاتها جزاء فانها الحمى الذي يلجأ اليه و لا يفجع لديه‏ «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»! أ ليس ذلك جزاء انه الثابت المطمئن في مهب الرياح، و من دونه من تتجاذبهم الرياح، و تتقاذفهم الأرباح، و هو كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف، ثابت الصلة باللّه راضيا بمرضات اللّه؟.

و العبادة على حرف هي بصيغة اخرى عبادة التعابد، يعبد ربه إذا عبده و أطاعه ربّه في هواه، كأنه يقول في ذلك الحرف: أعبدك حين تعبدني، و لا أعبدك حين لا تعبدني، تجارة فاجرة في العبادة، و هي في الحق عبادة الهوى، المتظاهرة بالهدى، و هي انحس من تركها، حيث التارك لها كافر، و العامل لها على حرف منافق أشر من كافر.

ان اصابة الخير الرخاء و الفتنة البلاء عند العبادة كلتاهما فتنة و بلاء «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» بل الفتنة في الرخاء افتن و ابلى منها في البلاء، فكيف عبر هنا عن فتنة الرخاء بالخير و اختص التعبير بالفتنة للبلاء؟

ذلك، لأن من هذه عبادته لا يرى الخير بلاء إذ لا يثقل على طبعه، و البلاء في مقياس الأغفال هو ما يثقل على الطبع، و المنافق لا يرى الخير الا ملائم طبعه و موصل شهوته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 31

و تراه إن أصابته فتنة كيف ينقلب على وجهه، و لم تكن عبادته عبادة من اوّل امره؟

ذلك لأن وجهه هو حرفه في عبادته، فان اصابته فتنة ترك ذلك الحرف الظاهر ايضا كما كان تاركا لحق العبادة منذ كان‏ «ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ».

لقد كان يدعو اللّه في ظاهر الحال في إصابة الخير، ثم يجاهر في دعوة غير اللّه عند الفتنة:

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ 12.

و هنا «لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ» قياسا إلى بغيته من دنياه، إذ لا ضار و لا نافع إلّا اللّه لا سواه، و الانقلاب من دعاء اللّه الضارّ النافع إلى دعاء غير اللّه غير الضار و لا النافع‏ «ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ» فان ترك أية دعوة كان ضلالا قريبا علّه ينتبه فيدعوا اللّه، و لكن الانقلاب من دعاء اللّه إلى دعاء غير اللّه ضلال بعيد ما أبعده! و ليس فحسب انه لا يضره و لا ينفعه، بل‏ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى‏ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ 13.

و من ضره الأقرب خسار الدنيا و الآخرة، و ليس نفعه إلا تخيلا لا يملك أية حقيقة و واقعية، فان من يدعوه من وثن او شيطان او طاغ او سند من بني الإنسان، ضرّه في عالم الضمير إذ يتوزع القلب أثقالا بالوهم و الذل، و ضره في عالم الواقع و لا سيما إذا وقعت الواقعة انه‏ «أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» قربا واقعيا على اية حال، مهما كان نفعه المتخيل اقرب زمنيا في الخيال.

ذلك، و اما المؤمن الذي يعبد اللّه أصلا- لا حرفا- و على أية حال، و لا يتخذ مولى و لا عشيرا الا اللّه، فهو رابح في كل الأحوال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 32

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ 14.

و ليست هي فقط جنات الآخرة، بل و جنة الاطمئنان و الرضوان هي عشيرته في دنياه و إلى عقباه، بل المؤمن هو جنات في عقليته و نفسيته، في عقيدته و عمليته، جنات في حياته كلها مهما اعترضته البلايا و الرزايا، فانها ليست بشي‏ء بجنب رضوان من اللّه و اطمئنان باللّه.

ذلك ل «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ» و لا يريد الا خيرا، عدلا او فضلا، و من دون اللّه ليس‏ «يَفْعَلُ ما يُرِيدُ» ان كان ممن يريد، إذ لا تحلّق قدرته على كل مراده، فضلا عمن لا يريد من أوثان و أصنام!.

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ 15.

هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين فهي حريّة بتدبر لائق بالغ علّنا نفسرها كما هي دون تحميل و لا تأويل، سردا لمحتملات ثم سبرا و تقسيما لكي نحصل على المعنى الأليق بلفظ الآية و موقفها.

الذي يبدو من جو الآية انه كان هنالك غيظ من ظن لعدم النصرة الإلهية في الدنيا و الآخرة، ثم تعجيز بسبب ظاهر مقترح كيدا لإذهاب ذلك الغيط و لن يذهب باي كيد حيث اللّه هو الفاعل للنصر في الدنيا و الآخرة و هو التارك له.

و السبب في اصل اللغة هو الحبل الذي يصعد به النخل، ثم كل ما يتوسل به الى شي‏ء ماديا و معنويا، فاعليا ام ظرفا معبّدا لفعل، فهو- إذا- يعم كل وسيلة لكل ما يتوسل اليه كما «تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ» (2: 166).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 33

و من الأسباب ما هي ظاهرة، و منها غير ظاهرة يمكن التوسل إليها، و منها ما لا يمكن التوسل إليها و بها الا بما يسببها اللّه تعالى كما «وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً» (18: 84).

ثم هنا اسباب ارضية من ذلك المثلث و اخرى سماوية أكثرها من الثالث‏ «وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏» (40: 37) و قد تأتي في مسرح التعجيز «فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ» (38: 10) و هي طرق السماء بوسائلها الغيبية.

و السبب في الآية هو الممدود الذي يحاول مادّه ان يقطع، قطعا لما يمد به، ام قطعا لمسافة سماوية فيه، فكل منهما قطع، و كلاهما مما لا يتأتى لناس عاديين غير مؤيدين بنصرة إلهية خاصة.

انه ليس حبل الخنق‏ «1» إذ لا يمدّ إلى السماء، و انما إلى سقف و لا يسمى سماء، ثم حبل الخنق لا يقطع، بل يربط بشي‏ء عل ثم يعلّق عليه لكي يخنق، مهما تصح عنايته ضمن المعنى الصالح فيعني القطع قطع نفسه بخنقه.

انما هو سبب ممدود من الأرض الى السماء قصدا لعملية في أمر سماوي، قطعا لرزق آت منها، «فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ» رزق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 79 محمد بن العباس بسند متصل عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر (عليه السلام) ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال‏ ذات يوم ان ربي وعدني نصرته و ان يمدني بملائكته و انه ناصري بهم و بعلي خاصة من بين أهلي فاشتد ذلك على القوم ان خص علينا بالنصرة و أغاظهم ذلك فانزل اللّه الآية قال: ليضع حبلا في عنقه إلى سماء بيته يمده حتى يختنق فيموت هل يذهبن كيده ما يغيظ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 34

الآخرة و الاولى، ام قطعا لتلك المسافة الممدودة بسبب حتى يرقى مادّه إلى السماء ليقطع، ثم هو بذلك الكيد يذهب ما يغيظ، حيث أغاظته النصرة الإلهية سلبا او إيجابا، قطا لسلبها حتى توجب ام لا يجابها حتى تسلب.

و هناك في الآية محاور ثلاثة: ظن فمد و غيظ، و الظن كما يلوح هو الظن السوء باللّه بإحالة نصرته في الدنيا و الآخرة، و المدّ كوسيلة مقترحة تعجيزية تثبيتا لتلك الإحالة، و إذهابا لذلك الغيظ.

فهنا احتمالان اثنان في مرجع الضمير الغائب ل «لَنْ يَنْصُرَهُ» انه «من» المذكورة قبله نصا، ام هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و جوّ الآية يناسبهما كليهما.

فالذي‏ «يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ‏ .. وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ‏ ..

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ» انه يبلغ به انقلابه على وجهه لحدّ الظن ان ناصره غير اللّه‏ «لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ» و كما اختلج في بعض الخواطر الضعيفة كأن اللّه لا ينصر المؤمن لا في الدنيا و لا في الآخرة، و ذلك حينما اصابته فتنة فانقلب على وجهه آيسا في الضر من عون اللّه، فاقدا كل نافذة مضيئة، و كل نسمة رخيّة بهيّة من روح اللّه، فيستبد به الضيق و الضنك و يستطيره إلى إياس مطلق عن رحمة اللّه، فيؤمر حينئذ تعجيزا «فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ» مسافة بينه و بينها كيدا لإيجاب النصرة له، فيزول بذلك غيظه‏ «هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ» به و منه من عدم النصر؟! و ليعرف هؤلاء الأغفال ان ليست النصرة الإلهية الا بيد اللّه، و هو ناصر من نصره و تارك من تركه.

ثم المشركون الذين كانوا يظنون ان اللّه لا ينصر محمدا في الدنيا و الآخرة في مسرح الجو المكي، حيث كان في أضيق الضيق، قياسا لغائب الآخرة إلى حاضر دنياه في مكة، و سنادا إلى ان من آمن ابتلي، إذا فهناك ضابطة لهم- هابطة- «أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 35

الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ» كما «كانَ يَظُنُّ» تشير بمضيه البعيد إلى ذلك الظن البعيد البعيد، ثم رأوه بعد الهجرة منصورا معززا- و السورة مدنية- اخذتهم الغيظة الخانقة لما لمسوا الواقع المدني خلاف ظنهم المحيل لنصرته، فهنا اللّه يحملّهم كيدا لقطع تلك النصرة العظيمة كما هو دأبهم الدائب، و من قبل حاوله فرعون و أضرابه‏ «لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏».

«فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ» فان رسول السماء منتصر من سماء الربوبية، بجند من السماء و وحي من السماء و رزق من السماء «ثُمَّ لْيَقْطَعْ» هذه النصرة عن الرسول، ام‏ «ثُمَّ لْيَقْطَعْ» تلك المسافة إلى الملإ الأعلى، و لكي يقطع هناك سبب النصرة الإلهية لرسول السماء «1».

«فلينظر» إذا «هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ» هذا المستحيل «ما يغيظ» من تلك النصرة الإلهية؟! إذا «لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ» تعم الرسول المظنون فيه، و الظان، كلّا لحدّه، و لفظ الآية تحتملهما، و الآيات السابقة عليها تلائمهما، و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى احسن الوجوه، و هما من ذلك الأحسن، استنباطا- دون أي تحميل- من نفس الآية بجوّها، مهما كان خنقه من الصالح ضمن المعنيين، فالقطع هنا قطع نفسه بخنقه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 347- اخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: من كان يظن ان لن ينصر اللّه نبيه و يكابد هذا الأمر ليقطعه عنه فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فان أصله في السماء ثم ليقطع اي عن النبي الوحي الذي يأتيه من اللّه ان قدر.

(2) الدر المنثور 4: 346- اخرج بعدة طرق عن ابن عباس في الآية قال: من كان يظن ان لن ينصر اللّه محمدا في الدنيا و الآخرة فليمدد بسبب قال فليربط حبلا الى السماء قال: الى سماء بيته السقف ثم ليقطع قال: ثم يختنق به حتى يموت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 36

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ 16.

«و كذلك» العظيم العظيم، البعيد المدى، العميق المعنى «أنزلناه» القرآن‏ «آياتٍ بَيِّناتٍ» لمن يتبين و يتحرى عن الهدى، دون المتجري عليها «وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ» الهدى، فيريد اللّه له الهدى، دون فوضى في ارادته الهدى، فانها ارادة ربانية لمن يريد الهدى، فلا تفيد ارادة الهدى للمهتدي ما لم تؤيد بارادة اللّه، و لا يريد اللّه الهدى الا لمن يريدها.

[سورة الحج (22): الآيات 17 الى 24]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى‏ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (17) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (18) هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (20) وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21)

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (23) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلى‏ صِراطِ الْحَمِيدِ (24)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 37

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى‏ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ 17.

فرق ست متفارقين في العقيدة، سادستهم‏ «الَّذِينَ أَشْرَكُوا» مما يلمح ان الخمس الاخرى غير مشركين تماما، فقد ينجون إذا كانوا صالحين أيا كانوا من الخمس، و كما تسانده: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 62) و مثلها (5: 68) حيث حلقت الأجر على المؤمنين منهم و سواهم، إذا فليسوا هم من المشركين.

و هنا «اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ» لأن فيهم مشركين‏ «وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» فصلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 38

في الجزاء كفصلهم في عقائدهم. «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» لا يعزب عن علمه شي‏ء فانه عليم بذات الصدور.

«الَّذِينَ آمَنُوا» هم المؤمنون بهذه الرسالة الجديدة المسمون بالمسلمين، «وَ الَّذِينَ هادُوا» هم اتباع التوراة «و النصارى» اتباع الإنجيل، فامّا «الصابئين و المجوس» فما الصابئون- خلاف ما قيل- من عبده الكواكب إذ قوبلوا كما المجوس ب «الَّذِينَ أَشْرَكُوا» فليسوا هم- لأقل تقدير- ممن محض الشرك محضا مهما انحرفوا عن حق التوحيد كفريق من اليهود و النصارى و فريق من المسلمين، فعلّهم قوم بين اهل الكتابين كما تلمح له توسطهم بينهما في الذكر، صبأوا من الدين الكتابي إلى شي‏ء من غير الكتابي مع الحفاظ على عقيدة التوحيد كما ذكرناهم في آية البقرة.

و المجوس هم الزرادشت و كتابهم المقدس «اوستا» و هم يقدسون النار دون ان يعبدوها كأصنام، و مهما يذكر في كتابهم اهورا مزدا و أهرمن كمبدئين للخير و الشر و لكنهم ينهون كل شي‏ء الى اهورا موجد الكل، إذا فليسوا من الوثنيين الممحّضين الشرك، و كما يلمح له مقابلتهم كالصابئين بالذين أشركوا.

و الذين أشركوا هم الذين محضوا الشرك محضا، تاركين عبادة اللّه إلى عبادة الأصنام و الأوثان.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ 18.

«ا لم تر» خطاب لكل راء مهما اختلفت درجات الرؤية باختلافهم فيها، و المرئي لهم كلهم، بامعان النظر و لمعان الفكر «أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ» لا سواه، فهو مسجود الكل على الإطلاق في ذوات اكوانهم، خاضعين غايته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 39

و نهايته أمام مشيئته دون امكانية التخلف و لا قيد شعرة، من عقلاء ك «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» عامة، أم سواهم من جماد ك «الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ» ام نبات ك «الشجر» و هو كل ما يتشجر من قائم على سوقه و غير قائم، ام حيوان: «و الدواب».

فهذه سجدة كونية ذاتية للكائنات كلها، مهما كانت ساجدة باختيار «إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) و أفضل التسبيح عمليا هو السجدة، فهي إذا تعم الكل.

ذلك الكل، و اما الناس، «وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» فلهم سجدة باختيار اضافة الى كونية بشعور و سواه في أجزائهم الكونية «وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ» و لكنهم لا يسجدون باختيار، بل الاوليان: كونيا أمام مشيئة اللّه، و تسبيحا لأجزاء ذواتهم كسائر ذوات الكائنات، فهم‏ «كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ» بتركهم السجدة باختيار.

ففي مثلث السجدة نجد «كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ» يترك الزاوية المختارة، و لا تنفصم به الضابطة التي تعم الكائنات كلها، فالكون- إذا- محراب واسع يسجد فيه الكائنات لربها طوعا او كرها: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ» (13: 15) أ فليس يجدر بالإنسان و هو أفضل الكائنات كونا و كيانا ان يجاوبهما في ذلك السجود العام طوعا كسجدته كرها، و اية مهانة أرذل و أذل ان يترك هذا الإنسان السجود المختار لربه فيهينه اللّه كما أهان هو نفسه: «وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» دون اللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ».

فهذه الآية توبيخة قارعة على تاركي السجود للّه لو انهم انتبهوا عن غفوتهم، و من الراجح جدا او الواجب ان تسجد عند قراءتها او استماعها، و كما مضت أحاديث‏

عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 40

حين سئل: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ فضّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرءهما» «1».

ثم الارادة و

«المشية من صفات الأفعال فمن زعم ان الله لم يزل مريدا شائيا فليس بموحد» «2»

حيث الأفعال على اية حال حادثة كسائر الحادثات، ثم و ليست مشيئة اللّه تابعة لمشيئة خلقه أيا كانوا «3».

و قد يتساءل ان كثيرا من الناس لما يعرفوا معنى سجود الكائنات فضلا عن واقعه، فكيف يتساءلون «ألم تر» كأنهم يرون سجودها رأي العين ام رأى العلم؟

و الجواب ان النظرة المجردة الفاحصة عن حالة الكائنات ككل تجاه ارادة اللّه، يريهم كلهم انها خاضعة لارادة واحدة، فلو كانت هنالك كثرة لفسدت بمختلف الإرادات، فتلك الوحدة الكونية بنضدها و نسجها بمسير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 342 و في نقل آخر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فضلت على القرآن بسجدتين، و في ثالث عن علي و أبي الدرداء انهما سجدا في الحج سجدتين.

(2) نور الثقلين 3: 476 عن التوحيد للصدوق و باسناده إلى سليمان بن جعفر الجعفي قال قال الرضا (عليه السلام): ...

(3)

المصدر عن التوحيد باسناده إلى عبد اللّه بن ميمون القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهم السلام) قال: قيل لعلي (عليه السلام) ان رجلا يتكلم في المشية فقال: ادعه لي قال فدعاه فقال له: يا عبد اللّه خلقك اللّه لما شاء او لما شئت؟ قال:

لما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء او إذا شئت؟ قال: إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء او إذا شئت قال: إذا شاء قال: فيدخلك حيث يشاء او حيث شئت قال: حيث شاء، قال فقال له علي (عليه السلام): لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عيناك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 41

و مصير واحد، تدلنا على كمال خضوعها دون تلفت و تخلف عن ارادة اللّه الواحد القهار، فهو هو المسجود لا سواه، فحريّ ان لا يعبد إلا إياه.

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ‏ 19.

«اختصموا» هنا دليل ان «خصمان» لا تعني شخصين اثنين، و انما جمعين، ثم‏ «فَالَّذِينَ كَفَرُوا» تأييد ثان لهذه الجمعية و ان الأولين هم الذين آمنوا، و تقول الروايات انها نزلت في جمعي البدر، ثلاثة مؤمنون يقودهم علي (عليه السلام) و آخرون كافرون، و

قد قال علي (عليه السلام): انا اوّل من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي اللّه يوم القيامة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 348- اخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن أبي ذر انه كان يقسم قسما ان هذه الآية: هذان خصمان ... نزلت في الثلاثة و الثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر و هم حمزة بن عبد المطلب و عبيدة بن الحارث و علي بن أبي طالب، و عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد بن عتبة قال علي (عليه السلام) انا ...

و

فيه- اخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية- قال‏ لما التقوا يوم بدر قال لهم عتبة بن ربيعة لا تقتلوا هذا الرجل فانه ان يكن صادقا فأنتم اسعد الناس بصدقه و ان يكن كاذبا فأنتم أحق من حقن دمه فقال ابو جهل بن هشام لقد امتلأت رعبا فقال عتبة ستعلم أيّنا الجبان المفسد لقومه قال فبرز عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة فنادوا النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أصحابه فقالوا: ابعث لنا أكفاءنا نقاتلهم فوثب غلمة من الأنصار من بني الخزرج فقال لهم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اجلسوا قوموا يا بني هاشم فقام حمزة بن عبد المطلب و علي بن أبي طالب و عبيدة بن الحارث فبرزوا لهم فقال عتبة تكلموا نعرفكم ان تكونوا أكفاء قاتلناكم، قال حمزة انا حمزة بن عبد المطلب انا اسد اللّه و اسد رسوله فقال عتبة كف‏ء كريم فقال علي (عليه السلام) انا علي بن أبي طالب فقال كفؤ كريم فقال عبيدة انا عبيدة بن الحارث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 42

و لان اختصام فريقين لا يختص بمورد خاص فلتعن الآية كلّ اختصام في الرب، بين البدريين ام اهل الكتاب و المؤمنين‏ «1» ام اهل الجنة و النار أجمعين‏ «2» مهما كانوا في ظاهر الحال في المسلمين كبني أمية، و اهل الحق من امة محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «3» و قد فصل اللّه بين الفريقين، المشركين و سواهم، و المؤمنين و سواهم في آيات سالفة، إذا فهما «خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» ككل دونما اختصاص.

و المختصمون في اللّه هم بين محق و مبطل و لا ثالث لهما، إذا «هذانِ خَصْمانِ ..» على طول خط الزمن الرسالي، و كافة الاختصامات راجعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقال عتبة كفؤ كريم فأخذ حمزة شيبة بن ربيعة و أخذ علي بن أبي طالب عتبة بن ربيعة و أخذ عبيدة الوليد، فاما حمزة فأجاز على شيبة و اما علي فاختلفا ضربتين فأقام فأجاز على عتبة و اما عبيدة فأصيبت رجله، قال فرجع هؤلاء و قتل هؤلاء فنادى ابو جهل و أصحابه: لنا العزى و لا عزى لكم، فنادى منادي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قتلانا في الجنة و قتلاكم في النار فانزل اللّه‏ «هذانِ خَصْمانِ ...».

(1). المصدر- اخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن قتادة قال: اختصم المسلمون و اهل الكتاب فقال اهل الكتاب نبينا قبل نبيكم و كتابنا قبل كتابكم و نحن اولى باللّه منكم، و قال المسلمون: ان كتابنا يقضي على الكتب كلها و نبينا خاتم الأنبياء فنحن اولى باللّه منكم فأفلج اللّه اهل الإسلام على من ناواهم فانزل اللّه هذه الآية.

(2) المصدر- اخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال: هما اهل الجنة و النار اختصمتا فقالت النار خلقتني اللّه لعقوبته و قالت الجنة خلقني اللّه لرحمته.

(3)

نور الثقلين 3: 476 عن الخصال عن النضر بن مالك قال‏ قلت للحسين بن علي (عليهما السلام) يا أبا عبد اللّه حدثني عن قوله تعالى‏ «هذانِ خَصْمانِ ..» فقال: نحن و بنو امية اختصمنا في اللّه تعالى قلنا صدق اللّه و قالوا كذب اللّه فنحن الخصمان يوم القيامة،

و

عن الكافي بسند متصل عن أبي جعفر (عليه السلام) «فَالَّذِينَ كَفَرُوا» بولاية علي (عليه السلام) «قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 43

الى ربوبيته تعالى.

«فَالَّذِينَ كَفَرُوا» بالحق لما جاءهم كفرا عاندا عامدا مقصرا «قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ» تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان، حتى لا يسلم منها عضو من أعضائهم، و لا يغيب عنها شي‏ء من أجسادهم، و علّها هي‏ «سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ» إذا لبسوها و اشتعلت النار فيها صارت كأنها ثياب من نار لاحاطتها بهم، و اشتمالها عليهم، و لا فحسب بل‏ «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ» مادة حارة حارقة لباسا فوق اللباس، كدثار فوق الشعار و نار فوق نار، اضافة إلى ذواتهم النارية حيث‏ «أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» فهم إذا محشورون في ثالوث النار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ».

يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (20) وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ 21.

و الصّهر هي الإذابة، فذلك الحميم المصبوب من فوق رؤسهم يذيب ما في بطونهم من أمعاء و أحشاء، و يذيب الجلود نضجا: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ..»

و المقامع هي المداقّ و العمد، حيث تضرب على رؤسهم بما يصبّ، و يصبّ بما تضرب، جمعا بين جموع العذاب.

ففي هذه الضفة الكافرة ثياب من نار تقطع و تفصل، و حميم و مقامع تصبّ و تضرب عذابا دائبا لا حول عنه:

كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ‏ 22.

ارادة للخروج تشرفهم على واقع الخروج، ثم اعادة فيها قطعا لأمل كأنه واقع عذابا فوق العذاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 44

و «كلما» هنا تحلّق على كل زمن العذاب دون كل الزمن حتى يدل على لا نهائية في العذاب، فالخروج عن العذاب ما دام استحقاق العذاب للآبدين فيه ممنوع، و لا ينافيه فناء النار بمن في النار فانه ليس خروجا عن النار و هي باقية.

فالنار- إذا- تعمهم و تغمهم دون خروج عنها للدائمين فيها ما دامت هي مشتعلة، و لا خروج عنها او عن غمها كما لا تخفيف، و انما عذاب قدر استحقاق، قضية العدل و التسوية بين عصيان محدود و عذاب محدود.

و يقال لهم عند ردهم إليها «وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» هنا كما أذقتموه من اضللتموه هناك جزاء وفاقا، عذابا فوق العذاب.

ثم نرى ضفة الايمان كيف تزفّ بحلية من لباس و طيب من القول:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ 23 وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلى‏ صِراطِ الْحَمِيدِ 24.

فأين الثياب المقطوعة من حرير من مقطوعة النار، و اين التحلية من أساور الدستوار الذهبية زينة للأيدي، من حميم مصبوب فوق رؤسهم و مقامع من حديد، و اين الهدي الى الطيب من القول تحية و سلاما و إكراما من الرد إلى النار للمغتمين فيها و القول‏ «ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ».

هنا «يُحَلَّوْنَ فِيها .. وَ لِباسُهُمْ فِيها» يلمحان بحلّيتهما لهم! فقط- فيها دون الاولى، و قد تظافر الحديث‏

عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» «1»

و بالطبع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 35- اخرج البخاري و مسلم عن عمر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 45

ذلك التهديد التحديد خاص بقبيل الرجال فان التزين بهما للنساء غير محظور بل هو مشكور.

«و هدوا» هداية كهديّة «إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ» تكلما به و استماعا له‏ «وَ هُدُوا إِلى‏ صِراطِ الْحَمِيدِ» لان صراطهم في الدنيا كان حميدا بهدي اللّه الحميد.

[سورة الحج (22): الآيات 25 الى 37]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (25) وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)

ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (31) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34)

الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى‏ ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (35) وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (36) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و النسائي و الحاكم عن أبي هريرة عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن الزبير عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اخرج النسائي و الحاكم و ابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) .. و زاد: و ان دخل الجنة لبسه اهل الجنة و لم يلبسه.

أقول و يساعده‏ «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» لمكان الجمع، فمن عمل بعض الصالحات لم يكن بهذه المثابة و المثوبة الكاملة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 47

ثلاثة عشر آية تحوم حوم الحج في البعض من هامة مناسكه، و التوجيهات العقائدية و السياسية اما هيه مما يقصد من هذه العبادة الجماهيرية السياسية القيادية، و لكي يتبنىّ دولة الإسلام قوية صامدة عالمية، رباطا تاما بين الكتلة المؤمنة في ارجاء المعمورة «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ».

فلذلك ترى‏ «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» يختص بالذكر بعد «سَبِيلِ اللَّهِ» كأصدق مصداق شاخص يتجسد فيه سبيل اللّه، و هي سبيل صالح الإنسان بما يصلحه إصلاحا جماعيا جمعيّا في كافية الجنبات.

صحيح ان سائر الفرائض الإلهية كلها سبل اللّه و لكنما الحج تجمع بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 48

كافة السبل قضية مناسكها الهامة التي تجمع جموعها في عبودية جماهيرية حركية عالمية:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ‏ 25.

فكما الإسلام بضوابطه هو لكافة المسلمين، كذلك قبلة الإسلام و عاصمته: «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» فقد جعله اللّه للناس- و طبعا المسلمين منهم- فإنهم الذين يقصدونه كسبيل اللّه الموحّدة بينهم- جعله لهم حال انه‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» سكنا و عبادة، فلا يفضّل عاكف فيه على باد، و ذلك لأنه المعكف و المطاف و القبلة لكل المسلمين على حد سواء، بيت عتيق طليق لا يملكه احد سوى اللّه، و قد جعله اللّه لعباده‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» فكل ترجيح لعاكف على باد لحاضر على مسافر، و لمواطن على سواه، كل ذلك الحاد فيه بظلم، «نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ».

لا يعني «العاكف» فقط المعتكفين في المسجد الحرام كعبادة معروفة حيث العبارة الصالحة عنه المعتكف، و لا «الباد» غير المعتكف، بل هما «المقيم و الذي يرحل» سواء اعتكفا ام أحدهما ام لا، و علّ التعبير بالعكوف للتأشير إلى مدى المسؤولية الهامّة على عواتق المقيمين بمكة المكرمة، أن عليهم حياة العكوف و العبودية فيها بكل رقابة.

و طبعا لا يعني‏ «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» هنا نفس المسجد إذ لا يقيم فيه المقيم و لا البادي، بل هو مكة المكرمة كلها او الحرم كله، تعبيرا بأقدس مكان فيه، كما و «ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» (2: 196) ليست لتعني نفس المسجد فانه ليس مسكنا للأهلين، و ذلك عناية في التعبير عن البلاد المقدسة ان يذكر الامكنة المقدسة فيها.

و ليس ذلك الصدّ- فقط- عن المسجد الحرام، فانه صدّ عن المناسك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 49

كلها، و ليس في المسجد الحرام إلا شطر منها، إذا فالمسجد الحرام هنا هو امكنة المناسك كلها، الحرم و ما والاه من عرفات و مشعر و منى.

و قد يقال ان «فيه» في‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» تتعلق ب «سواء» ف «سواء فيه»: نفس المسجد «العاكف» في مكة او الحرم «و الباد» الا ان «العاكف» اقرب تعلقا و معنى، فان كانت «فيه» متعلقة بسواء لكانت الصيغة الصالحة «سواء فيه العاكف و الباد».

او ان‏ «الْعاكِفُ فِيهِ» هو المعتكف كعبادة خاصة، و لكنه لا يقابله الباد، فرب باد يعتكف.

إذا «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» تسوّي بينهما في بيوت مكة، فهي مباحة للباد كما العاكف؟ فلا تؤخذ اجرة من زوار البيت و الا فلا سواء، و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «مكة مباحة لا توجر بيوتها و لا تباع رباعها» «1»

و

«من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا» «2»

و

قد «توفى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و ابو بكر و عمر و ما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن و من استغنى اسكن» «3»

و

من كتاب لعلي (عليه السلام) الى قثم بن عباس و هو عامله على مكة «و أمر أهل مكة ان لا يأخذوا عن ساكن اجرا فان اللّه سبحانه يقول‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» و العاكف المقيم به و البادي الذي يحج اليه من غير اهله» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 251- اخرج ابن مردويه عن ابن عمران النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

(2) المصدر اخرج الدار قطني عن ابن عمران رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

(3) المصدر اخرج ابن أبي شيبة و ابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال: ...

(4) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عن الإمام علي (عليه السلام): ... و

في نور الثقلين 3: 480 عن قرب الاسناد للحميري باسناده إلى أبي جعفر عن أبيه عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 50

و الصد عن المسجد الحرام كسائر الصد عن سبيل اللّه هو الصد عن ان يعبد اللّه فيه بخاصة المناسك و عامة العبادة، و من الصدّ عنه التمييز بين العاكف فيه و الباد، و منه تملكه روحيا او زمنيا، و السيطرة الخاصة عليه الا تنظيما ادبيا بين جموع الوافدين عاكفين ام بادين.

و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «يا بني عبد مناف من ولى منكم من امور الناس شيئا فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت او صلى اية ساعة من ليل او نهار» «1»

فكلما يرغب في المسجد الحرام او يؤمر فيه او يندب لا يجوز الصدّ عنه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

علي (عليهم السلام) كره إجارة بيوت مكة و قرء «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ»

و

عن تهذيب الأحكام موسى بن القاسم عن صفوان بن يحيى عن حسين ابن أبي العلا في الصحيح قال‏ ذكر أبو عبد اللّه (عليه السلام) هذه الآية فقال: كانت مكة ليس على شي‏ء منها باب و كان أوّل من علق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان و ليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور و منازلها و روى مثله في العلل عن الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ سألته عن قول اللّه عز و جل‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» فقال لم يكن ينبغي ان يصنع على دور مكة أبواب لأن للحاج ان ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتى يقضوا مناسكهم و ان أول من جعل لدور مكة أبوابا معاوية و عن الكافي روى مثل ما في التهذيب باختلاف يسير.

و

في تفسير البرهان 3: 84 عن الحميري باسناده عن جعفر عن أبيه عن علي (عليه السلام) ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نهى اهل مكة عن إجارة بيوتهم و ان تعلقوا عليها أبوابا و قال: سواء العاكف فيه و الباد- و قال: و فعل ذلك ابو بكر و عمر و عثمان حتى كان في زمن معاوية.

و

في الصحيح عن حفص البختري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ ليس ينبغي لأهل مكة ان يجعلوا لدورهم أبوابا و ذلك ان الحاج ينزلون معهم في ساحة الدار حتى يقضوا حجهم‏ (التهذيب 5: 463 و رواه مرسلا في الفقيه: 3: 126).

(1). تفسير الفخر الرازي 23: 24 قال (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 51

و هل ان تلك التسوية تقتضي ألّا تملك دور مكة المكرمة؟ علّها لا، إذ يجوز ان تملك على ذلك الشرط ألا يمنع الحجاج من سكنها زمن الحج.

هنا بيت اللّه، فلا يعبد فيه الا اللّه، و كل عباد اللّه فيه على سواء، و مهما اختلفت درجاتهم روحية و زمنية، فلا ينبغي لأحد ان يختص فيه بكرامة و حرمة زائدة، اللهم الا بتقوى اللّه، و لكنها ايضا ليست لتميز عباد اللّه في بيت اللّه بشأن من شؤون عبادة اللّه مكانا او مكانة او زمانا ام أيا كان، فان‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» تحلّق على كافة التسويات من حيث كون المسجد الحرام سبيل اللّه.

ثم الإلحاد فيه يعم كل ميل عن الحق، عامة في كل الحقول، و خاصة في حقل المسجد الحرام بما له من حرمات خاصة، فيشمل كل عصيان و ظلم في مثلثه، بحق اللّه او بحقك و بحق الناس.

«وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ»- لا فقط- من يعمل فيه أو يلحد فيه- تجتث عن هذه الساحة المباركة كافة التخلفات عقائدية و عملية و حتى في النية و الطوية و لمن لم يصل إلى الحرم رعاية لقداسة الموقف فانه اقدس مقدس في الكون كله بأسره و عن بكرته، فكما من الإلحاد في المسجد الحرام تهديمه و عوذا باللّه، او الإشراك باللّه، كذلك كل تخلف عن شرعة اللّه، حيث يتضاعف في المسجد الحرام و في الحرم كله و منه الصيد في الحرم لا سيما حالة الإحرام، و ارتكاب محرمات الإحرام حاله، و دخوله الحرم بلا إحرام الا لمن استثني، بل و

«احتكار الطعام في الحرم الحاد فيه» «1»

و على الجملة

«كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 351- اخرج البخاري في تاريخه و عبد بن حميد و ابو داود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن يعلي بن امية عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ... و اخرج مثله البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 52

ظلم يظلم به الرجل نفسه بمكة من سرقة او ظلم احد او شي‏ء من الظلم فاني أراه إلحادا و لذلك كان ينهي ان يسكن الحرم‏ «1».

و لا فحسب فيه، بل و من يرد فيه قبل ان يوافيه و ان لم يصله فضلا عن وصوله بما أراد، و باحرى من يرد فيه و هو فيه و لم يحقق ما أراد، و هذه من ميزات قبلة الإسلام، ان الارادة السيئة بمجردها في غيرها لا تؤخذ بشي‏ء، و لكنها فيها مأخوذة مهددة بعذاب اليم، فضلا عن تحقيقها فيها! و قد يتوسع‏ «مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ» الى غير الإنسان من حيوان كسباع الطير إذا صارت في الحرم‏ «2».

و هل يتحصن بالحرم عن اجرام فيه ام خارجه؟ كلا! فانه ليس ملجأ للمجرمين، بل و نفس‏

«التحصين بالحرم الحاد» «3»

فانه حرم للمؤمنين، دون المجرمين.

اللهم إلا تحصينا مؤقتا مشروطا لمن جنى في غيره ثم لجأ اليه فانه يضيّق عليه في مأكله و مشربه حتى يضطر للخروج عنه فيقام عليه الحد، و اما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 482 في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي الصباح الكناني قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن هذه الآية قال: ... أقول: و الراويات بذلك مستفيضة.

(2)

المصدر عن العلل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قيل له: ان سبعا من سباع الطير على الكعبة لا يمر به شي‏ء من حمام الحرم الا ضربه، فقال (عليه السلام):

انصبوا له و اقتلوه فانه قد الحد في الحرم.

(3)

جامع أحاديث الشيعة 10: 92 ح 211- يب 579 احمد عن ابن محمد الحسن بن علي الوشاء عن بعض أصحابنا يرفع الحديث عن بعض الصادقين (عليه السلام) قال: التحصين بالحرم الحاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 53

الجاني في نفس الحرم فيقام عليه الحد في نفس الحرم «لأنه لم يدع للحرم حرمة» «1».

و على اية حال فكل الظلم فيه الحاد «2» بل و ارادته ايضا من الإلحاد فيه.

و ترى ما هو موقف «بظلم» بعد «بإلحاد» و كل الحاد ظلم؟ عل الباء في «بإلحاد» للملابسة، تعني ملابس الإلحاد فيما يريد، و في «بظلم» للسبية، تعني إلحادا ظالما، عله هنا بحق الناس حيث‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» و كما بحق اللّه و أدناه الظلم بالنفس، ام انهما حالان ل «يرد» و المفعول محذوف ليتناول كل متناولاته، انحرافا بظلم.

ام ان «بظلم» بدل عن «بإلحاد» تعني ارادة ملابسة بظلم أيا كان، فانه الحاد، اكبارا لاي ظلم يراد فيه انه الحاد، و ان كان ظلما بالنفس فضلا عن سواها، ام انها كلها معنية مهما تفاضلت.

و كل ذلك لسيادة منقطعة النظير في ذلك الموقف العظيم، فانه قبلة الإسلام و مطاف المسلمين، فليقدّس عن كل الحاد و كل ظلم و كل ما لا يرضاه اللّه تعالى، منطلقا لكافة الأبعاد الإسلامية السامية «3».

فكما ان المسجد الحرام هو اقدس مكان في الكون كله، فليكن كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث راجع إلى تفسير آية «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فراجع.

(2) كما رواه أصحابنا مستفيضا كصحيحة ابن أبي عمير عن الصادق (عليه السلام) ان كل ظلم فيه الحاد، و مثلها غيرها.

(3) جامع أحاديث الشيعة 10: 93 في الرضوي (عليه السلام) فمن هم لمعصية (اي في مكة) و لم يعملها كتب عليه سيئة لقوله تعالى: و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب السعير» و ليس ذلك في بلد غيره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 54

عاكف فيه او باد و اقدس ممن سواه بواقع القداسة ام- لأقل تقدير- بحراسة وقتية، تصنيعا لنفسه و تصنيعا لآخرين.

و هكذا يسبق الإسلام سبقا بعيدا عريقا بإنشاء واحة السلام و منطقة الأمان، و دار الإسلام المفتوحة لأهل السلام و الإسلام، مهدّدا هؤلاء الذين يريدون اعوجاجا في هذا المنهج القويم المستقيم بعذاب اليم‏ «وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ».

و علّ ذلك التعقيب يكفي جوابا عن‏ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» كما هو جواب ل «مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ» فلا حاجة إلى تقدير، ام انه لوضوحه بعظم عذابه ليس بحاجة إلى جواب حيث يعرفه البسطاء فضلا عن اولي الألباب.

و لقد ذكر المسجد الحرام في اربعة عشر موضعا بمختلف المناسبات ثم مسجد و مساجد اخرى بنفس العدد، و يا لها توافقا بين عديد الذكر للمسجد الحرام و سائر المساجد، وفقا فيهما لعدد المعصومين الأربعة عشر، فإنهم من شروط المسجد الحرام سبيلا إلى اللّه، و تقبلا لفريضة اللّه.

و لماذا يعطف هنا المستقبل «و يصدون» على الماضي‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا»؟

علّه للتأشير إلى استمرارية صدهم منذ كفرهم الماضي، اضافة إلى كل صادّ عن سبيل اللّه في المستقبل على مر الزمن فإنهم يكفرون و يصدون، فلا يكفي- إذا- و صدوا، حيث لا يشمل استقباله و استمراره، فهم بعكس التعبير ك «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ».

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ 26.

«وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 55

السُّجُودِ» (2: 125).

«وَ إِذْ بَوَّأْنا» كأنه قبل ان يبني البيت، لمكان‏ «مَكانَ الْبَيْتِ» دون- فقط- «البيت» فقد جعله اللّه له بواء مباءة: مرجعا يرجع إليه إسكانا من ذريته، و عمارة للبيت، و طوافا به، فلان الأولين يختصان به، لذلك يختص هو بتلك المباءة «أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً» نهيا صارما يحلّق على كافة دركات الإشراك باللّه حتى الرئاء و ما دونه.

لا فحسب نفسك بل‏ «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ» عن مظاهر الإشراك و ملامحه و عمن يشرك باللّه، إخلاء «لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ».

صيغة «بيتي» مصوغة لخصوص الكعبة المشرفة، اضافة تشريفية ما أشرفها، مهما كانت كل مساجد اللّه بيوت اللّه، إلّا ان الكعبة إمام البيوت كما هي أمام البيوت.

هنا و في‏ «أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ» (2: 125) و «عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» (14: 37) الكعبة فيها بيت اللّه، لأنها مباءة العبادة للّه، ثم في ثلاث اخرى‏ «1» هي بيت الناس لأنها معبد الناس و مطافهم، فهي إذا بيت اللّه و بيت الناس، ثم و في عشر هي الاخرى «البيت» اشارة إلى بيت اللّه و بيت الناس.

فهو بيت اللّه حيث يعبد فيه اللّه و هو قبلة المصلين للّه، و هو بيت عتيق لم يكن و لن يكون في ربقة غير اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ..» (3: 16) و «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97) «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 56

و هو بيت الناس، فإنهم هم الذين يبيتون فيه و يستقبلونه و يطوفون به للّه، إذا فهو بيت الناس كما هو بيت اللّه مهما بان البون بين الانتسابين كالبون بين الناس و بين اللّه.

ثم الطهارة المأمور بها ظاهرية عن كافة الأنجاس و الأقذار، و بأحرى باطنية عن الإشراك باللّه في مربع «الطواف و القيام و الركوع و السجود» كالقمة المعنية من توحيد اللّه في عبادته.

فكما ان هؤلاء عليهم تطهير بيوت قلوبهم و افكارهم و مظاهر أبدانهم و ملابسهم و اعمالهم حتى يصلحوا لحج هذا البيت، كذلك‏ «طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ ...» و من تطهير ذلك البيت ان تكون عمارته بصدق النية و طهارة الطوية: «أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى‏ تَقْوى‏ مِنَ اللَّهِ ..» (9: 109)

و كما منه تنحية المشركين عنه‏ «1».

و ترى من هم «الطائفين و القائمين» حيث‏ «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» هم المصلون؟ فهل الطائفون هم من يطوف البيت، و القائمون هم القائمون في الصلاة، فهو و الركع السجود تعبيرات ثلاث عن الصلاة؟

و «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» يكفي تعبيرا عن الصلاة، فإنهما تعنيان عبادة تحويهما قضية ردفهما دون عطف، و هما معا لا يوجدان إلّا في الصلاة، و قد عطفا بالقائمين دليلا على مفارقتهما إياهم! و لو كانت الثلاثة هم المصلين فصحيح العبارة عنهم «القائمين الركع السجود» ردفا دون عطف قضية وحدة العبادة، رغم ان ضم‏ «الْقائِمِينَ» لا يفيد زيادة معنى!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي ص 32 عن الصادق (عليه السلام) نح عنه المشركين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 57

ثم و ذكر «الْعاكِفِينَ» في آية البقرة بديلا عن‏ «الْقائِمِينَ» هنا مما يحتّم انهم هم العاكفون المقيمون في مكة المكرمة، فالطائفون هم البادون، الحاضر للطواف دون الإقامة.

و تأييدا ثالثا قرن السواء في غاية التطهير، بالسواء بين العاكف و الباد، فكما لم يميزوا في البداية فكذلك الأمر في النهاية، هناك‏ «لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ» و هنا «لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ».

فالطائفون هم الزائرون، و العاكفون هم القائمون، و الركع السجود هم المصلون، مهما شمل الطائفون كل الطائفين حوله، و العاكفون من يعتكف فيه و سواه.

فقد جعل اللّه هذا البيت للناس سواء العاكف فيه و الباد في كل شعائر الحج، و لذلك امر ابراهيم ان يطهره للناس سواء الطائفين و القائمين بعكس الترتيب هناك كيلا يتقدم مقيم على مسافر و لا مسافر على مقيم تحقيقا للتسوية حتى في التعبير.

ثم الأمر بتطهيره لا يخص ابراهيم الخليل، بل هو مستمر إلى يوم الدين، كما التسوية المجعولة المرمية إلى يوم الدين.

و ذكر «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» مقيما او مسافرا بعد «الطائفين و القائمين» مسافرا او مقيما، لطواف البيت و سواه من مناسك الحج و العمرة، يصوّر لنا صلاة الطواف بعده، مع ان‏

«الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 354- اخرج الحاكم عن ابن عباس قال قال اللّه لنبيه: و طهر بيتي للطائفين و القائمين و الركع السجود قال: طواف قبل الصلاة و

قد قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة إلا ان اللّه قد أحل فيه المنطق فلا ينطق الا بخير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 58

فليكن ذلك البيت العتيق بالمسجد الحرام و الحرم كله، اطهر بيت في الكون كله، متخليا عن كل مظاهر القذارة و الرجاسة، متحليا بكل مظاهر الطهارة و القداسة، بعيدا عن كافة المفارقات و التمييزات لاي مقيم او مسافر، في طواف و صلاة و سواهما من مناسكه.

و هنا «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» دليل جواز الصلاة في جوف الكعبة المشرفة، فانها أصدق مواضع «بيتي» حين يشمل المسجد الحرام، و تأويل‏ «الرُّكَّعِ السُّجُودِ» بكونها فقط أمامها قبلة عليل خارج عن التحصيل.

و اما الطائفون الزوار و القائمون المقيمون، فهم بين طائف و مصلّ، و معنى الطواف هو التطواف حوله، فالداخل فيه السائر في حواليه لا يسمى طائفا بالبيت العتيق‏ «1».

و اما الآية «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» فهي للخارجين عن الكعبة و المسجد الحرام، حيث امر به الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و المؤمنون معه في المدينة المنورة.

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ‏ 27.

و ترى من هو المخاطب المأمور هنا بالأذان الإعلان بالحج؟ أهو- فقط- ابراهيم الخليل (عليه السلام) و هو دعوى دون دليل إلّا سبق الخليل بأمر قبله: «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ» و الآيات التالية المخاطبة للحاضرين و من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 96: 48- 50 عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: لما اوحى اللّه إلى ابراهيم (عليه السلام) ان طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود، اهبط إلى الكعبة مائة و سبعين رحمة فجعل منها ستين للطائفين و خمسين للعاكفين و أربعين للمصلين و عشرين للناظرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 59

يلحقهم مستقبلين تطارد ذلك الاختصاص، لا سيما و ان ذلك الخطاب «في الناس» كل الناس كقضية حقيقية تحلّق على كافة المكلفين إلى يوم الدين، فحتى إن كان خطابا لإبراهيم، فهو كأوّل من يحمله إلى الناس دون اختصاص، و الخطابات الشرعية للناس دائبة ما دام الناس إلا ان يأتي نسخ او تبديل، و ليس في القرآن دليل على اي تبديل بالنسبة لذلك الخطاب بكل ما يضمنه من مضامين.

ام هو خطاب لخصوص الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو بعيد عن السياق حيث سبق الخطاب ابراهيم الخليل و هو اوّل بان للبيت، فهو- بطبيعة الحال- اوّل مؤذّن للحج، مهما يستمر حتى الرسالة الاخيرة بأكمل صورة و سيرة.

حقا انه خطاب أولا لإبراهيم كأذان اوّل، ثم للرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كأذان ثان، مهما كان بينهما عوان على طول خطوط الرسالات منذ ابراهيم حتى محمد (عليهما السلام) «1».

و مجرد ذكره هنا مجردا عن احد المخاطبين دليل الشمول، ثم الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أحرى من يشمله كما نتلمح او نتصرح من خطابات تالية، «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا ... وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ‏ ... إِلَّا ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

فروع الكافي 1: 233 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم انزل اللّه سبحانه‏ «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...» فامر المؤذنين ان يؤذنوا بأعلى أصواتهم بان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يحج في عامه هذا فعلم به من حضر المدينة و اهل العوالي و الاعراب ...

أقول: و لا تنافيه الرواية القائلة ان المأمور به ابراهيم (عليه السلام) حيث الأمر يحلق كافة الرسل منذ ابراهيم حتى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 60

فَاجْتَنِبُوا .. وَ اجْتَنِبُوا .. لَكُمْ فِيها مَنافِعُ» و من ثم‏ «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً ..» فالهكم آله واحد- امة واحدة-! «وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ‏ ..

لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها ... فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا ... كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ‏ ... وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» (28: 37).

ثمانية عشر خطابا في مناسك الحج تحملها آيات عشر بعد آية الأذان تعم الحاضرين من المسلمين و إلى يوم الدين، كيف نتجاهلها باختصاص خطاب الأذان بأصل الحج لإبراهيم الخليل، اللهم الا بتأويل عليل و تدجيل.

و هذه ضابطة ثابتة في فقه القرآن، أن كل امر او نهي فيه لاي رسول، يبقى امرا او نهيا لكل المرسل إليهم، اللهم إلّا ببرهان قاطع من القرآن نفسه ينسخه او يحدده، حيث الرسالة واحدة، و المرسل إليهم امة واحدة، اللهم إلّا في بعض مظاهر العبودية و سواها حسب المصالح، فما لم يثبت نسخ من الكتاب لحكم مذكور فيه فهو ثابت، و لا سيما مثل أذان الحج الذي هو بطبعه زمني يشمل كافة الأمم، مهما تكامل في الامة الاخيرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«و أذن» امر صارم‏ «فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ» و هو زيارة البيت حجا او عمرة، و «يأتوك» دون «يأتونك» هو جواب الأمر، فذلك أمر بأمر، أمر أن يأمر الناس بالحج، مقدّما للمشاة على الرّكب‏ «يَأْتُوكَ رِجالًا» جمع راجل و هو الماشي‏ «وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ» و هو اي مركوب مهزول، ضمره الجوع او المرض، و قد أهمل هنا اي مركوب قوي مزين مرمول، مما يدل على ان الراحلة في أصلها- فضلا عن سليمها- ليست شرطا في فرض الحج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 61

فمن المضحك المبكي اعتذار بعض المتفقهين عن الآية- بعد الإذعان بدلالتها- على انها خلاف الشهرة العظيمة او الاطباق، و خلاف الرواية المشترطة الراحلة في استطاعة الحج، فلا يعمل بها! و ترى ما هو شأن الشهرة او الرواية امام تصريح الآية، و هي غير منسوخة بل مؤيدة مبيّنة بآية الاستطاعة، فمن استطاع مشيا او على كل ضامر دون حرج او مشقة لا تستطاع، فهو ممن استطاع اليه سبيلا، و من لا يستطيع لا راجلا و لا راكبا فهو ممن لا يستطيع اليه سبيلا.

و الرواية المفسرة للاستطاعة بالزاد و الراحلة تقول «فإذا كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد و راحلة فهو ممن يستطيع الحج» «1» لا هو المستطيع للحج، سلبا لاستطاعة من لا يحتاج إلى زاد و راحلة.

و اشتراط الزاد و الراحلة في الاستطاعة هو طبيعة الحال في الاكثرية الساحقة الساكنين في كل فج عميق، و اما القريبين إلى مكة المكرمة، غير المحتاجين إلى راحلة، فهم ممن يستطيعون الحج دون راحلة، كما المحترفين في سفر الحج يستطيعونه دون زاد حاضر، فانما الاستطاعة- دون حرج او مشقة زائدة غير متحمّلة- هي فقط شرط الوجوب، إلا ان الاكثرية الساحقة او المطلقة لا يستطيعونه إلا بزاد و راحلة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي 4: 267 و التهذيب 1: 447 و الاستبصار 2: 129 سأل حفص في الصحيح أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عز و جل‏ «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد و راحلة فهو ممن يستطيع الحج.

أقول: و الرواية المطلقة في ذلك محمولة على الأكثر إذ ليست لتعارض نص آية الأذان كما

رواه الصدوق في التوحيد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية ما يعني بذلك؟

قال: من كان صحيحا في بدنه مخلا سربه له زاد و راحلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 62

لذلك ترى آية الأذان تطلق «رجالا» ثم تقيّد «وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ» ب «يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» و طبعا لا يركب الضامر إلّا من يحتاج إلى ركوبه لعمق فجه أم ضمور قوته.

فالأصل في أذان الحج هم «رجالا» و هم- في الأكثر- الذين يأتون من كل فج قريب، ثم‏ «عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ» و هم- في الأكثر- الآتون من كل فج بعيد، و من ثم على كل مركوب مستطاع، قويا في جسمه، سريعا في مشيه، حيوانا ام سفينة ام سيارة ام طائرة.

و قد يتعاكس الأمر، فمن ساكن في فج قريب لا يستطيع المشي فهو- إذا- غير مستطيع دون راحلة، و آية الاستطاعة لا تشترط إلّا اصل الاستطاعة، بزاد و راحلة ام دون زاد و راحلة، راحلة ضامرة ام عامرة، و قد استفاضت السنة في افضلية الحج ماشيا على الركوب لمن يستطيعه و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم):: ان الملائكة لتصافح ركاب الحجاج و تعتنق المشاة» «1»

و ذلك خاص بطبيعة الحال بمن لا يحشره امر أهم كالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث القيادة الرسالية لا تسمح له ان يصرف شطرا بعيدا من أوقاته في أداء ندب كالحج ماشيا و اما الائمة الذين حجوا مشاة لمرات و مرات فلم يكونوا بمنصب القيادة الحاضرة حيث اغتصب عنهم.

و على اية حال فهنا في تقديم «رجالا» دليل تفضيل الحج ماشيا، و تفضيل المشاة الذين لا يملكون راحلة ضامرة، ثم تفضيل الركب الضامرة على الركب العامرة، مما يوضح تماما ان ليست الاستطاعة بادية من المال على اية حال، فليس المستطيعون هم الأغنياء بالركب الفاخرة، بل هم غير مذكورين في عديد المستطيعين حتى في المرحلة الآخرة، لولا آية الاستطاعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 4: 355- اخرج البيهقي عن عائشة قالت قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 63

الشاملة لهم في اطلاقتها الظاهرة، و ليست الاستطاعة الا القوة «1» دون حاضر الزاد و الراحلة، فقد لا يقوى رغم حضورهما و قد يقوى دونهما، فان كان له بعض الزاد و بامكانه تحصيل البعض الآخر في الطريق فهو ممن له زاد، «فان كان يطيق ان يمشي بعضا و يركب بعضا فليحج‏ «2» حيث المدار على اصل الاستطاعة و هي تختلف حسب مختلف الظروف و الامكانيات، و من الناس من يمكنه المشي كلا و تحصيل الزاد في الطريق او المقصد، فهو ممن استطاع اليه سبيلا، و تفصيل الاستطاعة يختص بآيتها الثانية.

إذا

«حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين و لقد كان اكثر من حج مع النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مشاة «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

جامع الأحاديث 10: 246 ح 746 عن المحاسن عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ سأله حفص الأعور و انا اسمع فقال جعلني اللّه فداك ما قول اللّه: و للّه على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا؟ قال: ذلك القوة في المال و اليسار.

(2)

المصدر 249 ح 754 عن الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في آية الاستطاعة ما السبيل؟ قال: ان يكون له ما يحج به، قال قلت: من عرض عليه ما يحج به فاستحى من ذلك اهو ممن يستطيع اليه سبيلا؟ قال: نعم ما شأنه يستحي و لو يحج على حمار ابتر فان كان يطيق ان يمشي بعضا و يركب بعضا فليحج،

أقول و قد وردت بذلك روايات مستفيضة.

(3)

المصدر 251 ج 763 باب 449 ص 140 الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن فقيه 174 معاوية 1- بن عمار قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن رجل عليه دين أ عليه ان يحج؟ قال: نعم ان حجة الإسلام .. شاة و لقد مر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بكراع الغميم فشكوا اليه الجهد (و الطاقة- في فقيه) و العن فقال: شدوا أزركم و استبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم، أقول و رواه مثله في بعض نسخ فقه الرضوى و في ج 765 بإسناد متصلة عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) قول اللّه عز و جل و للّه على الناس ... قال (عليه السلام) يمشي ان لم يكن عنده قلت لا يقدر على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 64

و لان «الحج» هو قصد البيت لزيارته، فهو يعم طواف الحج و العمرة، و هما كالظرف و المجرور إذا اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا، فمثل‏ «أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ» مكان افتراقهما، و اما آية الأذان و استطاعة الحج فهما في اجتماعهما.

ذلك الأذان الاعلام الإعلان لحج البيت منذ ابراهيم حتى الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فما يزال وعد اللّه يتحقق منذ ابراهيم إلى اليوم و الغد، و ما تزال افئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام، و ترف اليه، يتقاطرون إلى ذلك البيت العتيق من كل فج عميق من فقراء و أغنياء من استطاع اليه سبيلا.

و لماذا تلك الفريضة الجماهيرية العالمية، و هنا لك فرائض اخرى لا تضم ذلك الحشد الكبير؟:

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ 28.

ذلك لان الحج مشهد المنافع العامة لعموم المسلمين، و مسرح الفوائد و العوائد الجماهيرية التي تكفل كيان الإسلام و شوكة المسلمين، و قد قدمت هنا على ذكر اسم اللّه و هو خالص العبادة التي يؤتى بها إعلانا و إسرارا، أفرادا و جماعات، و لكنها في ذلك المسرح كمشهد المنافع جماعية جماهيرية، مما يدل على أن هنا لك منافع تختلف صوريا عن ذكر اسم اللّه، هي التي تتبنى قوائم شرعة اللّه في بلاد اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المشي قال يمشي و يركب قلت لا يقدر على ذلك قال يخدم القوم و يخرج معهم،

و

فيه (766) عن عبد الرحمن بن الحجاج قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) الحج على الغني و الفقير؟ فقال: الحج على الناس جميعا كبارهم و صغارهم فمن كان له عذر عذره اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 65

فهي‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» كمجموعة من الكتلة المؤمنة، لأنها مسرح و مصرح للشرعة الإلهية كلها كشعائر، بين تطبيق لقسم منها و تدريب لأخرى في تأشيرات عشيرات لمناسكها رميا للشيطان و طوفا حول بيت الرحمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

اجل «و اذن في الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق «يأتوك» ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم اللّه.

و تنكير «منافع» هو تنكير تعظيم لما يجهل من منافع، فلم يقل «منافعهم» او «المنافع» لكيلا يخيّل إليهم أنها المنافع المعروفة لديهم، الحاصلة في غير ذلك المؤتمر العالمي، و انما «مَنافِعَ لَهُمْ» مجهولة لمن لم يأتوا ذلك المشهد المسرح، و هي «لهم» جميعا، دون المنافع الفردية الحاصلة في كل مطرح! و هل هي- فقط- منافع الدنيا لذكرها قبال ذكر اسم اللّه، ام منافع الآخرة «1» سوى ذكر اسم اللّه؟ إنها «الكل» «2» دونما اختصاص، منافع طليقة تحلّق على حاجيات الدنيا و الآخرة ككل و دون إبقاء.

اجل‏

«و علة الحج الوفادة إلى اللّه عز و جل، و طلب الزيادة، و الخروج من كل ما اقترف، و ليكون تائبا مما مضى، مستأنفا لما يستقبل، و ما فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المجمع عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: هي العفو و الرحمة.

(2)

نور الثقلين 3: 488 في الكافي بسند متصل عن الربيع بن خثيم قال‏ شهدت أبا عبد اللّه (عليه السلام) و هو يطاف به حول الكعبة في محمل و هو شديد المرض فكان كلما بلغ الركن اليماني أمرهم فوضعوه بالأرض فاخرج يده من كوة المحمل حتى يجرها على الأرض ثم يقول: ارفعوني فلما فعل ذلك مرارا في كل شوط قلت له جعلت فداك يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان هذا منافع الدنيا او منافع الآخرة؟

فقال: الكل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 66

من استخراج الأموال و تعب الأبدان و الاشتغال عن الأهل و الولد و خطر الأنفس شاخصا في الحر و البرد ثابتا عليه دائما مع الخضوع و الاستكانة و التذلل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع و الرغبة و الرهبة إلى اللّه تعالى، و منه ترك قساوة القلب و جساوة الأنفس و نسيان الذكر، و انقطاع الرجاء و الأمل، و تجديد الحقوق، و حظر النفس عن الفساد، و منفعة من في شرق الأرض و غربها، و من في البر و البحر ممن يحج و من لا يحج من تاجر و جالب و بايع و مشتر و كاسب و مسكين، و قضاء حوائج اهل الأطراف و المواضع الممكن لهم الاجتماع فيها، كذلك‏ «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» «1».

و قد ذكر اللّه تعالى من‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» ما ذكر في آي أخرى لفريضة الحج: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97)- «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125)- «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» (3: 16).

اجل «قياما للناس و مثابة للناس و هدى للعالمين» لا فقط الذين يأتونه، مهما كانوا هم الركن الركين لتلك المنافع، و «لهم» يعمهم كلهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في عيون الاخبار باب ما كتب به الرضا (عليه السلام) الى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل: ...

و

في باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها انه سمعها من الرضا مرة بعد مرة و شيئا بعد شي‏ء: فان قال: فلم امر بالحج؟ قيل: لعلة الرفادة إلى اللّه تعالى و طلب الزيادة ...

و زاد بعد قوله: في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيها: مع ما فيه من التفقه و نقل اخبار الأئمة (عليهم السلام) الى كل صقع و ناحية كما قال اللّه عز و جل‏ «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ‏ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ. أقول و قد نقلنا في المتن بعض المواضيع مما في العيون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 67

ممن شهد مواقفه و من لم يشهد، ممن يحج و من لا يحج، فان في ذلك المؤتمر الاسلامي السامي إذا طبّق بشروطها، منافع للمسلمين بل و للعالمين ككل.

ذلك و «ليتعارفوا .. و لو كان كل قوم انما يتكلون على بلادهم و ما فيها هلكوا و خربت البلاد و سقط الجلب و الأرباح و عميت الاخبار و لم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج» «1».

و من‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» في مدرسة الحجج اسرار المناسك‏ «2» التي تتضمن صناعة الإنسان و صياغته بقمة الانسانية السامية كما أرادها اللّه تعالى من هذه الفريضة التدريبية، الجامعة لكافة الفرائض و النوافل الفردية و الجماعية، دنيوية و اخروية.

فمهما كانت البلوى بالحج عظيمة، فالمنافع الناتجة عنها أعظم، و كل أبعاد هذه الفريضة منقطعة النظير في شرعة البشير النذير، مما يطرح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 96: 33- 9 بسند متصل عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) فقلت له: ما العلة التي من أجلها كلف اللّه العباد الحج و الطواف بالبيت؟ فقال: ان اللّه عز و جل خلق الخلق لا لعلة الا انه شاء ففعل، فخلقهم الى وقت مؤجل و أمرهم و نهاهم ما يكون من امر الطاعة في الدين و مصلحتهم من امر دنياهم فجعل فيه الاجتماع من المشرق و المغرب ليتعارفوا و لينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، و لينتفع بذلك المكاري و الجمال و لتعرف آثار رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و تعرف اخباره و يذكر و لا ينسى و لو كان كل قوم انما يتّكلون على بلادهم و ما فيها هلكوا و خربت البلاد و سقط الجلب و الأرباح و عميت الاخبار و لم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج.

(2) قد أفردنا لها كتابنا- اسرار- مناسك و ادلة الحج- باللغة الفارسية، الفناه خلال السنتين اللتين كنا بمكة المكرمة ضمن سني الهجرة السبعة عشر من شر الطاغية الشاه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 68

السؤال الكثير، و اجابة عن بلواها في مكانها نقتطف حكما ناصعة

عن الخطبة القاصعة عن الإمام علي امير المؤمنين (عليه السلام):- «و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم كانت المثوبة و الجزاء أجزل، ألا ترون ان الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و اقل نتائق‏ «1» الدنيا مدرا، و أضيق بطون الاودية قطرا، بين جبال خشنة و رمال دمثة «2» و عيون وشلة «3» و قرى منقطعة، لا يزكو بها خف و لا حافر و لا ظلف، ثم امر سبحانه آدم و ولده ان يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع‏ «4» أسفارهم، و غاية لملقى رحالهم، تهوي اليه ثمار الافئدة من مفاوز قفار سحيقة، و مهاوي فجاج عميقة، و جزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللا لله حوله، و يرملون‏ «5» على اقدامهم شعثا غبرا، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، و شوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما و امتحانا شديدا و اختبارا مبينا و تمحيصا بليغا، جعله الله تعالى سببا لرحمته، و وصله إلى جنته- و لو أراد الله سبحانه ان يضع بيته الحرام و مشاعره العظام بين جنات و انهار، و سهل و قرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى، بين برة سمراء و روضة خضراء، و أرياف محدقة، و عراص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). جمع نتيقة و هي البقاع المرتفعة

(2) هي اللينة التي يصعب عليها السير.

(3) قليلة الماء.

(4) محل الفائدة.

(5) الرمل ضرب من السير فوق المشي و دون الجري و هو الهرولة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 69

معذقة، و زروع ناضرة، و طرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف لبلاء- و لو كان الأساس المحمول عليها، و الأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، و ياقوتة حمراء، و نور و ضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، و لوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، و لنفي معتلج‏ «1» الريب من الناس، و لكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، و يتعبدهم بألوان المجاهد، و يبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبر من قلوبهم، و إسكانا للتذلل في نفوسهم، و ليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله، و أسبابا ذللا لعفوه» «2».

«مَنافِعَ لَهُمْ» هي كل المنافع الروحية و الزمنية في كافة الحيويات الاسلامية السامية، فالحج مؤتسم و مؤتمر، موسم عبادة شعائرية جاهرة، و مؤتمر عبادة سياسية، فريضة تلتقي فيها الدنيا و الآخرة، مسرح تشاور و تعاون بين الكتل المؤمنة في كافة المسائل العويصة الإسلامية.

مجالة عالية غالية لتذوب فيها الفوارق من مختلف الجنسيات و العنصريات و القوميات و الطائفيات و لا تبقى في صعيدها إلا اخوة اسلامية خالصة تتبناها كلمة التوحيد و توحيد الكلمة، بوحدة الأرواح و تقارب الأشباح حيث يصبحون الأشباه حول كلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

عبادة تصفو فيها الأرواح مشروحة لكافة الذكريات الصالحة في ذلك المشهد الحافل، حيث ترف كالأطياف حول البيت العتيق طائفين حول مركز واحد، يحوّلهم عن مختلف التطوافات حول سائر المطافات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاعتلاج هو الالتطام.

(2) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي 2: 170- 173 محمد عبده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 70

هنا يجد المسلمون رايتهم المطلّة عليهم ككلّ حيث تتوارى الرايات و مختلف السلطات، و تتوارى في الراية الإسلامية الموحّدة كافة الفوارق.

هنا مملكة الحج، في بيت عتيق طليق عن كل ملكة، لا يقودها إلّا اللّه، و لا يرأسها من قبل اللّه إلّا رسول اللّه، و لا يحكمها إلا كتاب اللّه، حيث تتوحد القيادة الروحية و الزمنية في هذه الرسالة السامية، دون سماح لأية سلطة، إلا لمن يطبق هذه الرسالة الموحدة بين جماهير المسلمين.

«لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ...».

و ترى ما هي‏ «أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ» نحن نجهلها؟ أ هي أشهر الحج كلها حيث‏ «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ» (2: 197) فمن أهلّ فيهن بالحج فليذكر اسم اللّه حتى تتم مناسكها، ذكرا خاصا للّه ليس معه ذكر لسواه، فانه قضية تلبية الإحرام «لبيك اللهم لبيك» لك لبيك لا لسواك، فانما أذكرك لا سواك؟

و «عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» قد تعممه إلى كل الأيام! ثم‏ «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ» قد تخصصه بأيام الذبح، و ان ذكر اسم اللّه هو على الذبائح عند ذبحها كشرط من شروط التذكية! و لكن ذكر اسم اللّه على الذبائح يعم كل ذبح في اي زمان او مكان دون ايام معلومات للذبح في منى! و ذلك الشرط مذكور في آيته التالية «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ» و ذلك في يوم الأضحى كيوم معلوم، دون ايام معلومات، ثم الأضحى إلى آخر ذي الحجة حيث يجوز فيها تقديم الاضحية، ذلك مخصوص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 71

بالأعذار و هي مقدرة بأقدارها، فليست هذه العشرين هي الأيام المعلومات.

و اما تعميم‏ «عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» فلا شاهد له هنا الا عليه، حيث الذكر هنا ذكر خاص كما «مَنافِعَ لَهُمْ» «عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ» يقتضي في ذلك المسرح الحاشر ذكرا خاصا للّه على رؤوس الاشهاد.

«أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ» علها هي ايام الحج و العمرة كلها، ثم ايام الحج ثم عشرة ذي الحجة «1» ايام التشريق الاربعة و كلها ايام معلومات، فلم يقل «الأيام المعلومات» لكي لا تختص ببعض دون اخرى، بل في كل هذه الأيام بدرجاتها، بذكر التلبيات و الصلاة و التسمية عند الذبح و عند الرمي، ذكر القال و الحال و الأفعال، و ليصبح الحاج في أيامه ذكرا بكل كيانه، بعد ان لبى دعوة ربه، و ترك اهله و ماله و شغله و كافة ما كان يشغله عن ذكر ربه، و الآية تتحملها كلها حيث المسرح كله مسرح ذكر اللّه كما هو مسرح‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» و من‏ «أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ» هي‏ «أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ» «2» ايام التشريق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 490 في كتاب معاني الاخبار بسند متصل عن حماد بن عيسى في الصحيح عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال سمعته يقول قال علي (عليه السلام) في قول اللّه عز و جل‏ «وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ» قال: ايام العشر و مثله في التهذيب عن حماد عنه قال أبي (عليه السلام) ... و ايام معدودات قال: ايام التشريق‏

و في الخلاف و الأيام المعلومات عشرة ايام من ذي الحجة آخرها غروب الشمس من يوم النحر ذهب اليه علماءنا اجمع.

(2)

المصدر عن معاني الاخبار عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هي ايام التشريق‏

، و

فيه عن زيد الشحام عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: المعلومات و المعدودات واحدة و هن ايام التشريق.

و

في الدر المنثور 4: 356- اخرج ابن المنذر عن علي (عليه السلام) قال: الأيام المعلومات يوم النحر و ثلاثة ايام بعده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 72

«وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى‏ ..» (2: 203) و كشاهد آخر لها ان يوم الذبح هو يوم الأضحى ثم من بعده قضاء التفث كما في الآية التالية، و هذه الأيام كانت معلومة لدى الكل شاخصة بين كل ايام الحج و العمرة دون تقدم عن مواضعها او تأخر خلاف سائر ايام الحج حيث تتقدم او تتأخر اللهم الا يوم عرفة و المشعر الحرام فعلّه من تلك الأيام المعلومات، و المجموعة هي الخمسة من التاسع إلى الثالث عشر، و القدر المعلوم من‏ «أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ» هي اربعة التشريق فانها ايام الذبح المقررة له في الحالات العادية غير الاستثنائية و قد يتلمح من‏ «وَ يَذْكُرُوا ... عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ» و هو التسمية على الذبائح، و لكنه لا يختص ذكر اسم اللّه بها، فان «على» كما تعني ذلك، كذلك تعني على انه تعالى رزقهم، و ذلك مهما كان عاما يحلّق على كل حياة التكليف، و لكن لذكر اللّه في ذلك المسرح الحاشر موقعه الخاص، سواء على الأضاحي ام على أية حال في ايام الحج.

ذلك و كما منها يوم عرفة و المشعر الحرام‏ «فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ» (3: 198) ذلك و كما منها يوم عرفة و المشعر الحرام‏ «فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ» (2: 198) فقد يضاف إلى ايام التشريق، كما تضاف بقية العشرة و سواها إليها.

بل و منها بعد ما قضيت المناسك: «فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً» (2: 200) فضلا عن ايام الحج بعمومها و خصوصها، فانها ايام ذكر اللّه، كلما كانت الشعائر أهم فالذكر أتم، فهي- إذا- كلها ايام معلومات مهما اختلفت الدرجات حسب الدرجات.

و مختلف الحديث عن ايام معلومات و معدودات مما يبرهن على انها كلها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 73

معنية و انما الاختلاف في الدرجات و ترى‏ «بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» خاصة بالبدن كما في الآية التالية: «وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ»؟ و هي من أبرز مصاديق الأنعام العائشة في البلد الحرام فلا تخص بها الأنعام! ام هي فقط الانعام الثلاثة: الإبل و البقر و الغنم؟ و قد عممت أحيانا إلى ما يصطاد، و لا يصطاد شي‏ء من هذه الثلاث و انما الظبي و حمار الوحش و اضرابهما من ذوات القوائم الأربع فقد «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ» فليكن الصيد من الانعام حتى يصح الاستثناء! و لكنه صيد- مهما كان من الانعام- و لا يحل الصيد في المنسك و نحن حرم، بل و في غير حالة الإحرام أيضا، إذا فالأنعام هنا هي الثلاثة لا سواها.

.. فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ.

من هذه و التي تليها: «فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ» نتأكد ان التقسيم ثنائي و ليس ثلاثيا خلاف ما يقوله جمهور الفقهاء، و ان لحوم الاضاحي هي في الأصل للفقراء لا للإحراق و الدفن و سائر الهدر و الغدر كما هو المتعود بين الحجاج، و القول الفصل فيها عند الآية الاخرى.

ثم‏ «فَكُلُوا مِنْها» هنا و هناك كأنه امر أدبي رخصة لا عزيمة فانه عقيب حظر مظنون حيث كان المشركون لا يأكلون من ذبائح نسائكم‏ «1» فانزل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

آيات الأحكام للجصاص ص 3: 290 روى يونس بن بكير عن أبي بكر الهذلي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 74

اللّه: «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ» فرخص للمسلمين فمن شاء أكل و من شاء لم يأكل، و الاكل أفضل كما فعل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هدما لسنة جاهلية و مشاركة مع البائس الفقير، فيها تسوية بينهم و بينهم كيلا يظنوا انها خاصة بهم- فقط- لفقرهم، بل هي هدية إلهية يشارك فيها المفدي، و قد نحر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أخذ من كل جزور بضعة فجعلت في قدر فأكل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عليّ من اللحم و حسوا من المرق‏ «1».

و قد يكون الاكل منها- كما الإطعام واجبا- ادبيا فان تركه ترفّع على الفقراء كما كان عند اهل الجاهلية، فليس الأمر- فقط- تجويزا لسابق الخطر و مظنته، بل و إيجابا لكسر هذه السنة، ففي تركه إبقاء لهذه السنة و مسايرة عملية مع أهلها.

ذلك و اما اطعام البائس الفقير فهو الواجب الركني الأصيل في ذلك الهدي، فأمره للإيجاب دونما ارتياب، و ليس الأمر الأوّل إلا هامشيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عن الحسن قال: كان الناس في الجاهلية إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة و شرحوا اللحم و وضعوه على الحجارة و قالوا: لا يحل لنا ان نأكل شيئا جعلناه للّه حتى تأكله السباع و الطير فلما جاء الإسلام جاء الناس إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا: شيئا كنا نصنعه في الجاهلية ألا نصنعه الآن فانما هو للّه فانزل اللّه تعالى‏ «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا» فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم). لا تفعلوا فان ذلك ليس للّه.

(1).

الدر المنثور 4: 356، اخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد اللّه قال‏ نحر رسول اللّه (ص) و مثله في التهذيب 5: 223 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إذا ذبحت أو نحرت فكل و اطعم كما قال اللّه تعالى ...

و

فيه ايضا الصحيح عن الباقرين عليهما السلام انهما قالا إن رسول اللّه (ص) امر أن يؤخذ من كل بدنة بضعة فأمر بها رسول اللّه (ص) فطبخت فأكل هو و علي و حسوا المرق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 75

تعبيدا لطريق ذلك الإطعام ادبيا فائقا.

و البائس الفقير، هو أفقر من الفقير و أبأس من البائس فقد يكون‏

«هو الزمن الذي لا يستطيع ان يخرج لزمانته» «1»

و كما الفقير هو المكسور الفقار من شده المسكنة، فذلك كسر في المال و كسر في الحال، فانه اجهد من المسكين و الفقير «2».

فهذه اللحوم مما رزقهم اللّه و هي من‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» و قد جعلناها نحن رزقا للديدان و المحرقات و الجرافات، و بديل ان يكون ذلك الرزق من‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» أصبح عمليا من أضر المضار ماليا و ادبيا و سياسيا حيث يضحك علينا العالمون كيف نبذر ذلك التبذير الرذيل و أمامنا في العالم الإسلامي فقراء لا يشمون ريح اللحم و قد قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله): انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم منها» و سيأتيكم التفصيل بكل بيان فيه تحصيل عند تفسير الآية الثانية ان شاء اللّه تعالى.

و اطلاق الذبح هنا و ان كان يعم كل الحجيج حتى المفرد، و لكنه مخصوص بحج التمتع‏ «فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ‏ ... ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» (2: 196) ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 491 عن تفسير القمي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد اللّه (ع) قال هو ...

(2)

المصدر عن الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع) قول اللّه عز و جل: انما الصدقات للفقراء و المساكين؟ قال الفقير الذي لا يسأل الناس و المسكين أجهد منه و البائس أجهدهم.

أقول: تقديم الفقراء على المساكين عند الجمع، و تخصيص الفقير بالذكر عند الإفراد كما هنا يساعدان المعنى اللغوي الذي ذكرناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 76

القران و اسمه معه، دون الإفراد حيث اسمه معه، إفرادا عن الهدي أو قرانا بالهدي، فلا يجب الذبح في الإفراد، و لا يجوز الاكل من غير الهدي، كالذبيح للجريمة حالة الإحرام، حيث النص خاص بالهدي الواجب على أية حال، لا و الواجب عند الجريمة حالة الإحرام، فانه خاص بالفقراء دونما استثناء، ذلك فرض ثان في منى بعد الرمي و بعدهما الحلق و التقصير:

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29).

القضاء متعديا بنفسه كما هنا هو الإتمام بالنسبة لأمر ابتدأه، و التفث علّها مأخوذة من اصل عبراني و هو «تافس» (؟؟؟) او «تافش» (؟؟؟) و كلاهما بمعنى امسك و قبض، فقضاء التفث هو إتمام القبض و الإمساك الذي ابتدئ فيه بالإحرام قبل عرفة، و قضاء التفث هنا بعد الذبح هو بالحلق و التقصير فيحلّ عن الإحرام‏ «1» إلّا عن الطيب و النساء حيث يحللهما طواف الزيارة و النساء «وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» إشارة إلى الطوافين، تكملة لذلك التفث فيحل عن كل محرمات الإحرام مهما بقي عليه بيتوتة مني ليلتين أو ثلاث و رمي الجمار في أنهارها.

و ما أجمله تعبيرا منقطع النظير عن الإحلال عن الإحرام «التفث» كما التعبير عن بداية الإحرام «الرفث»: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ ..» (2: 197).

و قد تعني قضاء التفث ضمن ما عنت‏

«تعليم الأظفار و طرح الوسخ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 357- اخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يعني بالتفث وضع إحرامهم من حلق الرأس و لبس الثياب و قص الأظفار و نحو ذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 77

و طرح الإحرام» «1».

و علّ كل ما ذكر في الأحاديث من تفسير للتفث اعتبارا بأنها من لوازم إتمام الإحرام و إنهائه و من ذلك‏

«هو ما يكون من الرجل في إحرامه» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 492- احمد بن محمد بن أبي نصر قال‏ قلت لأبي الحسن (عليه السلام) إنا حين نفرنا من منى أقمنا أياما ثم حلقت رأسي طلب التلذذ فدخلني من ذلك شي‏ء فقال: كان ابو الحسن صلوات اللّه عليه إذا خرج من مكة نأتي بثيابه حلق رأسه و قال في قول اللّه تعالى‏ «ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ» قال: التفث ...

و

فيه في صحيحته البزنطي عن الرضا (عليه السلام) قال: التفث تقليم الأظفار و طرح الوسخ و طرح الإحرام عنه،

و

في قرب الاسناد للحميري احمد بن محمد عن احمد بن محمد بن أبي نصر قال‏ سألت الرضا (عليه السلام) عن الآية قال: تقليم الأظفار و طرح الوسخ عنك و الخروج من الإحرام،

و اقتصار أبي جعفر (عليه السلام) في صحيحه محمد بن مسلم عنه بقص الشارب و الأظفار تفسير ببعض لوازم الخروج عن الإحرام.

و

فيه عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هو الحلق و ما في جلد الإنسان،

و

عن ذريح المحاربي في الصحيح قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) ان اللّه امرني في كتابه بأمر فأحب ان أعمله قال: و ما ذاك قلت: قول اللّه تعالى: ثم ليقضوا تفثهم و ليوفوا نذورهم قال: ليقضوا تفثهم لقاء الامام و ليوفوا نذورهم تلك المناسك، قال عبد اللّه بن سنان فأتيت أبا عبد اللّه (عليه السلام) فقلت جعلت فداك قول اللّه تعالى: ثم ليقضوا تفثهم و ليوفوا نذورهم، قال: أخذ الشارب و قصّ الأظفار و ما أشبه ذلك، قال قلت جعلت فداك ان ذريح المحاربي حدثني عنك بأنك قلت: ثم ليقضوا تفثهم «لقاء الإمام» و ليوفوا نذورهم «تلك المناسك»؟ فقال: صدق و صدقت ان للقرآن ظاهرا و باطنا و من يحتمل ما يتحمل ذريح.

(2)

المصدر حميد بن زياد عن ابن سماعة عن غير واحد عن ابان عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية هو ما يكون من الرجل في إحرامه فإذا دخل مكة فتكلم بكلام طيب كان ذلك كفارة لذلك الذي كان منه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 78

و على الجملة فقضاء التفث هو قضاء الإحرام بالخروج عنه تاما وافيا، و لزامه بعد ما قضى إلى الذبح، الحلق او التقصير، و الخروج عن تقصير كان له في إحرامه بفدية و سواها، ثم طوافي البيت زيارة و نساء، ثم و من أكمله تتميم مناسك منى من بيتوتتها و رمياتها.

و لان قضاء التفث ثنّي بطواف البيت، إذا فهو الإحلال الاول الا عن الطيب حيث يحل بطواف الزيارة، و النساء حيث يحل بطواف النساء، و انما عبّر عن الإحلال الاول بقضاء التفث لأنه أهمه، ام ان قضاء التفث يعم الآخرين، و ذكر الطواف- إذا- من باب ذكر الخاص بعد العام.

و قد يعرف واجب الترتيب بين هذه المذكورات من ترتيبها في هذه الآيات، ذبحا ثم حلقا او تقصيرا ثم طوافا، اللهم إلا للمعذور عن تقديم الذبح كمن نبحث عنهم بعد.

وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ‏.

و ترى ما هي النذور التي يؤمر الحاج بإيفائها بين هذه المناسك و قبل ان «يطوفوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ»؟ و هي الوحيدة الآمرة بايفاء النذور بين آياتها الخمس الذاكرة له دون امر، اللهم إلا تبجيلا لمن يوفي‏ «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ» (76: 7).

النذر- و هو إيجاب ما لم يجب على نفسك- قد ينشأ وافيا، ثم ليوف تطبيقا، و علّ الإيفاء هنا يشملهما، فما فرض الحاج على نفسه بتقصير في إحرام، ام فرضه على نفسه دون تقصير و بدون تحديد لوقف الإيفاء، فليوفه تطبيقا هنا و قد تخلص عن حصر الإحرام، و لكي يتخلص عن سائر الحصر فيصبح طليقا من الأخفّاء حتى يطوف دون أثقال بالبيت العتيق، و ذلك آخر المطاف في تخلّصه عن حصر المحرمات الخاصة بالإحرام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 79

و ما يعنيه من نذر لأمر يتقاضاه، فلينذر هنا إيفاء له كما يصح و يحق، و ان ناسب وقت إيفاء التطبيق قبل الطواف فليوف.

وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ‏ و ذلك آخر طواف و آخر المطاف في أهم مناسك الحج، و ترى ماذا تعني‏ «وَ لْيَطَّوَّفُوا» في تشديد التأكيد، دون‏ «وَ لْيَطَّوَّفُوا»؟ بلا تشديد، و هي الآية الوحيدة الآمرة بالطواف؟

قد تعني طوافا بعد طواف، فلو كان الواجب هنا مرة واحدة لكان‏ «وَ لْيَطَّوَّفُوا» بتخفيف، فليكن اكثر من مرة حيث هذه الصيغة تتطلب المزيد على طواف و أقله مرة أخرى.

فلا هو- فقط- طواف الزيارة، و لا هو- فقط- طواف النساء، و علّ الرواية القائلة انه طواف النساء، تعني بيان الخفي من واجب الطواف المختلف فيه بين المسلمين، دون خصوصه، رغم ان الواجب الأصيل من الطواف هنا هو طواف الزيارة، كما القائلة انه طواف الفريضة تعني بيان الجلي.

إذا فهو الطوافان: طواف الفريضة و طواف النساء «1» و من المضحك المبكي تخصيص الآية بخصوص طواف النساء، و طواف الزيارة و هي ركن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التهذيب 5: 252 الرقم 854 و الكافي 1: 305 باب طواف النساء قال ابو الحسن (عليه السلام) في الآية: طواف الفريضة طواف النساء،

أقول علّ العاطف سقط عن قلم الناسخ، ام ترك اشارة إلى اندغام الطوافين مع بعض استدلالا بتأكيد الصيغة في الآية و لكنه في المرآة 3: 346 و الفقيه 2: 291 هو طواف النساء، و النقل الاول أصح، و ليئول الثاني بما ذكرناه في المتن، و في نور الثقلين 3: 493 عن الصادق (عليه السلام) قال هو طواف النساء.-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 80

لا يعني منها «1» و الآية هي الوحيدة في القرآن! فالأحاديث الثلاثة، انه طواف الفريضة او النساء او الطوافان مرجوعة إلى كتاب اللّه، فهو الطوافان دون ريب لمكان‏ «وَ لْيَطَّوَّفُوا».

و لأن ظاهر الأمر هو فور العمل به فليكن طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء التفث، اللهم الا للمفرد «2» حيث لا تشمله الآية لمكان الأضحية غير الواجبة عليه، و الصحيحان المتعارضان‏ «3» في القارن يرجعان إلى القرآن، فعلى القارن كما على المتمتع طواف الزيارة و النساء يوم النحر إلا لعذر، و الصحيحان المجوزان للتأخير «4» محمولان على موارد العذر،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 493 في قرب الاسناد عن الرضا (عليه السلام) في حديث‏ «وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» طواف الفريضة،

أقول هو طواف الزيارة و عله (عليه السلام) اكتفى به هنا لأنه الأصل، و كما اختص طواف النساء بالذكر في حديث سالف في بعض النقل انه طواف النساء إلحاقا به، و الأوضح هو حديث الطوافين.

(2)

في الكافي 4: 511 و التهذيب 1: 518 و الاستبصار 2: 294 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في زيارة البيت يوم النحر قال: زره فان اشتغلت فلا تضرك ان تزور البيت من الغد و لا تؤخر ان تزور من يومك فانه يكره للمتمتع ان يؤخر و موسع للمفرد ان يؤخره.

(3) و هما

صحيحة هشام عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) لا بأس ان أخرت زيارة البيت الى ان يذهب ايام التشريق الا انك لا تقرب النساء و لا الطيب،

و مثلها

صحيحة الحلبي‏ سأل الصادق (عليه السلام) عن رجل أخر الزيارة إلى يوم النفر قال لا بأس‏ (السرائر 444)

أقول و هي مقيدة بالمفرد، او محمولة في غيره بالمعذور.

(4)

قد مضت الاولى في رقم (1) و الثانية في التهذيب 1: 517 و الاستبصار 2:

292 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) سألته عن المتمتع متى يزور البيت؟ قال: يوم النحر او من الغد و لا يؤخر و المفرد و القارن ليسا بسواء موسع عليهما، و في خبر عمر بن يزيد ثم احلق رأسك و اغتسل و قلم أظفارك و خذ من شاربك وزر البيت فطف به أسبوعا

و

في صحيح معاوية عن الصادق (عليه السلام) في حديث قال: فإذا أتيت البيت يوم النحر فقمت على باب المسجد قلت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 81

حيث المحور هو الآية الظاهرة في وجوب الاستعجال، و نتيجة قياس الروايات عليها بقاء الوجوب الظاهر الا لعذر ام في المفرد.

و قد يوهن الوجوب ب «ثم» هنا «ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» و هي للتراخي، فالواجب بعد الذبح وفاء النذر و طواف البيت في وقت متراخ، خرج الحلق او التقصير بدليل و بقي الباقي و منه الطواف.

ذلك، اضافة إلى ان‏ «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ» و آخرها ذو الحجة إلى آخرها، و لان البيتوتة في منى هي- فقط- في ايام التشريق، و ليس بعدها إلا الطوافان فليسمح فيهما إلى آخر الشهر الأخير من المعلومات، فلا يبقى في البين الا رجاحة تقديم الطواف، و هو الأحوط مطلقا إلا لعذر عاذر.

و لان الآية «وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» مطلقة في مسرح الطواف، فطليقة ما صدق انه طواف، فقد يصح الطواف حوله من ايّ المسجد الحرام، مهما توسع المسجد ما صدق أنه المسجد الحرام، فالمقام داخل في حد الطواف، كما ان المسجد الحرام بمسارحه الثلاثة، ارضية و تحت الارضية و فوق الارضية، كله مطاف، مهما كان الأقرب إلى البيت فالأقرب أفضل كما الصلاة، و

قد سئل الصادق (عليه السلام) في الصحيح عن الطواف خلف المقام فقال: ما أحب ذلك و ما ارى به بأسا فلا تفعله إلا ان لا تجد منه بدا» «1».

و لا تعارضها الرواية اليتيمة القائلة أن حدّه ما بين المقام و البيت‏ «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفقيه كتاب الحج ب 72 ح 1.

(2)

في الكافي 4: 413 و التهذيب 1: 477 مضمرة حريز عن ابن مسلم قال‏ سألته عن حد الطواف بالبيت الذي من خرج عنه لم يكن طائفا بالبيت؟ قال: كان الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 82

لضعفها في سندها و في متنها لنفسها قضية تعارض أجزائها، و تعارضها ككلّ اطلاق الآية و نصّ الصحيحة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

على عهد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يطوفون بالبيت و المقام و أنتم اليوم تطوفون ما بين المقام و بين البيت فكان الحد موضع المقام اليوم فمن جازه فليس بطائف و الحد قبل اليوم و اليوم واحد قدر ما بين المقام و بين البيت من نواحي البيت كلها فمن طاف متباعدا من نواحيه ابعد من مقدار ذلك كان طائفا بغير البيت بمنزلة من طاف بالمسجد لأنه طاف في غير حد و لا طواف له».

أقول: بعد مخالفتها لإطلاق الآية و صريح الصحيحة هي مضمرة غير منسوبة صريحا إلى المعصوم و هذا كسر في الرواية، ثم ان بدايتها خلاف نص القرآن بالنسبة للطواف‏ «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» فلو كان المقام زمن الرسول قبل موقفه الآن- و كما في بعض الأحاديث- ملتزما بالبيت و عمر هو الذي نقله إلى موقفه الآن لكانت صلاة الطواف قرب البيت حيث موضع المقام زمن نزول الآية، و هذا خلاف الضرورة الاسلامية بالاطباق.

ثم الطواف بالبيت و المقام زمن الرسول و الطواف بينهما اليوم ليس لزامهما أنهما سيان، حيث الأول غير محدود بحد و الثاني محدود، اللهم الا بتلزيق الجملة التالية «و الحد قبل اليوم و اليوم واحد» فالجملة السالفة اجنبية عن اثبات الوحدة بين الحدين.

ثم القول «فمن طاف متباعدا من نواحيه ابعد من مقدار ذلك كان طائفا بغير البيت» هذا خلاف الواقع الملموس، فانه طائف بالبيت و لو دل الدليل على بطلانه، كمن يصلي إلى القبلة بصلاة باطلة، فهو قطعا مصل إليها مهما كانت باطلة و التعبير الصحيح هنا من طاف هكذا كان طوافه باطلا، لا انه لم يكن طائفا بالبيت كمن طاف بالمسجد.

ثم المحكوم بالبطلان في هذه الرواية هو الطواف الذي كان متباعدا من نواحيه، فلا تحكم بالبطلان إذا تباعد من بعض نواحيه، و محور الابطال هنا ان يطوف بكلا المقام و البيت من كل نواحيه فان طاف بينهما في موضع المقام ثم طاف ابعد من هذا المقدار في سائر الطواف فلا تبطله هذه الرواية حيث يصدق انه لم يطف بالبيت. متباعدا من نواحيه ابعد من ذلك.

و من ثم كيف يصح فقهيا بيان مثل هذا الحكم المبتلى به دائما بمثل هذه اليتيمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 83

ثم الحجر مطاف كما البيت فهو بيت في مسرح الطواف، فليكن الفصل المحدد بين المقام و البيت في هذه اليتيمة، هو الفصل بين جدار الحجر دون البيت.

ثم الممنوع فيها هو الطواف متباعدا من نواحيه أبعد من ذلك، إذا فالابتعاد في بعض النواحي كناحية الحجر و لا سيما رأس الزاوية، غير ممنوع في نصها.

و بعد كل ذلك ليس الطواف خاصا بزمن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و المسلمون الحجاج قلة، حتى يصح ذلك التحديد- ان صح دليله- بل هو عام يحلّق على الطول التاريخي و العرض الجغرافي الاسلامي، ففيما يحج مئات الآلاف و الملايين من المسلمين كيف يمكن الطواف المحدد بذلك الحد، و لا سيما في قياس هؤلاء الذين يفتون باحتساب ساحة الحجر في هندسة حدّ الطواف، إذا فلا يبقى في رأس الزاوية إلّا زهاء ثلاثة امتار و نصف يجب ان يجتازها دون تجاوز مئات الآلاف من الطائفين! و ما كان ليجتازها القلة القليلة في البداية، و لا سيما الركاب، و لقد طاف رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أحيانا بالبعير، فهل كان يهندس هذه الهندسة الضيقة المضايقة في رأس الزاوية؟! إذا فلا اشكال في الطواف في ايّ المسجد الحرام، مهما كان مكروها في موضع المقام ان يدخله في الطواف إلا عند الحرج او المشقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

: المشوشة، المخالفة للآية و الصحيحة الصريحة، غير القابلة للتطبيق حين كان المسلمون قلة فضلا عن هذه الكثرة الكثيرة؟

ثم الحجر في المطاف محسوب من البيت فلما ذا التضييق عنده بانحسابه من المطاف فلا تبقى في رأس زاويته الا زهاء ثلاثة امتار!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 84

ثم‏ «لْيَطَّوَّفُوا» قضيته ان يطوف الطائف باختيار منه، فان طيف به دون اختيار منه ام هو نائم لم يكن من الطائفين، و ان طيف به باختيار منه و رضى، ام طلب منه فهو من الطائفين، و مجرد الطواف باختيار و نية من الطائف ما صدق انه طاف يكفي أداء لذلك الركن الركين.

و لان طبيعة الحال في المطاف اصطكاك الطائفين بعضهم ببعض، و تدافعهم في ذلك السباق، و ان الطائف يحمل أحيانا بطوف من سيل الطائفين، شاء ام ابى، و يحوّل أخرى إلى غير أمامه شاء ام ابى، علما منه في ذلك المسيل الجارف غير المجازف و الدوارة الهائلة، علما انه قد يطاف به او يحوّل! لذلك كله لا يضره في كونه طائفا باختيار هذه الحالات التي هي من لزامات الطواف، و لا نص من غير آية الطواف يشترط عدم التحول عن الأمام حالة الطواف، و ما مثل من يحمل ماشيا بحمل الطواف، إلا كمثل من يركب في الطواف، فلا ضير- إذا- في تلك العوارض التي هي لزام الطواف في ذلك السيل الجارف الدائر مدار البيت العتيق، كدوارة سيالة في ذلك المدار.

فمن يوغل نفسه في مجرف السيل باختيار، ثم يجرفه السيل اي مجرف دونما اختيار، فقد ينحسب كل انحراف له بمبدإ الإختيار، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار، و حكمه- أيا كان- حكم الاختيار.

ثم طبيعة الحال العادية غير المصطنعة في الطواف حول البيت، انحراف اليسار عند الحجر عن جدار البيت لحد المواجهة للبيت نفسه، و هذا- قطعا- لا يضر بواجب الطواف، فلا يجب بل لا يجوز تحويل اليسار إلى البيت عند الحجر، إما لان الحجر محسوب في الطواف بحساب البيت فجداره جداره كما ساحته ساحته، ام لان المأمور به هو الطواف عاديا دونما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 85

اصطناع حول البيت، و لا سيما في ذلك المجرف الدائري، الجراف القوي القوي، الذي لا يسمح بذلك الطواف باختيار، فضلا عن الهندسة المصطنعة للمحتاطين، تحويلا لليسار إلى جدار البيت في زاوية الحجر، فانها حالة مضحكة مبكية، شاقة محرجة و أحيانا غير ممكنة للطائف.

لا نص هنا و لا اشارة لان يجعل جدار البيت في زاوية الحجر على اليسار، فاصل جعل البيت على اليسار ايضا لا دليل له لفظيا إلا عمل المعصومين، و حتى لو كان هنا لك نص على وجوب هذه الهندسة الملتوية، لكان ساقطا عند الضرورة التي يعيشها الطائفون في الحج، كيف و لا نص هنا او هناك إلا «لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» و كانوا يطوفون على اليسار.

و لان المسألة هي من أهم ما تعم به البلوى، فلو كانت تلك الهندسة المحرجة شرطا في الطواف لكانت النصوص عليها متواترة، و ليس هنا لك نص و لا إشارة!.

.. بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ‏.

مواصفة البيت بالعتيق لم تأت الا هنا و «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (24: 33) و علّ العتيق هو القديم زمانا و مكانا، و هو الطليق عن أسر الملكة و السلطة الخاصة لغير اللّه، فلم يملك و لن يملك لأيّ كان و ايّان، و قد يجمعهما: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» (3: 96) فهو اوّل زمانا و مكانا و قد مكّت الأرض من تحته و بكّت منذ حرّكت، و هو للناس كل الناس دون اختصاص و دون أية ملكة فانه بيت اللّه‏ «سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 494 في الكافي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي قال‏ قلت لأبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 86

و من ثم فهو عتيق طليق عن التهديم كما انعتق عن اصحاب الفيل، و من قبل عتق من الغرق‏ «1». و

«لان الله اعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط» «2»

و هم الملحدون و المشركون الداعون إلى غير اللّه، مهما سيطر عليه- دون ملكة- جبابرة من المسلمين، ام تهدم ثلاث مرات في التاريخ الإسلامي! و الطواف بالبيت العتيق هو أركن أركان الحج، بل هو هو الحج فانه قصد البيت لزيارته، و قد سميت سائر شعائره حجا بضمنه و ضمانته، فما إحرام العمرة بواجباته و محرماته الا مقدمة تحضيرية للطواف، و ما السعي بعده الا تلحيقا له و تعقيبا، ثم الإحرام للحج و الوقوفان و بيتوتة مني بواجباتها، هي كذلك تحضيرات للطواف الثاني و هي طواف الحج:

الزيارة، ثم السعي له تعقيب ثان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

جعفر (عليه السلام) في المسجد الحرام لأيّ شي‏ء سمى اللّه العتيق؟ فقال: انه ليس من وضعه اللّه على وجه الأرض الا له رب و سكان يسكنونه غير هذا البيت فانه لا رب له الا اللّه و هو الحر ثم قال: ان اللّه تعالى خلقه قبل الأرض ثم خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته.

و

فيه عنه (عليه السلام) هو بيت حرّ عتيق من الناس لم يملكه احد.

(1).

المصدر عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انما سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق عتق الحرم معه كف عنه الماء

و

في البحار 11: 325 ص بسند متصل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان اللّه تعالى أغرق الأرض كلها يوم نوح (عليه السلام) الا البيت فمن يومئذ سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق فقلت له: صعد إلى السماء؟

فقال: لم يصل الماء اليه و انما رفع عنه (قصص الأنبياء مخطوط).

(2)

الدر المنثور 4: 357- اخرج البخاري في تاريخه و الترمذي و حسنه و ابن جرير و الطبراني و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن عبد اللّه بن الزبير قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انما سمى اللّه البيت العتيق لان اللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 87

مناسك الحج كلها تحوي أسرارا، فطواف البيت هو محور الأسرار، حيث تحللت الآن عن كل طواف حول كلّ مطاف، فتطوف الآن حول البيت العتيق.

لقد كنت قبل طائفا حول نفسك و نفسياتك، ام أنفس الآخرين و نفسياتهم، ثم لبيّت دعوة ربك لحج بيته العتيق، لبيك للّه و لا لبيك لسواه، فأنت الآن و بعد إحرامك تطوف حول البيت العتيق، بعد ما كنت طائفا طوف الرقيق حول الرقيق، فالآن أنت منعتق عن التطواف حول ما سوى اللّه و من سوى اللّه، حيث بيت اللّه في كونه مطافا يمثل التطواف حول محور الحق لا سواه، اللّه لا سواه، كما الطواف محصور في بيت اللّه لا سواه.

أنت في حياتك كلها طائف حول مطاف، حركة دائرية دائبة حول مركز من مراكز الحياة و الحيوية كما تروم، فتحوم حومه، و تطوف حوله، واصلا اليه ام غير واصل، حاصلا على بغيتك ام غير حاصل.

فأنت طائف أينما كنت و حيثما كنت، فأنت أنت بنفسك الطواف طائفا حول نفسك و نفسياتك، حول إنّياتك و مراداتك، حول أصنامك و طواغيتك، حول شخصياتك و مصلحياتك في كل محاورك، حركة دائبة دون أيّة وقفة، و كلها هباء و إلى العراء، و الآن- بعد ما لبيّت- تبدّل محور الطواف عن كل المحاور سوى اللّه، من غير اللّه الى اللّه، من سائر البيوت و أصحابها إلى بيت اللّه و إلى اللّه.

و انه حركة دائرية لا توصلك إلى مركزها، حيث اللّه لا يوصل إليه، و لا نهاية لها قضية الدائرة، لان معرفة اللّه و عبوديته لا نهاية لها، و انما تجعل هنا- كأمثولة- كلّ حركاتك حول محور الحق، فليس للّه مكان و لا بيت يحله حتى يطاف حوله، و انما جعل هذا البيت رمزا للتطواف الحق،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 88

انه فقط حول مرضات اللّه، حول بيت اللّه كأنه حول اللّه و ليس له حول.

أنت في ذلك الطواف حول البيت العتيق تحرر نفسك عن كل طواف غير عتيق و لا طليق، و تحصر نفسك في حركاتها في ذلك الطواف، فتصبح طوافا- و على طول خط الحياة- حول البيت العتيق، حول الحق الطليق.

تطوف بالبيت العتيق، الذي لا ظاهر له باهرا إلا أحجار سوداء، و لا باطن إلا خلوا عن كل باطن، غير مزخرف البنيان، و لا ساكن فيه أيّ كان، من نبي أو إمام، و ليس اللّه- و هو بيته- من السكان، محور و مطاف حاسر عن كل ما يجلب العيون، و يجذب الأهواء، اللهم الا مرضات اللّه حيث أمرنا ان نطوّف ببيته العتيق، تحررا عن كل حركة و طواف، و انحسارا فانحصارا في التطواف حول ما يرضاه اللّه.

ذلك تدريب اديب، يؤدبنا كيف علينا ان نطوف في كل مجالات الحياة تحررا فيها- عن كافة المحاور إلا اللّه‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

تذيب هنا كافة التشخصات عن نفسك، و تخفي شخصك بين سيول الطائفين، غارقا فيهم دون تميّز، درسا لك ملموسا لتكون في حركاتك إلى اللّه مع عباد اللّه، فان «يد الله مع الجماعة».

تطوف سبعا- عله- لكي تزيل عنك الوصمات السبع الابليسة، فتغلق على نفسك الأبواب السبع الجهنمية، و كما تسعى سبعا و ترمي الشيطان الأكبر و الأوسط و الأصغر سبعا، سبعا تلو بعض و لصق بعض، و لكي تتخلص بالنتيجة عن السبعة اللعينة الشيطانية و أبوابها.

و لان الطواف بالبيت العتيق عبادة لا تؤتي إلا بأمر، و لم يؤمر به الا بالبيت العتيق، فلا يجوز الطواف حول النبيين و سائر المعصومين، او

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 89

بيوتهم، او قبورهم، فإنهم معكم طائفون حول هذا البيت فلا يطاف حولهم، كما الصلاة- فقط- للّه و سائر العبادات خاصة باللّه لا سواه، و العبادات توقيفية حسب المقرر في شرعة اللّه، فلا يؤتى حتى بصورتها لغير اللّه، لأنه تشريك باللّه و تسوية في حرمة اللّه.

ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (30).

«ذلك» البعيد البعيد المدى، العظيم العظيم الصدى، من حج البيت بمناسكه، فانها من حرمات اللّه التي احترمها، و حرّمها على من يخترمها، حرمات و حرمات واجبة الاحترام عقيديا و عمليا.

«وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ» في أية مجالة من مجالاتها «فهو» ذلك التعظيم‏ «خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» «له» دون ربه، و مهما لم تكن خيرا عند من سوى ربه‏ «فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ» فمن يهتكها فهو شر له عند ربه، و من لا يحترمها و لا يخترمها، عوانا بين تعظيمها و تصغيرها، فلا خير له و لا شر له إلا تركا لتعظيمها الواجب، بل ان «خير» هنا يقابل الشر، فمن لا يعظمها فهو شر له عند ربه، فكما اللّه يعظّم فرضا، كذلك حرمات اللّه، حيث احترمها اللّه و حرّم خلاف التعظيم لها.

و «حُرُماتِ اللَّهِ» في وجهة عامة هي ما لا يحل هتكه و تجب حرمته و رعايته، من واجبات او محظورات، فليست هي- فقط- المحرمات و لم تذكر هنا من ذي قبل إلا واجبات، و ليست هي- فقط- الواجبات، بل هي حدود اللّه في ما فرض او حذّر، مهما اختلفت درجاتها حسب قراراتها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 90

رجاحة في فرض أو واجب أو مندوب، و كراهة في فحشاء أو منكر أو مكروه، و هي كلها واجبة الاحترام فعلا او تركا و علما و اعتقادا: «إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ» (27: 91) و هكذا سمي المسجد الحرام بالحرام لواجب الاحترام، و كما تسمى المحرمات ايضا حرمات‏ «وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ» (2: 194).

إذا فحرمات اللّه هي عبارة اخرى عن شرعة اللّه ككل، و قد ذكر هنا و يذكر قسم منها عظيم، لعبادة جماهيرية سياسية هي من شعائر اللّه، و من مكبرات و مذياعات شرعة اللّه ككل.

«وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى‏ عَلَيْكُمْ» في الكتاب من قبل هذا و من بعد، تلاوة دائبة في العهدين مكيا و مدنيا، حيث الاستثناء لا يختص بما يتلى بعد و قد تلي من قبل كما يتلى من بعد، حيث تلي في مكيات من قبل كالأنعام و كما هنا و في النحل في أخريات العهد المكي، ثم في البقرة المدنية و إلى المائدة و هي آخر ما نزلت من المدنيات، إذ نجد في مكيات سالفة و لاحقة ام في مدنيات مستقبلية استثناءات عما أحلت من الانعام.

و «أحلت» هذه هنا دون رباط ظاهر بما يتلوها، إلا ما سلف‏ «مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» أكلا و ايكالا، انها تنديد بالمشركين الذين كانوا يحرّمون لحوم الاضاحي من الأنعام على أنفسهم و على الفقراء، لأنهم قدموها للّه! فهنا و في التالي يأمر اللّه بأكل لحومها و ايكالها و أنها ليست مما يتلى عليكم.

«فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ» حيث تضحون باسمها «وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» أن لحومها محرمة لأنها للّه، «لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ ..»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 91

و ترى ما هو «الرجس» و ما هو موقف «من» في‏ «مِنَ الْأَوْثانِ»؟

الرجس هو القذر ماديا او عمليا او معنويا، يجمعها الرجس المنفي عن اهل البيت‏ «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (33: 33) و تتلوها «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» (5: 90) حيث الخمر رجس ذاتها و عملها و شربها و كل محاولة فيها الا تحويلها خلا، و الميسر عملها و أكل المال فيها، و الأنصاب و هي ما ذبح على النصب فعملها رجس و ذاتها و أكلها.

و من الذاتي و العملي: «إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ» (6: 145) و من الذاتي و المعنوي: «وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ» (9: 125) و من الفاعلي‏ «قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ» (7: 71) و في صيغة شاملة كل واجب الاجتناب رجسّ مسا او عملا او عقيدة فيعم الرجاسات الظاهرية و الباطنية.

و «الأوثان» هي رجس صناعة، و رجس عبادة، و رجس ما ذبح عليها باسمها، و رجس سائر المعتقدات فيها و الطقوس لها.

إذا ف «من» هنا قد تكون نشوية فهو رجس ناشئ عن الأوثان مثل ما ذبح على النصب، و ما ذبح مذكورا عليها اسم غير اللّه، و ما أهلّ به لغير اللّه‏ «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ»: ما اهل به لغير اللّه، رجس صادر عن الأوثان.

و اخرى جنسية: «الرجس» الكائن «من» جنس «الأوثان» صناعة و عبادة و اية محاولة شركية فيها.

و ثالثة بيانية كأن الرجس- فقط- هو الأوثان، و لأنها مبدء كل رجس في جنبات الحياة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 92

و رابعة تبعيضية «الرجس من» بعض المحاولات «من الأوثان» ككل المحاولات الشركية الناشئة عن عبادة الأوثان، و أما كسرها و إحراقها و أمثالهما من محاولات توحيدية فهي واجبة «من الأوثان» كبعض آخر مما يرتبط بالأوثان.

و قد تكون كلها معنية و الأنسب في هذا المسرح هو الأول، اجتنابا مما اهل لغير اللّه به عملا و اكلا، و اجتنابا من القول الزور فيها أنها آلهة تستحق الإهلال لها في الذبائح، و القول بحرمة الاكل و الإيكال من الاضاحي لأنها للّه إذ كانوا يقولون فيها: لا يحل لنا ان نأكل شيئا جعلناه للّه حتى تأكله السباع و الطير فرد اللّه عليهم امرا بالأكل و الإيكال بشروط الحلية، و انه‏ «لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها ..».

ثم‏ «قَوْلَ الزُّورِ» لا القول الزور، هو قول من الزور او في الزور او للزور بمثلث التقديرات في الإضافات الطليقة، فيحلق على كل قول مصدره زور، او في مجال زور ام لغاية زور.

و الزور من الزّور و التزوير هو الميل عن الحق تظاهرا بالحق، نفاقا عارما ظاهره فيه الرحمة و باطنه من قبله العذاب، فهو أخص من مطلق الكذب، لأنه الكذب المنافق.

و واجب اجتناب قول الزور لا يخصه فاعليا، بل و حتى حضورا لمحضره و انفعاليا، فسماع شهادة الزور كنفس الشهادة مأمور باجتنابه و سائر قول الزور، فمنه شهادة الزور و منه قول المشركين في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه و ما ملك» «1» كما منه قولهم في الاضاحي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 359- اخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية يعني الشرك.

بالكلام و ذلك انهم كانوا يطوفون بالبيت فيقولون ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 93

و تسميهم غير اللّه عليها، و كذلك الغنى الملهي‏ «1» لفظيا بأصوات مطربة ام معنويّا بمعاني ملهية ام جمعا بينهما فوا ويلاه! و من قول الزور ان تقول للذي يغنّي أحسنت‏ «2» مهما اختلفت دركاتها.

و قد قرن قول الزور أيا كان بالرجس من الأوثان و من أنحسه شهادة الزور فقد

«قام رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خطيبا فقال ايها الناس عدلت شهادة الزور اشراكا باللّه- ثلاثا- ثم قرء: فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور «3».

إذا فقول الزور هو كل قولة هارفة جارفة مزخرفة بظاهرة الصدق، مهما اختلفت دركاته، و كما تختلف دركات الشرك، و قد قورن قول الزور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 495 عن الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: الغناء،

أقول:

انها مخصوصة بالغناء الملهى كما في بعض الروايات لأنه في اللهو، و اما غير الملهي كالتفنن بالقرآن فهو غير محظور بل هو مشكور كما في الحديث: تغنوا بالقرآن- ليس منا من لم يتغن بالقرآن، فالقول ان كل غناء زور هو نفسه من القول الزور، و في المجمع روى أصحابنا انه يدخل فيه الغناء و سائر الأقوال الملهية.

(2)

المصدر عن معاني الاخبار عنه (عليه السلام) في الآية قال: منه قول الرجل للذي يغني أحسنت، أقول: و هذا من باب بيان بعض المصاديق الخفية المختلف فيها، و كافة الرجس من الأوثان بالشطرنج فان اللاعب به ينجذب اليه تاركا ما يعنيه إلى ما لا يعنيه عاكفا عليه كأنه يعبده، و هذا جار في كل ما يلهيك عما يعنيك كأنك تعبده.

(3) الدر المنثور 4: 359- اخرج احمد و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ايمن بن خريم قال قام ... و

فيه اخرج احمد و البخاري و مسلم و الترمذي عن أبي بكرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الإشراك باللّه و عقوق الوالدين- و كان متكئا فجلس فقال-: الا و قول الزور و شهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 94

بالشرك، دركات بدركات مما يجعله تلو الشرك، و هو في الحق إشراك للكذب بالصدق حيث يزوّر بظاهرة الصدق.

ذلك- و الزور أيا كان: قولا و علما و عملا و اعتقادا و مشهدا محظور «وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً» (25: 72) «فَاجْتَنِبُوا ...»!

حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ‏ 31.

ان كل زور حالا و مقالا و أعمالا، ناشئ من الإشراك باللّه مهما كان شركا خفيا، إذا «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ» حال انكم‏ «حُنَفاءَ لِلَّهِ» مائلين عما سوى اللّه‏ «غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» كلّ من سواه و ما سواه، في أية دركة من دركاته جلية و خفية، فانما يريد اللّه من عباده ان يميلوا عن الشرك كله، الى التوحيد كله، و ان يجتنبوا قول الزور كله إلى الصدق كله، استقامة على التوحيد الخالص حالا و قالا و افعالا.

و هنا يرسم النص مشهدا عنيفا مخيفا يصوّر حال من يشرك باللّه‏ «فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ ..» فإذا هو ذاهب بددا كأن لم يكن من ذي قبل ابدا، فانه مشهد الهويّ من اعماق السماء إلى اعماق الأجواء الواسعة، فلا يجد مهبطا إلا مخطف الطير في الطريق‏ «أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ»:

بعيدا عن الانظار، في هوّة هاوية ليس لها من قرار «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ».

ذلك هو صورة الهوي من أفق التوحيد السامق الشاهق، الى درك الشرك الساحق الماحق.

و قد يعني‏ «غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» بعد «حُنَفاءَ لِلَّهِ» تعريضا بناس كانوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 95

يحجون و هم مشركون فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج فنزلت هذه التلحيقة «غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» «1» إذ ليست الحنافة لفظة تقال، الا رفضا لكل ما سوى اللّه.

و هكذا نجد في آيات عدة نفي الإشراك باللّه بعد الحنافة للّه تأكيدا في حق المعني منه:

«وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (10: 105) «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (16: 120).

ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ‏ 32.

«شَعائِرَ اللَّهِ» و ما ادراك ما هي شعائر اللّه؟ ان الحج بكل نسكه شعائر اللّه، اذاعة عالمية تبين الإسلام الحركي السياسي للعالمين، مهما كانت هذه الشعائر درجات: «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ» (2: 158) أ فلا يكون- إذا- الطواف بالبيت من شعائر اللّه، و إن سبقه على‏ «شَعائِرَ اللَّهِ» هنا قد يجعله كأنه كل شعائر اللّه، ام هو المحور الأصيل فيها، كما «وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ» (36) و هي على هامش شعيرة الطواف! بل و الشهر الحرام و هو مسرح هذه الشعائر هو ايضا من شعائر اللّه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ ..» (5: 2).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 359- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 96

و على الجملة «وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ» معرفيا و قوليا و عمليا و اذاعة بين الجماهير «فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» إذا فمن لم يعظم شعائر اللّه فانها من طغوى القلوب.

و لماذا سميت‏ «شَعائِرَ اللَّهِ» بما سميت؟ انها جمع شعيرة و هي ما يدرك بلطف و دقة من اصل الشعر لدقته- و كما الشعور هو دقة الإدراك و الشعار هو الثوب الرقيق الذي يلبس تحت الثياب، ملاصقا للشعر و كما الشعر دقة في الإدراك- و العلامات المعنية المقررة لقوم من المحاربين مستسرة، فالأصل في كل صيغها الدقة و اللطافة، و هكذا يكون شعائر الحج و مشاعره حيث تدرك أسرارها بدقة التفكير، مناسك لها معاني و مرامي دقيقة لا يدركها الا أهلوها، و يرفضها او يهينها البسطاء في المعرفة و الايمان.

هذه المناسك الشعائر كلها اعمال، و هي بحسب الظاهر بين سلبية كالوقوفين و ايجابية كالطوافين، اعمال رقيقة المعاني و دقيقة المرامي، كما الألفاظ الغامضة، و المشتبهة المعاني، و لكنها حكيمة الدلالة و محكمة المدلول لمن يتعرف إلى الدلالة و المدلول.

هذه الشعائر، رغم لطافتها و غموضة المعني فيها، هي اذاعات عالمية اسلامية، تعريفا بالإسلام الجماهيري الحركي، اشعارا إلى ضرورة تأسيس دولة اسلامية وحيدة، فان مملكة الحج نموذجة بارعة تحضّر لها حضورها، و كما هي رحمة و بركة و هدى للعالمين.

و هذان بعدان بعيدان لهذه المناسك الشعائر، ليسا في سائر الفرائض و الطقوس الاسلامية بهذه الصورة الرائعة و الجمعية البارعة، اللهم الا شذرات بينها هنا و هنا لك و هناك.

فالحج بكل مناسكه- إذا أقيمت كما رسمت- هو مدرسة سيارة تجعل من الحاج إنسانا كاملا محتلّلا عن كافة الوصمات فردية جماعية، متحليا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 97

بكل بصمات الحق و نسمات القدس، و ذلك «لمن‏ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ».

و ترى كيف اختصت تقوى تعظيمها بالقلوب؟ لأن تقوى القوالب ليست بتلك الاهمية مهما كانت مظاهر للتقوى، و انها ايضا في صالحتها من تقوى القلوب.

ثم لا يشعر هذه الشعائر الا اصحاب القلوب التقية، المدركة لقلوب هذه الشعائر و مغازيها و مراميها، فإنها قوالب لها قلوب و أسرار، ليس ليدركها إلّا اصحاب القلوب.

ثم و تعظيم شعائر اللّه يحلّق على كافة المراحل و المسارح، تعلما و تفهما و تأدبا و تطبيقا و اذاعة.

فمن تعظيم شعيرة الاضحية اصطفاء الجميلة السليمة السمينة الثمينة، و إيفاء ما يتوجب في شأنها دون افراط و لا تفريط، و كما يأتي في مجاله القريب.

ثم و لسائر الشعائر حرمات و تعظيمات كما تناسبها، قلبيا و قالبيا، و لكي يعلم العالمون انك في موقف التعظيم و التكريم، دون ان تبذرها بذرا او ترذّلها رذلا، بل و تهتم بها اكثر من كل مهام الحياة، بكل دقة و همامة.

و علّ ضمير التأنيث في «فإنها» راجع إلى تعظيمات حسب الشعائر، جمعا بجمع، فان هذه التعظيمات من تقوى القلوب، ام إلى الشعائر نفسها، فان الشعائر من تقوى القلوب، فان محاورها هي محاور التفكير الدقيق العميق، و هي من قضايا تقوى القلوب، حيث القلوب غير المتقية لا تدرك حق الشعائر و اسرارها حتى يعظمها، و المعنيان علهما معنيّان حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 98

يتحملها ادب اللفظ و المعنى.

لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33).

«لكم» في بهيمة الأنعام‏ «مَنافِعُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» و هو ما قبل واجب الذبح و النحر، من ظهورها و اشعارها و أوبارها و ألبانها و اوراثها، و هذه من منافعها الدنيوية غير الشعائرية «ثم» بعد منافعها إلى اجل مسمى «محلّها» الذي تحل فيه إحلالا باسم اللّه و إحلالا للأكل و الإيكال‏ «إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» منافع اخرى هي كلها للأخرى، نسكا و ايكالا و شعيرة عظيمة من شعاعر اللّه.

و لتكن واجهتك لها «إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» أوجه منها من ذي قبل‏ «1» و لتعظمها منذ صممت و عزمت على هديها، حيث تخرجها من ملتك إلى ملكة اللّه، و من بيتك إلى بيت اللّه، و من حوزتك و حيازتك إلى حوزة اللّه‏ «وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ». و «ثم محلها» قد يعم زمان الحلول و مكانه، و كيف يكون محل الأنعام إلى البيت العتيق و المنحر في منى هو يحلّها ثم الطواف فقط إلى البيت العتيق؟.

قد تعني محلها ما عنته هديا بالغ الكعبة» (5: 95)؟ و لكنه يختص بمن قتل الصيد محرما: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ ...»! أم تعني «محلها» زمانا و مكانا و مصدرا، و هو حلولها للذبح، تحليلا عن الإحرام،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 497 في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: البدن يركبها المحرم من موضعه الذي يحرم فيه غير مضر بها و لا معنف عليها و ان كان لها لبن يشرب من لبنها إلى يوم النحر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 99

ناحية منحى البيت العتيق، لأنه بطوافه هو المحور لكل المناسك الشعائر، فانه ام الشعائر.

ام يعني‏ «بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» الحرم كله، ام منى و مكة كلها و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «كل فجاج مكة منحر و كل فجاج منى منحر» «1»

و لكن البيت العتيق هو البيت العتيق، دون مكة كلها او الحرم كله! ام و باحرى «محلها» تعني محل شعائر الحج كلها، و مرجعها و مختمها «إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» طوافا، حيث الشعائر كلها تنحو منحى الطواف فانه اصل الحج، بل هو الحج كله، ثم شعائره كلها تعبيدات له و تلحيقات كهوامش على ذلك المتن المتين و الركن الركين.

ثم و هكذا «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ» تحلّق على شعائر الحج كلها، فان فيها منافع من كافة أنواعها، روحية و مادية و دنيوية و اخروية، و لا سيما مدرستها السيارة، من إحرامها و وقوفيها و بيتوتتها، مدارس مسلسلة متصلة ترقى بالحاج إلى مراقي المعرفة و الكمال و كما اللّه قال‏ «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 23: 34 قال (عليه السلام): ... و

في الوسائل 10: 92 ح 2 و الوافي 2: 169 عن الصادق (عليه السلام) «مكة كلها منحر»

و لكنه خاص بغير هدي الحج، ام مخصوص بحالة الاضطرار ام مضي ايام التشريق، و الآية في مقام بيان ضابطة عامة تعني الحالة العادية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 100

اجل‏ «ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» كأصل اصيل عريق ضارب في اعماق الزمن، حيث كان مطافا لكافة الموحدين منذ كانوا و إلى يوم الدين، فهذه الحرمات المناسك الشعائر، كلها إلى حرم اللّه‏ «إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» فانه المحور و المدار، و المستقر القرار، و لا ركن في الحج يوازي الطواف او يساميه، فانه اركن أركانه و أعظم شعائره.

و انها كلها تتسل مندغمة مع بعض، ثم تحل إلى البيت العتيق طوافا، فانها تحضّر الطائف ليحل ذلك المحل الرفيق، فيكون طوافه جامعا لشروطاته.

يخطو الحاج تلك الخطوات الرائعة، اللائقة البائقة، بأقدام المعرفة و إقدام التضحية و العبودية، دارسا في مدرسة الإحرام، عارفا في عرفات، مغربلا عرفاته في المشعر الحرام، مطبقا مناه في منى، و إلى تقديم الأضحية التي ترمز إلى تقديم النفس و النفيس، تحلّلا عن كل ما يملكه منهما في اللّه‏ «ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»! ان لكل شعيرة من شعائر الحج أجلا معجلا «إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» «لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» ثم أجلا مؤجلا بعد البيت العتيق، حيث الحاج يستمر بهذه الذكريات منذ الحج و طيلة الحياة، أجلان هما مسميان، و اين اجل من اجل، و الثاني خير مؤول، و الاول خير معوّل، حيث الأجل المحل إلى البيت العتيق أمثولة و دراسة تدريبية و نموذجية من برمجة الحياة السليمة الاسلامية، و من البيت العتيق إلى آخر الأجل مسرح للتطبيق.

ثم و ليست هذه المناسك الشعائر «إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» فقط لهذه الامة الاخيرة، بل:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 101

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ‏ 34.

منسك واحد في الجذور و آله واحد في كل العصور، فأمة واحدة ذات رسالة واحدة مهما اختلفت القشور: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى‏ هُدىً مُسْتَقِيمٍ» (22: 67).

و المنسك هو مصدر ميمي و اسم زمان و مكان، فهو نسك في زمان و مكان خاص، و هو عبادة خاصة في زمانها و مكانها الخاص بها، فهو هنا مناسك الحج كلها، و مما يلمح له هنا «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» ثم قرنه بعبادات أخرى: «فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ» (2: 196)- «إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي ...» (6: 163) ثم التماسه في موقف الحج كما في ابراهيم‏ «وَ أَرِنا مَناسِكَنا» (2: 128) ثم ذكره بعد سرد من مناسك الحج: «فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ» (2: 201).

و لو كان المنسك هو العبادة ككل لكان صحيح التعبير عنه النسك دون المنسك، فهو- إذا- مناسك الحج لا سواها.

و هذه الآية مما تدل على اممية المناسك عبر الرسالات و الأمم منذ آدم إلى الخاتم (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و قد وردت روايات في مناسكهم رسلا و امما.

و قد تمتاز المناسك الاسلامية بميّزات، كما هي طبيعة الحال فيها قضية الخلود و الكمال القمة المغنية، و منها «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» فانها مزيد على ما لكل امة «لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ..»! مهما كانت لهم منافع اخرى فيها من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 102

واجهات اخرى، و لكنها ليست لتبلغ مبلغ تلك المنافع الاخرى للشرعة الأخرى.

«فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ» و بيت عتيق واحد، و دين واحد، مهما اختلفت مناسك عن مناسك، كما شرعة عن شرعة في مظاهر، حيث الأصل صادر عن مصدر واحد و لغاية واحدة.

إذا «فَلَهُ أَسْلِمُوا» لا سواه، من عادات مهما كانت لشرعة سابقة، فالإسلام له، يجعل من الأمم امة واحدة مسلمة للّه، دون تنازع في الأمر «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» و هو الدين الحق التي تشرعت منه و تصدرت منه الشرائع.

«فَلَهُ أَسْلِمُوا» حيث الإسلام للّه يوحد المشاعر و الشعائر و كل الاتجاهات فيهما و سواهما.

«وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» إلا خبات مفسّرة بالآية التالية و هي لغويا من الخبت:

المتّسع المطمئن من الأرض، و الإفعال منه هو النزول إلى ذلك المتسع خروجا عن كل ترفع و ارتفاع، فالمخبت هو اللاصق بأرض العبودية اللازق بالخرور و الخضوع و الخشوع.

و هنا المعني منها الإخبات إلى ربهم، في تلك الساحة المتسعة من العبودية بكل صورها، في كل شرعة شرعة، دون إخلاد إلى ارض واحدة و ساحة خاصة من شرعة: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ» (11: 23).

فمهما كان أصلها الإخبات إلى الأرض، و لكنه ليس إلا له تعالى، فمن مخبت إلى الأرض للحياة الارضية «لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ‏ وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (7: 176) «وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 103

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» (22: 54) فبشر المخبتين‏ «1» إلى ساحة متسعة من ارض العبودية «له» لا سواه:

الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى‏ ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ‏ 35.

فللإخبات إلى الرب و للرب قوائم اربع من مظاهر العبودية و سرائرها، وفاقا بين السر و العلن دون نفاق:

1 «الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» و الوجل هو استشعار الخوف، من نفسه لمعاصيه و مآسيه، و من اللّه رهبة و هيبة، فهو أحض من الخوف، و وجل القلب يحلّق على كل كيان الإنسان بمشاعره و شعائره، بأقواله و أفعاله و أحواله.

2 «وَ الصَّابِرِينَ عَلى‏ ما أَصابَهُمْ» في جنب اللّه، فيحتسبون عند اللّه عنائهم، دون ان يعييهم او يخفف عن وطأتهم في عبادته، و تنمّرهم في ذاته.

3 «وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ» اقامة لائقة بجنب اللّه، فائقة كل قيام آخر و إقامة، و لا فحسب هذه الثلاث من العلاقات الشخصية باللّه، بل و علاقة جماهيرية خلقية كما امر اللّه:

4 «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» في سبيل اللّه، من كل نفس و نفيس ممكن الإنفاق في اللّه، و من ذلك ما علّمهم اللّه حيث منه يبثّون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تعليقات احقاق الحق في آية المخبتين «علي منهم» نقله و صححه القرطبي في عداد من نزلت هذه الآية في حقهم (الجامع لأحكام القرآن 12: 59) و ابن مردويه في المناقب قال: علي منهم و سلمان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 104

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ 36 لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ‏ 37.

هنا «البدن» و هناك‏ «بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» ذكرا لاسم اللّه عليها و اكلا و ايكالا منها، فهما- إذا- سيان، في أنهما «مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ» و كما لحقت آية الشعائر الاولى الانعام و بهيمة الانعام أضحيات.

إذا فالأضاحي هناك كلها من شعائر اللّه، فلنعرف واجهات هذه الشعيرة ما هيه؟

هذه الشعيرة و هي‏ «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» بدنا و هي أفضله، ام سواها كما استيسر، إنها «هدي» من الحاج للّه تقوى و إشارات، و لعباد اللّه الفقراء و هم ضيوف اللّه، إطعاما.

فمن شعيرة الهدي اشعار المهدي بمدى تضحيته في اللّه، انه لولا نهي اللّه لكان ينتحر فهو- إذا- نفسه أضحية تقديما للّه، و لكنه- لمنعه- يقدم بديلا عن نفسه‏ «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» اشعارا بذلك الشعار انني يا رب حضّرت حالي فداء لك، و ذلك الهدي كما استيسر اشارة مني ظاهرة إلى تلك الحالة الباهرة غير الظاهرة، و لكي يعلم العالمون انني تخطيت النفس و النفيس، فانا رهن الإشارة من ربي، متى أمرني ان أكون من الضحايا في سبيله!.

و هذه الشعيرة البارعة ماخوذة مما فعله ابراهيم بديلا عن اسماعيله المأمور بذبحه امتحانا، و قد كان عنده أنفس من نفسه و من كل نفيسه، فقد أمر في المنحر أن يذبحه إبرازا لمدى تسليمه لربه: «قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 105

فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى‏. قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ‏ ... وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» (37: 107).

فذلك الهدي المتواتر منذ ابراهيم و إلى يوم الدين، انه ذبح عظيم، إعلانا جاهرا و اشعارا باهرا من الحاج، أنني اذبح كما ذبح ابراهيم، بديلا عما امر بذبحه، فهذه شعيرة عظيمة في الهدي على مر الزمن و منعطفات التاريخ، منذ خليل اللّه إلى حبيب اللّه و إلى يوم لقاء اللّه.

ذلك «ذبح عظيم» ما أعظمه، ابتداء من هذه الشعيرة العظيمة، إذاعة للحجاج في مذياع الحج اننا وصلنا في مدرسة الشعائر المناسك إلى حد التضحية لأنفسنا في اللّه.

ثم حشرا لمسرح و معرض الدم، سيول الدماء تسيل بأمر اللّه و في سبيل اللّه و اطعام اهل اللّه، و لكي تتعود العيون ان ترى لون الدم، و الأيدي و الأرجل ان تنغمس في سيل الدم، و لكي لا يهابوا و يخافوا الدم، حيث تجب اراقتها في سبيل اللّه، في خطوط النار و مسارح الحرب حفاظا على حرمات اللّه، قاتلين اعداء اللّه او مقتولين في سبيل اللّه.

و هذه اشعارة ثانية في هذه الشعيرة، أنّنا امة الدم، فلا نخافه حين يطبّق امر اللّه، حفاظا على شرعة اللّه.

و من ثم اشعارة ثالثة هي القاعدة الظاهرة لذلك المثلث في آيات الهدى، و هي: «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ- فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ» أكلا و إيكالا من هذه الهدية العظيمة، إشباعا لبطون الجياع، الوافدين إلى البيت العتيق، حيث هم ضيوف اللّه، ف «لن ينال الله لحومها و لا دماءها و لكن يناله التقوى منكم»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 106

فإطعام البائس الفقير، و القانع و المعتر، في ذلك المسرح العظيم، هو القاعدة المتينة و الضابطة الركينة، المصرّح بها في آياتها، لا فقط: الزاوية الاولى و الثانية، اللتان لا يعرفهما الا اهلوهما، و لو كانت فيهما الكفاية فليختص الهدي بقلة قليلة يعرفونهما، ام لتجب معرفتهما لكل مهدي يقدم أضحيته لكي لا تذهب هباء منثورا!.

هنا «التَّقْوى‏ مِنْكُمْ»- في هذه الزوايا الثلاث- تنال اللّه، و ان كانت أخيرتها و هي القاعدة الظاهرة إطعاما لعباد اللّه، ثم‏ «لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها» خلاف ما كان يزعمها المشركون:

«فقد كان اهل الجاهلية إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة و شرحوا اللحم و وضعوه على الحجارة و قالوا لا يحل لنا ان نأكل شيئا جعلناه لله حتى تأكله السباع و الطير فلما جاء الإسلام جاء الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقالوا: شيئا كنا نصفحه في الجاهلية ألا نصنعه الآن فانما هو لله‏ «1».

فالآن- و قد ابتلي المسلمون بمثل هذه الفعلة المنكرة، و التبذير الموحش الوحشي، بل و اجتازوا فعلة المشركين، حيث المذبح أصبح نتنا و عفنا لحد لا يقر به حتى السباع لتأكل من اللحوم- فمن هو المسؤول هنا إلا الفقهاء، حيث ظلوا يفتون بوجوب الذبح في محشر منى، دون ان يفكروا في علاج لهذه المشكلة العويصة من تبذير منقطع النظير في تاريخ الوحش و الإنسان، إحراقا او دفنا بالجرّافات و البولدوذرات لآلافات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). آيات الأحكام للجصاص 3: 290 روى يونس بن بكير عن أبي بكر الهذلي قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 107

الأطنان من هذه اللحوم الركام كالاتلال في ساحة منى، مما يضحك الأعداء، و يبكي او يشكك الأصدقاء.

فحين يحذّر القرآن عن السرف و التبذير و «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ! وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً» (7: 27) فهل من الممكن ان نؤمر في مؤتمر الحج و شعائره أمام العالمين، ان نبذّر ذلك التبذير المنقطع النظير في تاريخ التبذير، و أما منافي العالم الاسلامي بطون غرثى و جياع بالملايين الملايين لا عهد لها بالشبع و لا طمع لها في القرص؟! و قد حصر القرآن مناسك الحج و شعائره في‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» و منها لحوم الاضاحي، فحصرت آياتها منافعها الظاهرة لكل العالمين في إشباع الفقراء و المساكين، و كما

يروى عن الرسول الصادق الأمين (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم» «1»

لا ليشبع أعداءنا أغنياء و فقراء من الضحك علينا في ذلك التبذير العامد، او تشبع ديدان منى او سباعها من أكلها، و السباع متنفّرة منها، حيث لا تدنوا منها!.

هنا الآيات من نواحي شتى، و الروايات من أخرى، تفرض علينا ان نطعم الفقراء الجياع من لحوم الأضاحي، و إليكم درسا فصلا هنا و هناك ليشبع دعوانا من أدلتها كتابا و سنة، اضافة إلى ادلة اخرى يعرفها كل ذي حجى:

«و البدن» جمع بدنة و هي الإبل البدين الثمين- كسائر الانعام- «جَعَلْناها لَكُمْ»: الحجاج‏ «مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ» شعائر حكيمة معقولة تعريفا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة 10: 147 ح 22 من لا يحضره الفقيه قال قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 108

بمدى كمال الإسلام و نبوغه و عظم المسلم و بلوغه- فهل ان ذلك التبذير الحاضر في تلك الساحة الفسيحة من منى، ذلك من شعائر اللّه، ام من شعائر الجاهلية الجهلاء و أضل منها و أنكى؟! «لَكُمْ فِيها خَيْرٌ» حية و أضحية، و هل ان من خيرها اضحية ان تبذر و تهدر هكذا أمام عالم من البطون الجائعة الغرثى التي لا عهد لها بلحوم و سواها؟ كلا! و ان ذلك شرّ ما أنحسه و أتعسه، ف «لكم فيها شر» حيث تقدمونها للديدان و المحرقات و الجرافات، و تعفّنون بها جوّ منى، جاعلين ساحة البيتوتة الذكر، و المشاورة بين الجموع، ساحة محرجة مهرجة، كلّ يعد الساعات و الدقائق للفرار! «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها» حال كونها «صوافّ» مصطفة للنحر- او الذبح- «فَإِذا وَجَبَتْ» و سقطت «جنوبها» و ظلت ميتة صالحة للأكل منها «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ» «كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

اجل «كذلك» المذكور المأمور به المشكور، ان تختاروا خيرها، و تذكروا اسم اللّه عليها و تأكلوا منها و تطعموا .. لا أن تختاروا شرها النّكر، فتذكروا سوى اسم اللّه عليها كما المشركون، ام لا تذكروا عليها اسما كما الملحدون فتصبح ميتة لا توكل و لا تطعم.

او ان تذكروا اسم اللّه عليها صواف فإذا وجبت جنوبها تذروها في محالها و تهدّروها فتعفّنوا الأجواء بها، او تحرقوها ام تدفنوها!.

كذلك المعقول المشكور «سَخَّرْناها لَكُمْ» لا هكذا اللامعقول المكفور «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» اللّه على ما رزقكم من بهيمة الانعام «لا» «لعلكم تكفرون» بنعمته، إزهاقا لأرواحها، و إفناء جنونيا وحشيا للحومها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 109

فتكفرون أنتم كفرا او كفرانا، ثم يكفر العالمون الناظرون إلى ذلك المسرح اللعين، كفرا بشرعتكم، زعما انها هي التي تأمركم او تسمح لكم بهكذا تبذير وحشي لا يعرفه الوحوش في الغابات و الفلوات! «لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها» كما كان يزعمه المشركون، ملطخين البيت بدمائها، مهدّرين لحومها للسباع لأنها قدّمت للّه فلا توكل!-.

«وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى‏ مِنْكُمْ» اتقاء عن ان تذكروا اسم غير اللّه عليها، ام تبخلوا عن هديها، ام تهدروا لحومها- «كذلك» الذي ذكرناه‏ «سَخَّرَها لَكُمْ» ذبحا شرعيا و اكلا و ايكالا للجياع، على تقوى من اللّه في هذه الساحة الدامية، دون طغوى منكم بتبذير وحشي موحش، بحرمان أهليها الفقراء.

كذلك‏ «سَخَّرَها لَكُمْ» ربكم‏ «لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى‏ ما هَداكُمْ» تكبيرا بتقواكم، و تكبيرا باطعام الفقراء من عباده، لا تصغيرا للّه بتلك الطغوى و التهدير و التبذير «وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» في هديهم، حيث يراعون فيه تقوى اللّه، دون المسيئين في هديهم تلك الإساءة المخزية المزرية.

ذلك، و قد عدت بهيمة الانعام الاضاحي من منافع الحج الجماعية العالمية للمسلمين‏ «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ‏ ... لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ».

فحين تجمل‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» تلك المنافع الهامة المنقطعة النظير، ثم يفرد منها بالذكر «ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» أكلا و إطعاما، اعتبارا انها من أهم المنافع مادية و معنوية، فهل ان ذلك التهدّر في لحومها من‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» الشاخصية؟ فما هي‏ «مَنافِعَ لَهُمْ» في ذلك التبذير المنقطع النظير اقتصاديا، و ما هي في ذلك الإعلان الجاهر بسماح ام فرض واجب على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 110

ملاء العالمين، أن ذلك التهدير الكبير هو من احكام الإسلام، الذي لا يسمح باي إسراف او تبذير حتى في نواة تمر!.

و هل عليهم ان «يذكروا اسْمَ اللَّهِ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ» هكذا، ان يقدموا الأثمن الأسمن منها للحرق و التدفين و التعفين، بديلا عن ان يأكلوا منها و يطعموا البائس الفقير و القانع و المعتر؟! او هكذا «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ» سماحا أمميا لذلك التبذير النكير؟

ويكأن دين اللّه بشرائعه هو دين الإسراف و التبذير، فعلى المتشرعين بكل شرعة ان يدرسوا في مدرسة منى كيف لهم او عليهم ان يبذروا رزق اللّه و بأمر اللّه؟! أ فهكذا دعى ابراهيم الخليل‏ «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ‏ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (3: 126)؟ ففي الحق انها دعوة عليهم لا لهم، ان يرزقوا من ثمرات الأنعام ثم يؤمروا بذبحها مهدّرين لها؟! أو هكذا يكون الهدي و القلائد مع البيت الحرام و الشهر الحرام‏ «قِياماً لِلنَّاسِ» حيث:

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (5: 97).

فهل ان في ذلك التهديد الهدير الشرير النكير قيام للناس، قياما روحيا ام سياسيا و اقتصاديا، ام إنه قيام للنسناس الذين يعارضون شريعة الناس.

انه قيام رمزا للتضحية في سبيل اللّه، و شهودا لسيول الدماء المهراقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 111

في اللّه، و اطعاما لعباد اللّه، و لكنا بدلنا قيامه سقوطا و إسقاطا لهذه الشعيرة الغالية عن أعين الناس، و اثباتا لوحشية منقطعة النظير في شرعة الناس أمام النسناس.

أو هكذا يكون ذلك البيت العتيق بمناسكه‏ «مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ»:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ‏ .. وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» (3: 16) فحتى الحشرات حيث لا تؤذى، و أما بهيمة الانعام فتؤذي هكذا دونما نفع إلا ضرا راجعا إلى أصل الإسلام و الإسلام الأصل.

و ما هي هذه البركة و الهداية للعالمين، و تلك الساحة الدامية المدمية في منى دركة و ضلال للعالمين؟! أم هكذا يكون البيت مثابة للناس و أمنا: «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125) أ مثابة في مثل ذلك التهدير التبذير، و لكي يدرس المسلمون كيف عليهم ان يبذروا أرزاقهم أمام الملايين من الجياع، و كما يفعله الاستعمار الكافر، فقد نرى السلطة الامريكية كيف تلقي ملايين الاطنان من الحنطة و الشعير في البحر، لكي يبقى الجياع جياعا، و ان وراءه سياسة ابليسية؟.

فما هي سياستنا الإسلامية السامية في ذلك الإسراف العجيب و التبذير الرهيب؟! تلك الاضاحي المهداة و الأتلال من اللحوم الزكية، هي- فقط- للبائس الفقير و القانع و المعتر، و ما الأمر بالأكل منها للمهدين إلا ادبيا تأديبيا ليصطفّوا هناك في صفوف الفقراء دون تميّز عنهم، و محقا للسنة الجاهلية حيث كانت تحرّم الاكل منها و إيكالها، و قد يكفي هذا و ذاك رفعا للحظر عن الاكل منها لأنها- فقط- للفقراء، و هم الركن الركين و المتن المتين في هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 112

الساحة الدموية دون سواهم، اللهم الا على هوامشهم، و التقسيم كما كما يأتي ثنائي بين المهدين و الفقراء، و ليس ثلاثيا ثالثه الأصدقاء غير الفقراء.

لذلك يحصر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هذا الأضحى في المساكين قائلا:

«انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينهم من اللحم من اللحم فأطعموهم» «1».

و

يخطب علي (عليه السلام) في الأضحى قائلا: «و إذا ضحيتم فكلوا و أطعموا و اهدوا و احمدوا الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام» «2».

و لقد كان من رعاية الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حقوق الفقراء فيها لحد «نهى (صلى الله عليه و آله و سلم) ان يعطى الجزار من جلود الهدي و جلالها شيئا» «3». و

يقول حفيده الكاظم (عليه السلام) «لا يصلح ان يجعلها جرابا الا ان يتصدق بثمنها» «4».

و في متظافر الحديث عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة 10: 147 ح 22 من لا يحضره الفقيه قال قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ....

(2) المصدر ح 23.

(3)

المصدر 151: 1 بسند متصل عن حفص البختري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ نهى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم ...)

و

معاوية بن عمار عنه (عليه السلام) و صحيح البخاري 2: 212 و صحيح مسلم 3: 594 قال: نحر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بدنة و لم يعط الجزارين من جلودها و لا قلائدها و لا جلالها و لكن تصدق به و لا تعط السلاخ منها شيئا و لكن أعطه من غير ذلك.

(4) المصدر الصدوق عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال: سألته عن جلود الاضاحي هل يصلح لمن ضحى بها ان يجعلها جرابا؟

قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 113

اهل بيته (عليهم السلام) انه لا يجوز للمهدي ان يدّخر من لحوم الاضاحي شيئا، و انما قدر يومه.

ذلك فكيف يجوز هضم حقوق الفقراء كما نفعله نحن في منى، هدرا ساحقا للحوم، و حيلة شرعية! إعطاء لثلث الثمن اللاشي‏ء- في تقدير ذلك المسرح الذي لا قيمة فيه للحوم- للفقراء، و اي فقير يرضى ان يعطي من خمسمائة ريال عشرة؟! و قد نتساءل فكيف- و الحال هذه- يأمرنا اللّه تعالى بما استيسر من الهدى، و قد نحر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أحيانا ستا و ستين بدنة، مزيدا في الفضل، و تطبيقا لما استيسر من الهدى؟

و لكن يأمرنا هكذا لنأكل منها و نطعم البائس الفقير و القانع و المعتر، و اما إذ لا فقير هناك، و إذا كان فاللحوم هي ملايين اضعاف نصيب الفقراء الحضور، إذا فلا هدي إلا على قدرهم، أ تراك حين تؤمر بإحضار طعام لتأكل و يأكل معك الف من الجياع، فهل تحضّره على نفس القدر حين لا تقدر ان تأكل، و لا ان هناك الف و لا مائة و لا عشرة من الفقراء؟.

بطبيعة الحال ليس القصد من إحضار طعام إلّا ليطعم قدر الطاعمين، لا ليهدر حين لا يؤكل ام يؤكل منه جزء قليل، ثم البقية في تسعة و تسعين بالمائة تهدر؟!.

و لقد نحر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حجة الوداع ذلك العدد الهائل لكثرة الفقراء، حيث كانت الاكثرية ممن حج معه مشاة و فقراء، فقد كان هديه قدر الحاجة و المكنة.

و رعاية لحقوق الفقراء الحضور في منى، كان إخراج اللحوم منه ممنوعا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 114

بعد ثلاثة ايام، ثم سمح فيه لقلة الفقراء فيها، فقد

«كنا ننهى عن إخراج لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام لقلة اللحم و كثرة الناس، فأما اليوم فقد كثر اللحم و قل الناس فلا بأس بإخراجه» «1».

و هكذا ترون أن الأمر و النهي حول اللحوم دائر مدار الحاجة حيثما دارت، دونما هدر أعمى بتضحية جزاف فوضى دون رعاية لحقوق الفقراء! و هنا نتساءل: فما ذا علينا في ظروفنا الحالية و اللحوم مئات اضعاف الفقراء الحضور في منى؟

هنا طرق شرعية نتطرقها حفاظا على أمر الاضحية و حقوق الفقراء فيها:

أولا: تأسيس معامل لتعليب اللحوم الزائدة عن حاجة الفقراء الحضور و الذين يمكن إيصالها إليهم حالا، ام بعد زمن، حفاظا لها في البرّادات على مدى الحاجات، فتبعث هذه المعلّبات إلى أكناف العالم الاسلامي الأقرب إلى الحرم فالأقرب، و الأحوج إليها فالأحوج، رعاية لكامل حقوق الفقراء فيها، توزيعا بينهم دون ثمن إلا قدر تكاليف التعليب و التوزيع.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الوسائل 10: 149 ح 6 قال الصدوق و قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) و فيه ح (4)

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نهى ان تحبس لحوم الاضاحي فوق ثلاثة ايام من اجل الحاجة فاما اليوم فلا بأس به‏

و (5)

عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن حبس لحوم الاضاحي فوق ثلاثة ايام بمنى؟ قال: لا بأس بذلك اليوم ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انما نهى عن ذلك أولا لان الناس كانوا يومئذ مجهودين فاما اليوم فلا بأس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 115

ثانيا:- و الحال عدم وجود هذه المعامل- ان يذبح قدر الحاجة يوم النحر، ثم يذبح قدر الحاجات في البقية الباقية من ذي الحجة الحرام، كما يمكن إيصالها إلى الفقراء، حفاظا عليها في البرّادات حسب الإمكانيات، و من ثم توزيعا بين فقراء الحرم و ما والاه من مملكة الحج و سواها، ثم القدر الزائد من كل ذلك لا يذبح و انما تدفع أثمانها حسب السعر الحالي للفقراء في منى و سائر الحرم و سواه، تقديما للأقرب فالأقرب، و هذا هو «ما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» حيث لا يمكن في صورة الذبح، انتقالا الى أثمانها العادلة.

و ان ثمن الهدي كله للفقراء، دون استثناء لما تأكلون حين تذبحون حيث السماح مختص بخصوص اللحم دون الثمن، و إذا اختلفت الأثمان حسب تصاعد السوق و تنازله فالقسم العادل بين الأثمان هو العدل المستحق للفقراء،

«انظروا إلى الثمن الاول و الثاني و الثالث ثم تصدقوا بمثل ثلثه» «1».

هذا- و بأحرى من فقدان الاضحية فقدان من يأكلها من الفقراء ام عدم إمكان إيصالها إليهم فليتصدق عليهم أثمانها العادلة المعتدلة.

فما أمكن إيصال لحومها إلى الفقراء فالذبح يوم النحر، و إلا فالي ايام أخر حتى آخر ذي حجة الحرام، و من ثم تنتقل الاضاحي إلى أثمانها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الوسائل 10: 172 ح 1 محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن عبد اللّه بن عمر قال: كنا بمكة فأصابنا غلا في الاضاحي فاشترينا بدينار ثم بدينارين ثم بلغت سبعة ثم لم توجد بقليل و لا كثير فرفع هشام المكاري رقعة إلى أبي الحسن (عليه السلام) فأخبره بما اشترينا ثم لم نجد بقليل و لا كثير فوقع: انظروا ...

و رواه الصدوق باسناده عن عبد اللّه بن عمر و الشيخ باسناده المتصل الصحيح ايضا عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 116

رعاية في كل المراحل الثلاث كامل حقوق الفقراء، دون ان ينتقص منها شي‏ء و لا نقير، الا ما يشارك في أكلها مع الفقير، لحما دون بديله الثمن، و كل ذلك تشمله‏ «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» و للتفصيل يراجع آيتها.

و قد نتساءل كيف نخرج من الإحرام دون ذبح بتلك الأعذار؟

و الجواب بصورة عامة ان الضرورات تبيح المحظورات، و خصوص النصوص فيمن لم يجد الاضحية بدفع ثمنها، ام توديعه عند من يذبحها بعد ذلك ام في سنة قادمة «1» فهل يبقى الحاج محرما حتى السنة المقبلة حيث تذبح عنه، و ليس من الممكن في ظروفنا الحالية الذبح الصالح في عشرات من السنين المستقبلة.

ذلك، و هل هنا لك عذر عن الذبح اكثر من هدره هضما لحقوق الفقراء العزّل المظلومين؟! و لان التقسيم عند الذبح ثنائي حسب النص‏ «فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ- الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ» فلا نصيب إذا لغير الفقراء جيرانا و أصحابا، لا سيما و ان أصحابك من غير الفقراء لهم أن يأكلوا من أضحياتهم، فالتقسيم الثلاثي، و لا سيما الأثلاث المتساوية، يجعل نصيب الأغنياء ثلثي نصيب الفقراء، و هذا منكر من القول و زور من الفتوى، المخالفة لنص الكتاب و السنة «2» و قضية الحال في الهدي و طبيعتها انه- فقط- للفقراء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

وسائل الشيعة 10: 153 باب أفرد لذلك فيه اربعة أحاديث و منها صحيحة حريز عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في متمتع يجد الثمن و لا يجد الغنم؟ قال:

يخلف الثمن عند بعض اهل مكة و يأمر من يشتري له و يذبح عنه و هو يجزي عنه فان مضى ذو الحجة أخر ذلك إلى قابل من ذي الحجة.

(2)

المصدر 10: 142 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إذا ذبحت او نحرت فكل و اطعم كما قال اللّه: فكلوا منها و أطعموا القانع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 117

و لم يسمح للأغنياء الا مشاركتهم في اكلة اليوم مواساة معهم و نقضا لسنة جاهلية قاحلة، ثم و في الأثلاث حيث يحسب القانع و المعتر اثنين، لا يعني ثلثك واقع الثلث المحدد، و انما قسم من الثلاثة يكفيك ام و لأهلك يومك، و كما فعل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ تراه اختص بنفسه و اهليه اثنين و عشرين من هديه الستة و الستين، ثم البقية لسائر الفقراء و المساكين‏ «1»؟

و الرواية القائلة بالاثلاث، و ان منه صديقك ام جارك‏ «2» مؤولة بالصديق او الجار الفقير، ام مطروحة بخلاف نص القرآن. كما و القائلة بهدية ثلث قد تعنيها لغير البائس الفقير، من قانع او معترّ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و المعتر، فقال: القانع الذي يقنع بما أعطيته و المعتر الذي يعتريك و السائل الذي يسألك في يديه و البائس الفقير،

و مثلها

صحيحة سيف بن تمار قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) ان سعيد بن عبد الملك قدم حاجا فلقي أبي فقال اني سقت هديا فكيف اصنع؟ فقال له أبي اطعم أهلك ثلثا و اطعم القانع و المعتر ثلثا و اطعم المساكين ثلثا فقلت المساكين هم السؤال؟ فقال: نعم و قال: القانع الذي يقنع بما أرسلت اليه من البضعة فما فوقها و المعتر ينبغي له اكثر من ذلك هو اغنى من القانع يعتريك فلا يسألك.

(1).

الوسائل 10: 142 ح 2 عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (عليه السلام) انها قالا ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) امر ان يؤخذ من كل بدنة بضعة فامر بها رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فطبخت فأكل هو و علي و حسوا من المرق ...

(2)

المصدر 10: 145 صحيحة أبي الصباح الكناني قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن لحوم الاضاحي فقال: كان علي بن الحسين و ابو جعفر يتصدقان بثلث على جيرانهم و ثلث على السؤال و ثلث يمسكانه لأهل البيت.

(3)

المصدر عن شعيب العقرقوفي قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) سقت في العمرة بدنة فأين أنحرها؟ قال: بمكة، قلت اي شي‏ء اعطي منها؟ قال: كل ثلثا و اهد ثلثا و تصدق بثلث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 118

و نص القرآن لا يسمح بالأكل منها الا في الهدي، و اما الكفارة فهي- فقط- للفقراء حسب الضابطة العامة و كما في روايات مستفيضة «1».

فمن المضحك المبكي جدا دمج كفارات الإحرام- التي هي من خالص حقوق الفقراء- في هدي الأضحى هدرا في هدر، رغم التوسعة القطعية في مكانها و زمانها «2».

و لان السلطة تمنع عن الذبح في منى بعد الأيام الثلاثة، و ان مكة- بل و الحرم كله- منحر، يجوز الذبح في مكة و في أي الحرم شاء.

و من الراجح او المتأكد جدا ان يشترك الحجاج، كل جماعة منهم في هدي واحد جمعا في شعيرة الهدي، قدر الحاجة في منى، ثم ما تبقّى عليهم، حكمه حكم المعذور كما قدمناه.

ثم «البائس الفقير و القانع و المعتر» هم شركاء ثلاث في هذه اللحوم قدر حاجياتهم، و بعد ما تأكل منها قدر يومك، فالبائس الفقير هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر (143) صحيحة عبد الرحمن عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سألته عن الهدي ما يأكل منه أ شي‏ء يهديه في المتعة او غير ذلك؟ قال: كل هدي من نقصان الحج فلا يأكل منه، و كل هدي من تمام الحج فكل، و فيه عن السكوني عن جعفر عن أبيه (عليهما السلام) قال: إذا أكل الرجل من الهدي تطوعا فلا شي‏ء عليه و ان كان واجبا فعليه قيمة ما أكل.

(2)

الوافي ج 2 ص 119 ب 87 من أبواب الحج عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ من وجب عليه هدي في إحرامه فله ان ينحره حيث شاء إلّا فداء الصيد فان اللّه عز و جل يقول: هديا بالغ الكعبة،

أقول و في أحاديث عدة ان هدي الصيد إذا كان من العمرة فمكة و ان كان من الحج ففي منى، و اما كفارة غير الصيد فحيث شاء. و

في صحيحة إسحاق بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له الرجل يخرج من حجه شيئا يلزمه في دم يجزيه ان يذبحه إذا رجع الى اهله فقال نعم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 119

أحوجهم و من ثم القانع و المعتر، ثم القانع هو «الذي يرضى بما أعطيته و لا يسخط و لا يكلح و لا يرتد شدقه غضبا، و المعتر المار بك تطعمه» «1» و

«لا ينبغي له اكثر من ذلك هو اغنى من القانع، يعتريك فلا يسألك» «2».

و على أية حال فليكن التقسيم لحما و ثمنا عادلا حسب الحاجة و قدر الأقدار، فالسائل بالكف يعطى اقل من غير السائل ك «للفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» فقد لا يسألون، و اخرى لا يجعلون أنفسهم معرض السؤال و هم اعفّ من أولاء.

فالبائس الفقير الذي لا يسأل و لا يعرض نفسه معرض الحاجة و السؤال- فهو اخفهم سؤالا و أكثرهم سؤلا- يعطى اكثر ممن هو في معرض السؤال كالمعتر، أمن يسأل كالسائل بالكف، مهما كانوا على سواء.

فيا جماهير المسلمين، مقلّدين و مقلّدين، الى كتاب اللّه و سنة رسول اللّه (ص) دون رعاية للشهرات و كل ما هو آت خلاف الكتاب و السنة، تطبيقا للمنى الاسلامية السامية في منى، رميا على شيطان التبذير و الإسراف سبعا سبعا، و توزيعا لحقوق الفقراء بينهم دون تبذير و لا تهدير.

[سورة الحج (22): الآيات 38 الى 57]

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ (42)

وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (43) وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى‏ فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (48) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (49) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (50) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52)

لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (53) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (54) وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (57)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 499 صحيحة سيف التمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث التقسيم ....

(2) مضت هذه الجملة عن صحيحة سيف التمار الاخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 122

إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ 38.

إعلام صارخ في هذه الاذاعة القرآنية يطمئن الذين آمنوا في حياة المعارضة الدائبة بين كتلتي الكفر و الايمان‏ «إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» فليدافعوا هم عن ايمانهم صامدين، دون تزعزع و لا تلكع في تلكم العقبات و العقوبات و دوائر السوء المتربصة بهم، حيث اللّه هو الدافع عنهم ما لا يستطيعون، و هو القائم بأمرهم ما لا يقدرون، شرط ان يوفوا بشرائط الايمان، و يقدموا أشراطه جاهرين متجاسرين امام الكفر الطاغي أيا كان‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» و هو لا يدافع إلّا عمن يحب، ثم يذر من لا يحب في طغيانهم يعمهون، و يكلهم إلى أنفسهم‏ «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».

و ليست هذه المدافعة الربانية- فقط- كما يزعمه البطّالون ان شرعة اللّه هي للّه فهو الذي يدافع عنها، و المؤمنون باللّه هم أهل اللّه، فهو الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 123

يدافع عنهم، دون ان تكون منهم دفاع.

انها دفاع رباني بعد دفاعهم كما يستطيعون كما هنا بفاصل آية «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ...» و في البقرة «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ» (251) ثم و نفس «يدافع» دون «يدفع» لمكان المفاعلة حيث تقتضي فعل الدفاع من الذين آمنوا كما من اللّه، ان يدفع عنهم كما يدفعون، و كما الشياطين يدافعون عن غير المؤمنين كما يدفعون، و اين دفاع من دفاع، و اين مدافعة من مدافعة؟.

ثم و «كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» تأييد ثالث بالتزام شريطة الايمان الدفاع، فالمؤمن الذي حمّل امانة الايمان، عليه ان يؤديها سليمة فلا يخون، و ان يحوطه شاكرا لنعمته بنفسه و نفيسه فلا يكفر به كفرانا، إذا ف «يدافع» قدر حفظ أمانته و الشكر له، و «لا يحب» قدر الخيانة و الكفران، من ايّ كان مهما يدعي الايمان و «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ» (47: 11).

إذا فعليك الحركة و على اللّه البركة، دون بطالة للايمان و عطالة لأهل الايمان، متكلين كليا على اللّه دون ان يأتوا بشرائط الايمان، و بالصمود و الحركة اللائقة في مجالات الامتحان: «... وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ- وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (3: 168).

اجل و هذه قضية أمان اللّه لأهل الايمان في هذه المعركة الصاخبة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 124

المستمرة بين قوى الخير و الايمان، و قوى الشر و الطغيان، فالشر جامح مسلح، و هو يبطش غير متحرج، و يضرب غير متورع، و يسانده كل الطاقات الشريرة داخلية و خارجية، فلا بد- اذن- للايمان من قوة تدفعه من بطشه، و تمنعه عن طيشه، وقاية للايمان من فتنة الدوائر، و حراسة له من الأشواك في كل المحاور.

و ليست قوة الايمان في النفوس- فقط- لتكفي مكافأة و مكافاة، فللصبر حد و للاحتمال أمد، و اللّه اعلم بما في النفوس من أصالة الضعف و الطموس، فلذلك يعدهم- إن قاموا بشرائط الايمان- أن يدافع عنهم قدر ما يدافعون، و ان ينصرهم كما ينصرون: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ».

و لقد صبر المؤمنون طيلة العهد المكي وقاية لكيانهم الجديد كيلا يهدر بددا، لحد غلى مرجل اصطبارهم‏ «1» فكان يطمئنهم اللّه انه هو ناصرهم و سوف ينصرهم، و الآن و قد حان حين الدفاع الجاهر في العهد المدني، يجدد لهم وعد المدافعة، ثم يأذن لهم في الدفاع لأوّل مرة، و هم في استعداد لائق للقيام بشروطات الدفاع، إذا ف:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ 39.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المجمع كان المشركون يؤذون المسلمين لا يزال يجي‏ء مشجوج و مضروب إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و يشكون ذلك اليه فيقول لهم: اصبروا فاني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فانزل اللّه هذه الآية بالمدنية و هي اولى آية نزلت في القتال.

و في الدر المنثور 4: 363- اخرج جماعة عن ابن عباس قال: لما خرج النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن مكة قال ابو بكر اخرجوا نبيهم انا للّه و انا اليه راجعون ليهلكن القوم فنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 125

«لم يؤمر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بقتال و لا اذن فيه حتى نزل جبرئيل بهذه الآية .. و قلده سيفا «1»

فهي أول آية نزلت في الدفاع و القتال، و كل حروب الإسلام مصبوغة بصبغة الدفاع مهما اختلفت صورها و ظروفها و بواعثها، حيث يجمعها «بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا» طيلة العهد المكي، و من ثم في العهد المدني، «وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» حين هم قلة قليلة، و لكنهم و هم خارجون عن مكة، قائمون على سوقهم في المدنية، «اذن لهم» حينئذ بالدفاع- فعلا- دون الهجوم البدائي و ان لم يظلموا بل حين ظلموا و قوتلوا.

ذلك هو الذي يبرّر خوضهم للمعركة حيث هم منتدبون لمهمة انسانية كبرى، يعود خيرها إليها كلها، و لا سيما الكتلة المؤمنة المظلومة بين الكتل، ضمانا لحرية الأنفس و الأعراض و العقائد و العبادات الإسلامية حيث ظلمت و أهينت في بداية عهدها، مستمرة حتى الدفاع الصارم.

فليس الدفاع الإسلامي صراعا على عرض من اعراض هذه الأرض المتشجرة فيها الأطماع، دفاعا و حربا توسّعيا لمكسب اكثر متعة في هذه الأدنى، و إنما هي عرض الانسانية المؤمنة المظلوم في جو الظلامات.

هكذا «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ» دفاعا إذا ظلموا و قوتلوا دون افراط المتوسعين المهاجمين، و لا تفريط التنابلة الكسالى القاعدين اولي الضرر باسترخاء، نظرة ان ينزل عليهم النصر و الرخاء سهلا هينا بلا عناء، لمجرد انهم يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يرتلون القرآن ترتيلا، فانها على فرضها و رجاحتها لا تؤهلهم وحدها لحمل دعوة اللّه و حمايتها و حياطتها.

ذلك، و قد ينمو الايمان في ثنايا المعركة و هي في سبيل اللّه، كما ينمو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان و روي عن الباقر (عليه السلام) انه قال: لم يؤمر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 126

اللاايمان في ثناياها و هي في سبيل اللهو و زخرفة هذه الأدنى‏ «وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» إذا هم مضحّون في سبيله، فعليهم الحركة و على اللّه البركة و هم منتصرون قاتلين و مقتولين.

إذا فالمدافعة الربانية عن الذين آمنوا انما تتم عن طريقهم هم أنفسهم، دون لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء إلّا الدعاء.

انها حين تذوب الغايات و الحميات و إبداء الشجاعات ثم ليس كيانهم الدفاعي إلا

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» «1»

فالمقاتلون المظلومون هم:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» 40.

«أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ» ذلك تصوير لغاية الظلم، و هم قبل الإخراج كانوا في العهد المكي في كل إحراج و ارتجاج في كل متطلبات الحياة، فقد أحرجوهم حتى أخرجوهم مرة إلى الحبشة و اخرى إلى المدينة المنورة.

فالآن و قد ظلموا من قبل حتى اخرجوا ثم ظلموا من بعد أن قوتلوا، اذن لهم بدفاع صارم، حيث الصبر على الظلم مع امكانية الدفاع، هو ضيم و ظلم على ظلم، ظلم بالعقيدة و ظلم بالمعتقدين و ظلم بالآخرين حيث يعبّد عليهم طريق الظلم‏

«لا يكون مأذونا له في القتال حتى يكون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه الشيخان البخاري و مسلم في الصحيحين انه سئل رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) الرجل يقاتل حمية و الرجل يقاتل شجاعة و الرجل يقاتل ليرى فأيها في سبيل الله فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 127

مظلوما و لا يكون مظلوما حتى يكون مؤمنا و لا يكون مؤمنا حتى يكون قائما بشرائط الايمان التي اشترط الله تعالى على المؤمنين و المجاهدين فإذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى كان مؤمنا و إذا كان مؤمنا كان مظلوما و إذا كان مظلوما كان مأذونا له في الجهاد» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 502 عن الكافي في الصحيح عن أبي عمر الزبيدي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له اخبرني عن الدعاء إلى اللّه و الجهاد في سبيله اهو لقوم لا يحل الا لهم و لا يقوم به الا من كان منهم، ام هو مباح لكل من وحد اللّه عز و جل و آمن برسوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و من كان كذلك فله ان يدعو إلى اللّه عز و جل و إلى طاعته و ان يجاهد في سبيل اللّه؟ فقال (عليه السلام): ذلك لقوم لا يحل الا لهم و لا يقوم بذلك الا من كان منهم، قلت: من أولئك؟ قال: من قام بشرائط اللّه تعالى في القتال و الجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء إلى اللّه عز و جل في القتال و الجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء إلى اللّه عز و جل و من لم يكن قائما بشرائط اللّه في الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد و الدعاء إلى اللّه حتى يحكم في نفسه بما أخذ اللّه عليه من شرائط الجهاد بينّ لي يرحمكم اللّه. فقال فقال: ان اللّه عز و جل اخبر في كتابه الدعاء اليه و وصف الدعاة اليه فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها بعض و يستدل بعضها على بعض- الى ان قال- (عليه السلام) ثم اخبر تبارك و تعالى انه لم يؤمر بالقتال الا اصحاب هذه الشروط، فقال سبحانه و تعالى: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» و ذلك ان جميع ما بين السماء و الأرض للّه عز و جل و لرسوله و لاتباعهم من المؤمنين من اهل هذه الصفة فما كان من الدنيا في ايدي المشركين و الكفار و الظلمة و الفجار من اهل الخلاف لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و المولي عن طاعتهما مما كان في أيديهم ظلموا فيه المؤمنين من اهل هذه الصفات و غلبوهم عليه مما أفاء اللّه على رسوله فهو حقهم أفاء اللّه عليهم ورده إليهم و انما معنى الفي‏ء كلما صار الى المشركين ثم رجع مما كان غلب عليه او فيه فما رجع إلى مكانه من قول او فعل فقد فاء مثل قول اللّه عز و جل: فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» اي رجعوا، ثم قال: وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» و قال‏ «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 128

«أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» استثناء منقطع،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي‏ء إلى امر اللّه» اي ترجع‏ «فَإِنْ فاءَتْ» اي رجعت‏ «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» يعني بقوله: تفي‏ء- ترجع فذلك الدليل على ان الفي‏ء كل راجع إلى مكان قد كان عليه او فيه، و يقال للشمس إذا زالت قد فاءت الشمس حين يفي‏ء الفي‏ء عند رجوع الشمس إلى زوالها، و كذلك ما أفاء اللّه على المؤمنين من الكفار فانما هي حقوق المؤمنين رجعت إليهم بعد ظلم الكفار إياهم فذلك قوله: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا» ما كان المؤمنون أحق منهم.

و انما اذن للمؤمنين الذين قاموا بشرائط الايمان التي وصفناها و ذلك انه لا يكون مأذونا في القتال ... لقوله عز و جل: اذن للذين ... و ان لم يكن مستكملا شرائط الايمان فهو ظالم ممن ينبغي و يجب جهاده حتى يتوب و ليس مأذونا له في الجهاد و الدعاء إلى اللّه عز و جل لأنه ليس من المؤمنين المظلومين الذين اذن لهم في القرآن في القتال فلما نزلت هذه الآية في المهاجرين الذين أخرجهم اهل مكة من ديارهم و أموالهم أحل لهم جهادهم بظلمهم إياهم و اذن لهم في القتال.

فقلت: فهذه نزلت في المهاجرين بظلم مشركي اهل مكة لهم فما بالهم في قتال كسرى و قيصر و من دونهم من مشركي قبائل العرب؟ فقال: لو كان انما اذن لهم في قتال من ظلمهم اهل مكة فقط لم يكن لهم إلى قتال جموع كسرى و قيصر و غير أهل مكة من قبائل العرب سبيل لأن الذين ظلموهم غيرهم و انما اذن لهم في قتال من ظلمهم من اهل مكة لإخراجهم إياهم من ديارهم و أموالهم بغير حق و لو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم اهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض عمن بعدهم إذ لم يبق من الظالمين و المظلومين احد و كان فرضها مرفوعا عن الناس بعدهم إذ لم يبق من الظالمين و المظلومين احد و ليس كما ظننت و كما ذكرت و لكن المهاجرين ظلموا من جهتين ظلمهم اهل مكة بإخراجهم من ديارهم و أموالهم فقاتلوهم بأذن اللّه لهم في ذلك و ظلمهم كسرى و قيصر و من كان دونهم من قبائل العرب و العجم بما كان في أيديهم مما كان المؤمنون أحق به منهم فقد قاتلوهم بإذن اللّه تعالى لهم في ذلك (3).

بحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان و انما اذن اللّه للمؤمنين الذين قاموا بما وصف اللّه تعالى من الشرائط التي شرطها اللّه على المؤمنين في الايمان و الجهاد و من كان قائما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 129

فان القول‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» لا يحق ذلك الإخراج الإحراج، فهو- إذا- يستغرق سلب كل حق في ذلك الإخراج.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بتلك الشرائط فهو مؤمن و هو مظلوم و مأذون له في الجهاد بذلك المعنى و من كان على خلاف ذلك فهو ظالم و ليس من المظلومين و ليس بمأذون له في القتال و لا بالنهي عن المنكر و الأمر بالمعروف لأنه ليس من أهل ذلك و لا مأذون له في الدعاء إلى اللّه تعالى لأنه ليس يجاهد مثله و أمر بدعائه إلى اللّه و لا يكون مجاهدا من قد أمر المؤمنين بجهاده و حضر الجهاد عليه و منعه منه و لا يكون داعيا إلى اللّه تعالى من امر بدعاء مثله إلى التوبة و الحق و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و لا يأمر بالمعروف من قد امر ان يؤمر به و لا ينهى عن المنكر من قد امر ان ينهى عنه فمن كانت قد تمت فيه شرائط اللّه تعالى التي وصف بها أهلها من اصحاب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو مظلوم فهو مأذون له في الجهاد و كما اذن لهم في الجهاد لأن حكم اللّه تعالى في الأولين و الآخرين و فرائضه عليهم سواء الا من علة او حادث يكون و الأولون و الآخرون ايضا في منع الحوادث شركاء و الفرائض عليهم واحدة يسأل الآخرون عن أداء الفرائض عما يسأل عنه الأولون، و يحاسبون عما به يحاسبون.

و من لم يكن على صفة من اذن اللّه له في الجهاد من المؤمنين فليس من أهل الجهاد و ليس بمأذون له حتى يفي‏ء بما شرط اللّه تعالى عليه فإذا تكاملت فيه شرائط اللّه تعالى على المؤمنين و المجاهدين فهو من المأذون لهم في الجهاد فليتق اللّه تعالى عبد و لا يغترّ بالاماني التي نهى اللّه تعالى عنها من هذه الأحاديث الكاذبة على اللّه التي يكذبها القران و يتبرأ منها و من حملتها و رواتها و لا يقدم على اللّه بشبهة لا يعذر بها أ فإنه ليس وراء المعترض للقتل في سبيل اللّه منزلة يؤتى اللّه من قبلها و هي غاية الأعمال في عظم قدرها، فليحكم امرء لنفسه و ليرها كتاب اللّه تعالى و يعرضها عليه فانه لا احد اعرف بالمرء من نفسه فان وجدها قائمة بما شرط اللّه عليه في الجهاد فليقدم على الجهاد و ان علم تقصيرا فليصلحها و ليقمها على ما فرض اللّه عليها من الجهاد ثم ليقدم بها و هي طاهرة مطهرة من كل دنس يحول بينها و بين جهادها و لسنا نقول لمن أراد الجهاد و هو على خلاف ما وصفنا من شرائط اللّه عز و جل على المؤمنين و المجاهدين لا تجاهدوا و لكن نقول قد علّمناكم ما شرط اللّه تعالى على اهل الجهاد الذين بايعهم و اشترى منهم أنفسهم و أموالهم بالجنان فليصلح امرء ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك و يعرضها على شرائط اللّه فان رأى انه قد و في بها و تكاملت فيه فانه ممن اذن اللّه تعالى له في الجهاد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 130

أ ترى‏ «أَنْ يَقُولُوا» هو- فقط- قول بالأفواه و الأعمال لاهية و القلب لاه؟ ذلك القول الهازى‏ء قولة المنافقين، و هي تتطلب الإفراج دون الإخراج، بل هو قول ينبئ عن عقيدة صارمة ظاهرة في الأفعال و الأحوال على اية حال، حيث يحرج غير الموحدين لحد إخراجهم من ديارهم: «وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (87: 8).

فإذن اللّه لهم بالدفاع دفاع، و أمرهم إياهم بالدفاع دفاع، و نصرته إياهم زاوية ثالثة من الدفاع قد يعنها كلها «إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ ...» و هكذا الأمر «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ..».

فذلك الدفع يجمع مثلثه تكوينا و تشريعا، تطبيقا منهم و نصرة من اللّه، لولاه لكان مسرح الحياة كله للشر و الطغيان، دون اية مجالة للخير و الايمان‏ «وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ».

هنا «دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ» تعم الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الدفاع و الجهاد، فالناس الآخرون هم المؤمنون القائمون بشرائط الايمان في الأمر و النهي و الدفاع و الجهاد، و ليس كل الناس، ف «لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به و لا ينهى عن المنكر من قد امر ان ينهى عنه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ان ابى ان لا يكون مجاهدا على ما فيه من الإصرار على المعاصي و المحارم و الاقدام على الجهاد بالتخبيط و العمى و القدوم على اللّه عز و جل بالجهل و الروايات الكاذبة فلقد لعمري جاء الأثر فيمن فعل هذا الفعل ان اللّه تعالى ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فليتق الله امرء و ليحذر ان يكون منهم فقد بين لكم و لا عذر لكم بعد البيان في الجهل و لا قوة الا بالله و حسبنا الله عليه توكلنا و اليه المصير» أقول: الأرقام الاخرى راجعة إلى مقتطفات من الحديث فلتراجع.

(1).

نور الثقلين 3: 501 في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 131

ثم لا تختص هذه الآية بزمن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ككل الآيات حيث تحلّق على العالمين إلى يوم الدين، و «لو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم اهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض» «1».

«و بحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان» 1 و لها مجالات متدرجة منذ حروب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى الإمام علي (عليه السلام) و الحسين (عليه السلام) 3 و إلى حروب صالحة اخرى، حتى حرب القائم المهدي (عليه السلام) 4 حيث تتحقق هذه الآية حقها و كمالها الشاسع دون إبقاء لكل خوّان كفور.

«وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ‏ .. لَهُدِّمَتْ ..» و ذلك تهديم عميم لكل آثار الحق و اهله و ذكر الحق و اهله:

لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً.

تهديما لأمكنة الذكر و الصلاة لأهل الملل الثلاث و هم هامة اهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه تبارك و تعالى: الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا اللّه قال: نزلت في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و علي و حمزة و جعفر و جرت في الحسين (عليهم السلام) أجمعين و في كتاب المناقب عنه (عليه السلام) في الآية قال: نحن- نزلت فينا.

(1).

المصدر في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مكان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قوله عز و جل: اذن للذين يقاتلون .. قال: ان العامة يقولون نزلت في رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لما أخرجته قريش من مكة و انما هو القائم (عليه السلام) إذا خرج يطلب بدم الحسين (عليه السلام) و هو يقول:

نحن اولياء الدم و طلاب العترة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 132

الكتاب بل و عامتهم، اليهود و النصارى و المسلمون.

ف «صوامع» هي الامكنة الخاصة المنعزلة عن الناس لعبادة النصارى حيث تتخذ من البراري و الجبال، و «بيع» معابد اليهود و النصارى، «و مساجد» هي معروفة للمسلمين فما هي «صلوات»؟

أ هي العبادة المعروفة الخاصة بالمسلمين مقرونة بذكر أمكنتها «مساجد»؟ ام إنها صلوات كل الفرق الثلاث فان لكلّ صلاة، فحين تذكر معابدهم‏ «صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ .. مَساجِدُ» فلتذكر المعني منها كلها و هي «صلوات» فيعني تهديمها كما يناسبها من المنع عن إقامتها في محالها، ام في كل المحال مختصة و سواها، ام انها من صلوات العبرانية، أماكن عبادة اليهود، او الصابئين.

انها قد تعني كل صلة باللّه، ظاهرة و باطنة، و لأن الامكنة الثلاث او الأربع هي المحال و المحاور المعدة لعمودها الصلاة، لذلك أفردت بالذكر، و كلها تجمعها الصلاة كعبادة خاصة لكل شرعة، ثم «صلوات» تجمعها و كل صلة باللّه، فردية و جماعية اما هيه، فان دوائر السوء المستديرة على اهل الحق من طغاة التاريخ لا تبقي و لا تذر أية صلة باللّه‏ «لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ» بمختلف المدافع في مختلف الميادين و الجبهات، عقائدية و ثقافية و سياسية و اقتصادية و أخلاقية و عسكرية أما هيه، «أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ»!.

هذه، و لا سيما الصلاة الإسلامية السامية، و قد قرنت «صلوات» ب «مساجد» عناية لهذه المعنية بين كل الصلوات و المساجد عبر الشرائع طول التاريخ الرسالي.

«وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» من ينصره في نفسه تخلقا بأخلاق اللّه، و في الحفاظ على دينه دفاعا عن حرماته: مساجده‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 133

و صلواته و كل صلاته، ذلك هو الذي‏ «لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ» «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» ينصر كل قوي في ايمانه، عزيز في الدفاع عن ايمانه، و هم:

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ 41 و ترى ما هو المعني‏ «مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» حيث هو شرط الوجوب او السماح لهذه الفروع الهامة من الشرائع كلها: «اقام الصلاة- إيتاء الزكاة- الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر»؟

ان تطبيق هذه الفرائض الثلاث- كسائر الفرائض و الواجبات- مشروط بالامكانية و التمكن.

و كما انها مرحليات كذلك الإمكانيات طبقا عن طبق، فلا تعني‏ «مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» فقط تمكين السلطة الزمنية و الروحية المحلّقة على البلد الذي يعيشه المتمكنون فيه، فلا يجب- إذا- اقام الصلاة و إيتاء الزكاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر على من ليست لهم تلك السلطة! فنظرا إلى الواقع المستمر في التاريخ ان السلطات ليست الا بأيدي النمردات و الفرعنات تسقط هذه الواجبات الاصيلة عن المؤمنين العائشين تحت وطأة هذه السلطات!.

و انما تعني ان هذه الفرائض تقدّر في تطبيقاتها المرحلية بقدر الامكانيات، فإذ لا إمكانية لمرحلة عليا لم تجب على من لا يتمكنها، فانما على كلّ كما يستطيع‏ «وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ».

فهنا لك مكنة عامة تعم كافة المكلفين منذ بداية الرسالات إلى يوم الدين: «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» (7: 10) ف «ان» بالنسبة لذلك التمكين وصلية لا شرطية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 134

حيث الشرط لكل من يعيش على هذه الأرض حاضر ماثل أمامهم، مهما اختلفت امكانياتهم في تطبيق واجباتهم: «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ» (46: 26).

ثم مكنة خاصة كما كان لذي القرنين‏ «قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ..» (18: 95) حيث مكن في مطلع الشمس و مغربها، ففرضه- إذا- في مرحلة عليا قدر الإمكانية و المكنة «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ سَبَباً» (18: 84).

و كما حصل ليوسف: «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ» (12: 56) و مثلهما التمكين الموعود في الأرض للمستضعفين المؤمنين شرط ان يجنّدوا طاقاتهم و إمكانياتهم للحفاظ على الايمان: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ» (28: 6).

و ذلك الوعد مستمر التحقيق للذين يطبقون شروطه في أنفسهم، و إلى يوم القائم المهدي (عليه السلام) حيث يمكّن اللّه له و للمؤمنين معه في الأرض كلها «1» «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» (24: 55)-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 506 في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في آية التمكين، فهذه لآل محمد إلى آخر الآية و المهدي و أصحابه يملكهم الله مشارق الأرض و مغاربها و يظهر الدين و يميت الله به و بأصحابه البدع و الباطل كما أمات الشقاة الحق حتى لا يرى اين الظلم و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 135

«وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» (21: 105).

ثم و إقام الصلاة حقها له مراتب و درجات حسب الامكانيات، فإقامها كما تنهى عن الفحشاء و المنكر لفاعلها و مجتمعه الذي يعيشه هي القمة المعنية منها، و إيتاء الزكاة كما تكفي لمصلحة الدولة الاسلامية، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بحيث يحلقان على كل معروف متروك و كل منكر مفعول، هذه المرحلة من تلك الفرائض القمة تقتضي الامكانية القمة بتمكين مكين في الأرض كلها، ثم و ما دونها لما دونها، و كما ان هذه الثلاث مفروضة كذلك المحاولة للتمكن من تطبيقها حسب المستطاع مفروضة، و كما اللّه ينصر من ينصره في الدفاع عن حوزته، كذلك ينصره- و باحرى- في خلق جوّ فيه يتمكنون من ذلك الدفاع و التطبيق لشرعته‏ «وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ»- «وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» دون المتخاذلين البطالين و التنابلة المهملين.

اجل- انه النصر القائم على أسبابه و مقتضياته، المشروط بتكاليفه و أعباءه، و الأمر بعد ذلك للّه‏ «وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ».

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ 42 وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ 43 وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى‏ فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ 44.

«وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ» بسرد من نظائرهم من المكذبين السبعة كالسبعة من أبواب الجحيم المفتّحة طول التاريخ الرسالي على المرسلين، ذلك تسلية لخاطر الرسول الأقدس (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، فهؤلاء هم أشد المكذبين للمرسلين إلا ان طبيعة الرسالة الإلهية في هذه الأدنى ان تجتاز هذه المعاريض، و هي سليمة لا تزداد الا تشعشعا و تلألؤا فلست أنت بدعا من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 136

الرسل في سنة التكذيب فانها مطردة عبر الرسالات كلها.

ثم «ثم اخذتهم» تنديد شديد بهؤلاء الاغباش الأنكاد، و قد كانوا من سبقوهم أشد منهم و أقوى، أخذ شديد بعد إملاء و إمهال مديد، و أمدّهم قوم نوح ثم فرعون ثم إخوانهم «ان أخذ ربك لشديد».

و لماذا يفرد موسى في جملة خاصة بتكذيب مجهول دون‏ «قَوْمُ مُوسى‏»؟

لأنه كذبه القبط الفرعوني كأصل، مهما كذبه قومه أحيانا عن جهالة و غباوة دون فرعنة و عناد، كذبه هؤلاء و أولاء رغم آياته البينات التي هي اكثر من آيات الرسل الذين قبله! و ضخامة الأحداث التي صاحبتها، فعليك بالتصبّر يا حامل الرسالة الأخيرة لتجتاز كل العقبات و تتحمل كل العقوبات فانك موعود بالنصر كمن سبقوك من حملة الرسالات، و المكذبون موعدون بالأخذ النكير «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ»؟: نكراني عليهم عمليا في هذه الأدنى و هي ليست دار جزاء، فويلاهم إذا من الأخرى، و انه هنا نكير الطوفان و الغرق و التدمير، و الخسف و الهلاك و الزلازل و العواصف و الترويع ما يعجز عنه التعبير.

فتلك مصارع الغابرين المذكورين في صحائف التاريخ أمام الحاضرين و الآتين، إنذارا للمكذبين و تبشيرا للمؤمنين، و لهم نظائر دونهم او أمثالهم:

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ 45.

قرى كثيرة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي «أهلكناها» مساكن بساكنيها «وَ هِيَ ظالِمَةٌ» أهلها، لحد كأنها هي الظالمة بجوّها، «أَهْلَكْناها ...

فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها» و العروش هي كل السقوف القائمة على الجدران، و الأشجار الجنات القائمة على العمدان، و عرش السلطان ام أيا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 137

كان من سقوف العمران، و الخاوية هي الخالية كالمنزل الخاوي، و هي الساقطة كالنجم الخاوي، فمنها ما هي خالية عن ساكنيها على بقاء عروشها، و منها ما هي ساقطة على عروشها حيث خوت و تهدمت فخلت من ساكنيها.

ثم و كأين «من‏ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ»: لا يستفاد منها حيث هلك أهلوها «وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ» مجصّص بألوان الجصّ و أشكاله، و هي كسائر عروشها بين ساقطة مهدومة و خالية محرومة.

مناظر موحشة كئيبة تدعو إلى التأمل في صورها الخاوية و ربوعها الخربة، تستجيش للعبرة، و إلى جوارها الآبار المعطلة المهجورة الخواء، و القصور الخالية البواء، تطوف بها الرؤيا و الأشباح و الذكريات و الأطياف، و اللّه من أهلها براء!.

و قد يجري‏ «بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ» في الإمام الصامت او الغائب و «وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ» في الامام الناطق‏ «1» أهلكت هذه القرى و فيها حجج اللّه صامتة تتقي أم ناطقة تهدي أم غائبة ترتجى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 506 ف كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: البئر المعطلة الإمام الصامت و القصر المشيد الإمام الناطق‏ و مثله في معالي الاخبار باسناده إلى ابراهيم بن زياد عنه (عليه السلام) و ثالثة فيه عن نصر بن قابوس عنه (عليه السلام) و رابعة في الكافي موسى بن القاسم البجلي عن علي بن جعفر بن أخيه موسى (عليه السلام) و فيه عن تفسير القمي قال‏ هو مثل لآل محمد (عليهم السلام)

قوله‏ «وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ» هو الذي لا يستقي منها و هو الإمام الذي قد غاب فلا يقتبس منه العلم إلى وقت ظهوره‏ «وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ» هي المرتفع و هو مثل لأمير المؤمنين (عليه السلام) و الائمة منه صلوات اللّه عليهم و فضائلهم المنتشرة في العاملين المشرفة على الدنيا و هو قوله: ليظهره على الدين كله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 138

و المعنيان معنيان في ظاهر التفسير و باطن الجري و التأويل، تنديدا بمن يهلكون عطاشا و عندهم بئر، و يسكنون بواء دون ظل و عندهم قصر مشيد، فليهلكوا- إذا- بقريتهم‏ «خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها»! أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ 46 ويلهم! إن مصارع الغابرين أمامهم ماثلة، و حيالهم شاخصة موحية، تتحدث بالعبر، ما بين مرئية بالبصر و مسموعة بالخبر، «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» سيرا تاريخيا و سيرا جغرافيا، سيرا في ارض الحياة الغابرة و الحاضرة، ام ساروا دونما سمع و لا بصر من إيحاءات الأرض بآثارها من الصالحين و الطالحين، ليروا عواقب أولاء و هؤلاء هنا في الأولى، فضلا عن الأخرى.

فالسير في الأرض تحرّيا عن نبهات و اعتبارات يكون لمتحريها قلبا به يعقل، و اذنا به يسمع، آيات آفاقية بين مسموعة و مبصرة، تنضم إلى أخرى أنفسية، فتكمل الحجة بما تتبين المحجة، ارض معروضة للسامعين الذين يعقلون، و العقلاء الذين يسمعون، ارض التكوين، و ارض التدوين و أفضلها القرآن‏ «1» فانه معاريض لكل غابر و مستقبل و حاضر، و هو خير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و قد قال الشاعر في ذلك:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بئر معطلة و قصر مشرف‏ |  | مثل لآل محمد متطرف‏ |
| فالقصر مجدهم الذي لا يرتقى‏ |  | و البئر علمهم الذي لا ينزف‏ |

(1).

نور الثقلين 3: 507 في كتاب الخصال‏ و سئل الصادق عن قول اللّه تعالى‏ «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. قال: معناه او لم ينظروا في القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 139

تأريخ يخبر عن اخبار الماضين و ارض الرسالات و فاعلياتها، و ارض المرسل إليهم و انفعالاتهم، ام اي ارض هي عرض لمن يستعرض.

هناك قلوب لا يعقل بها، مقلوبة عن ان تعقل انسانيا، و آذان لا يسمع بها، صما أن تسمع انسانيا، فأصحابها لا يهتدون بهدي آياتهم الأنفسية، فليسيروا في الأرض، في معرض الآيات الآفاقية «فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها» قلوب تعقل ما تراه من حقائق، ام إذا لا تعقل في أنفسها بالمعاقل الآفاقية، «آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها» ممن يعقل، فانما الأصل ان تعقل الحقائق بالقلوب البصيرة، غير المقلوبة العمي الحسيرة «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ» الشاهدة لمشاهد الأرض، حيث ابصار العيون فاتحة «وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» و على حد المروي‏

عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ليس الأعمى من يعمى بصره و لكن الأعمى من تعمى بصيرته» «1».

فالأعمى البصر الذي له بصيرة يبصر ما لا يبصره من ليست له بصيرة، كما الأصم المفتوح اذن قلبه له سمع ليس لمن يسمع باذنه، فانما العمى عمى القلب حيث لا ينفع معها بصر العين، و البصر هو بصيرة القلب التي لا تضر معها عمى العين.

و انما الأصل في سير الأرض أيا كان آفاقيا، و سير النفس، و هو بصيرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 365- اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول و ابو نصر السجزي في الابانة و البيهقي في شعب الايمان و الديلمي في مسند الفردوس عن عبد اللّه بن جراد قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) .. و في نور الثقلين 3: 508

عن روضة الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: و أعمى العمى عمى القلب، و فيه قال ابو جعفر (عليه السلام) انما الأعمى عمى القلب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 140

القلوب التي في الصدور، فالقلوب العمي هي ميتة مقلوبة لا تنفع معها الأبصار و الآذان، حيث تسمع كحيوان و تبصر كحيوان، و هذه من صفات الدنيا «من ابصر إليها أعمته و من ابصر بها بصرته» فأصحاب القلوب العمي يبصرون إليها كغاية و نهاية فيركنون إليها، و اصحاب البصيرة يبصرون بها إلى غايتها الاخرى و نهايتها فلا يركنون إليها.

و القرآن يعبر عمن ليست له بصيرة كما هنا «وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» و انهم صم عمي: «وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً» (25: 73) «أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ» (43: 40) و أحيانا يزيد عليها البكم‏ «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ» (4: 18).

هذا- و لكنما اصل البلاء في ذلك الثالوث المنحوس هو «العمى» «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» حيث السمع مدخل لتبصّر القلب، و اللسان مذياع لما يعتقده القلب، فالقلوب العمي التي لا تحن إلى البصيرة، لا مدخل إليها سمعا فأصحابها «صم» و لا مذياع لحق فيها فأصحابها «بكم»! فقد

«تاه من جهل و اهتدى من ابصر و عقل» «1»

«و لا يصح الاعتبار الا لأهل الصفا و البصيرة» «2»

: و

«إذا أراد الله بعبد خيرا فتح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 507- في اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) ... فانها لا تعمى .... و كيف يهتدي من لم يبصر و كيف يبصر من لم يتدبر، اتبعوا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و اهل بيته عليهم السلام و أقروا بما نزل من عند الله و اتبعوا آثار الهدى فإنهم علامات الامانة و التقى.

(2)

المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) ... قال الله تعالى:

فاعتبروا يا اولي الأبصار و قال عز من قائل: فانها لا تعمى الأبصار .. فمن فتح الله عين قلبه و بصر عينه بالاعتبار فقد أعطاه منزلة رفيعة و ملكا عظيما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 141

عيني قلبه فيشاهد بها ما كان غائبا عنه» «1».

فقلب مقلوب واه، ذاهل عن التفكر في آيات اللّه فلا يعقلها، انه أعمى‏

«و شر العمى عمى القلب» «2»

و هنا معنى عجيب و سر لطيف في‏ «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ» حيث لا يعني نفي العمى عن الأبصار جملة، فقد تعمى و قد لا تعمى، و انما يعني ان الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق و اتصال الشعاعات لم يجز ألا ترى ما يرى، و لكن القلوب هي على خلافها، إذ تكون فيها آلة التفكر و النظر و هي معذلك لاهية عن النظر، متشاغلة عن الفكر، إلا من هدى اللّه.

و هنا «في الصدور» بيان لعنوان القلوب و مكانها من الأرواح، فالعقل الأول مكانه المخ، و الثاني المغربل الأصفى مكانه الصدر و هو برّاني القلب، و الثالث المصفّى مكانه القلب، فكما ان قلب الجسم هو محور حياة الجسم، كذلك قلب الروح المستكن في قلب الجسم الكائن في صدره، انه محور حياة الروح، و لا يحيى الروح الا ببصره و بصيرته، فإذا عمي فالروح ميت انسانيا و ايمانيا، مهما كانت له أحظى حظوة الحياة حيوانية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في عوالي اللئالي و قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(2)

المصدر علي بن ابراهيم في خطبة لعلي (عليه السلام) و أعمى العمى الضلالة بعد الهدى و شر العمى عمى القلب.

و

فيه عن الخصال عن علي بن الحسين عليهما السلام حديث طويل يقول فيه: ان للعبد اربع أعين عينان يبصر بهما امر دينه و دنياه و عينان يبصر بهما امر آخرته فإذا أراد اللّه بعبد خيرا فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب و امر آخرته و إذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 142

«فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها» لا عقول ام صدور يعقلون بها، رغم ان العقل هو الذي يعقل في البداية، فقد يعقل العقل و الصدر ضيق لا ينشرح به‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» فانه استيقان العقول فقط.

ام يعقل الصدر و ينشرح بما عقله العقل، و القلب بعد غير عاقل كما يحق، فهو عوان بين الكفر و الايمان، فقد يفسق و قد لا يفسق.

و اما إذا عقل القلب ما عقله الصدر عن معقول العقل، فهنالك الايمان القمة المرموقة، سواء أ كان عقله ما عقل ظنا فهو من اصحاب اليمين، ام علما فهو من السابقين و المقربين: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (2: 45) و ذلك ظن القلب عقلا راجحا فيه، دون ظن الصدر أو العقل! فلأن أبصار القلوب هي قلوب الأبصار، لذلك اختصرت هنا فيها كأنها احتصرت، فما تفيد سائر الأبصار فوائدها المرغوبة منها إلا إذا انتشأت من ابصار القلوب، فما يبصره البصر او يسمعه الأذن يتنقل إلى بصيرة العقل، و ما يبصره العقل في نفسه أم ببصر العين او الاذن يتنقل إلى بصيرة الصدر، و من ثم إلى بصيرة القلب‏ «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ» عينا و سمعا و عقلا و صدرا «وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» التي لا تنفع معها سائر الأبصار، مهما كانت ابصار العقول او الصدور فضلا عن ابصار العيون.

فالمعرفة ما لم تصل شغاف القلب فهي متقلبة، مهما اختلفت الدرجات، فإذا وصلت إلى القلب و أخذ شغافه فهنالك البصيرة التامة الطامة دون تزعزع و لا تلكع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 143

بل و عمى القلوب تصد الصدور عن الانشراح، و العقول عن التعقل، كما الإبصار عن الأبصار، فتعطّل في عماها كل الأبصار عن الإبصار «فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»! اللهم أنر ابصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، و لا تجعلنا ممن لهم‏ «قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ» (79: 9) فانها عميت و كلّت يوم الدنيا ثم‏ «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47)- «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (32: 5).

و ترى كيف تتجاوب الآيتان هاتان و آية المعارج: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً، يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ ...» (6- 9)؟ فأين الف سنة من خمسين الف سنة! علّ المعني من ألف الحج انه في شدة العذاب كألف سنة مما تعدون اي 355000 ضعفا، فلما ذا يستعجلون العذاب و كل يوم منه عند ربك في شدته كذلك الضعف الهائل.

ثم و الف السجدة- علّه- هو واحد الزمان لعروج الأمر اليه عند الساعة، فقد يعني انه يعرج امره اليه في واحد من الزمان قدر ما كان يفعله يوم الدنيا من تدبير الأمر في الف سنة مما تعدون، فالف الحج يصّور شدة العذاب، و الف السجدة تصوير لسرعة النفاد، و عل الألفين- كل فيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 144

يعنيه- هما تصويران للكثرة الهائلة، و الألف تعبير عن الكثرة، دون تحديده بحده، ام و بهذا الاعتبار يعني ان‏ «يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ‏- و- كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» على سواء حيث الزمان لا يبعّد له قريبا و لا يقرب بعيدا، فسواء استعجل في عذابهم ام استاجل فهما عنده سيان.

ام لأنهما سيان عنده في قدرته و علمه فان أخّركم الف سنة مما تعدون فكأنه أخركم يوما، فان بعد الزمان ليس بعيدا عنده، فلما ذا تستعجلون في العذاب؟

و خمسون الف المعارج مفصلة في المعارج بتفصيل منقطع المثيل في الفرقان قدر المستطاع من التحصيل، و علّ اللّه يحدث بعد ذلك امرا «وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»! و على أية حال فذلك الاستعجال ليس من صالحهم او تعجيزا لرب العالمين فلما ذا يستعجلون؟

و ليس اللّه ليعجّل باستعجالهم ام يؤجّل باستأجالكم، و انما يعجل من يخاف الفوت، و ليس املاءه الظالمين الا امتحانا و مزيد بلاء:

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ 48 فلما ذا يعجل و هم في قبضته و اليه مصيرهم عاجلا ام آجلا على سواء: «وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ»؟! قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏ 49.

لست ربا و لا أن الأمر بيدي حتى تستعجلوني بالعذاب ام تستأجلون و «إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ» من ربي كما أنذر «مبين» في انذاري كما أبين فما ذا تطلبون!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 145

انما انا رسول و ليس لي من الأمر شي‏ء! ممحّض كياني بالنسبة للكل اني نذير، ثم للمهتدين بشير، و من بشارتي و نذارتي:

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (50).

وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (51).

«لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» من اللّه عما اخطأوا «وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» و هو جنة النعيم‏ «وَ الَّذِينَ سَعَوْا» مسرعين‏ «فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ» يصارعونها سراعا لإبطالها بكل سرعة «أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ».

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ‏ 52.

هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين المسلمين و سواهم من مستشرقين طاغين بها و باضرابها من متشابهات في ذلك الدين المتين و رسوله النبي الأمين، فقد أثاروا حولها عجاجة من القيلات التي هي ويلات على هذه الرسالة السامية و على كل الرسالات، و سانده جماعة من المسمّين مسلمين ظاهرين بمظاهر المفسرين و المحدثين‏ «1» حيث تناقلوا مختلقات و ثنيات، ام إسرائيليات و كنسيات جهلا او تجاهلا، قصورا او تقصيرا بحق القرآن العظيم.

و لو ان هذه الفرية الجاهلة القاحلة على هذا الرسول (صلى اللّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد أحدث رواة من الفريقين احدوثة كاذبة حول الآية، فرواة من العامة تناقلوا حديث الغرانيق، و آخرون من الشيعة تناقلوا حديث «محدث» في الآية كأنها ساقطة عنها، و الكل محجوجون بالقرآن و السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 146

و آله و سلم) ثبتت انه قال: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى، تجلّبا لخواطر المشركين، اختلاقا و ثنيا يناقض جذور الرسالة التوحيدية، لكانت إذا فاشية في كافة الرسل و النبيين، حيث الآية تعم مادة الفرية المتخيلة لكل رسول و نبي دون إبقاء.

و لكن الآية نفسها، بعسكر مجنّد من آيات سواها و براهين اخرى معها، تذود هذه الوصمة الوقحة عن ساحتها و ساحة الرسالة السامية، لو ان الناظر إليها تأملها كما هيه، دون تحميل للآراء و الروايات عليها.

فالذي يبدو أولا من وجه الآية صارحة انها تعرض سنة رسالية شاملة لا تشذ عنها أية رسالة صغيرة و لا كبيرة «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ ...» و طبيعة الحال في السنة الرسالية على اية حال ان تكون بمصلحة الدعوة، دون خصوص الداعية، او مصلحية الرعاية لناكريها المعارضين، فانها ليست تجارة تحلّق عليها المصلحيات الخاوية من مكائد و أكاذيب و احتيالات، فانها تملك من البراهين القاطعة أقواها و من السبل الجادة اعبدها و أصفاها، دونما حاجة إلى سياسات زمنية تحوم حولها شيطنات و إغرائات، فلا تجد في قاموس الدعوات الرسالية شيئا من هذه المصلحيات القاحلة التي يعبدها أصحابها كاصنام، و هي من الأخطار الهامة في الدعوات الحقة انحرافا عن نهجها السليم المستقيم غير الملتوي، و انجرافا إلى هوّات السياسات الإبليسية التي يلعب بها الساسة الزمنيون.

فلا مسايرة في الرسالات الإلهية و لا أنصاف حلول بجعل البلد شطرين، و الدعوة في واجهتين، فانما هي شطر واحد منذ بدايتها إلى ختامها، صدقا صارما دونما خليط، حتى في لفظة قول مهما كانت ثورية و تقية، و إليكم البحث و التنقير حول ألفاظ الآية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 147

«مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ» و هما هنا مرسلان‏ «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ» ذلك دليل افتراقهما في بعض الشؤون مع الاشتراك في اصل الرسالة، و ذكر «نبي» بعد «رسول» مما يجعله في قمة أعلى من اصل الرسالة و كما في آيات عدة: «وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا» (19: 51) و 54) في موسى و إسماعيل، و «الرَّسُولَ النَّبِيَّ» (7: 158) في محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و لو كان كل رسول نبيا لكان ذكر «نبيا» بعد «رسولا» زائدا بائدا، إلا ان تكون النبوة مرحلة راقية من الرسالة و كما تلوح من آياتها.

و عل الروايات المعاكسة بينهما تعني النبوءة من النبإ، دون النبوّة من النّبوة و الرفعة: «نبي منبئ في نفسه لا يعدو غيره ..» و حين يخاطب يا نبي‏ء اللّه يرده قائلا: لست انا نبي‏ء اللّه، انا نبي اللّه.

إذا «مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ» يحلّق على كل اصحاب الرسالات بدرجاتهم، من مرسل دون كتاب او بكتاب، من رسالة هامشية بكتابها كغير اولي العزم ام رسالة اصلية كهؤلاء الذين دارت عليهم الرحا و هم اصول النبوات و قواعد الرسالات.

إذا ف «إذا تمنى» تشملهم كلهم في التمنيات الرسالية، التي تحصل أحيانا منها دون كل ادوارها لمكان «إذا».

ثم التمني هو تقدير وجود المحبوب، و صورته قبل حصوله عند المتمني هي أمنيته و أصله المني: التقدير، و تمنيات الرسل هي بطبيعة الحال التمنيات الرسالية تقوية لها و تطبيقا بعد حصولها، و تلك التمنيات بما هي مصحوبة بمحاولات لتحققها تعرقل في مسيرها و مصيرها بإلقاءات الشيطان من جن و انسان، و كما تعرقل أصل الرسالات منذ بزوغها، و كلما ازدادت انتشارا و تقبلا و ازدهارا ازدادت ضدها العرقلات‏ «فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 148

الشَّيْطانُ» في تمنيات و دعوات او كتابات الرسل‏ «ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ» الملقاة فيها ما يناحرها «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ» تلك الالقاآت «حكيم» في تحقيق تمنيات الرسل نسخا لما يلقي الشيطان.

و لقد حصلت هذه الإلقاءات الشيطانية كلها في كل الرسالات، خلقا لأجواء معرقلة دونها، و تضليلا لمن لا يحن إلى الايمان تمام الحنان، و إلقاء في كتاباتهم تحريفا و تجديفا، و لكن الشرعة الاخيرة سليمة من ذلك الأخير.

إذا ففي ذلك العرض الشامل تسلية لخاطر الرسول الأقدس (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه هو الذي ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته.

و هكذا نرى كل كتاب رسالي ينسخ التحريفات التي ألقيت فيما قبلها من كتاب‏ «1» حتى وصل الدور إلى القرآن فأصبح مهيمنا على كافة كتب الوحي.

و نرى ان الأجواء المضلّلة الملقاة من الشياطين تتبدل صالحه هادية زمن الرسل و بعد كل رسول برسالة تالية و تأييدات ربانية، و القلوب المزعزعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 102- عن الاحتجاج للطبرسي في حديث عن امير المؤمنين (ع) قال: فذكر عز اسمه لنبيه ما يحدثه عدوه و في كتابه من بعده بقوله‏ «وَ ما أَرْسَلْنا ..» يعني انه ما من نبي يتمنى مفارقة ما يعانيه من نفاق قومه و عقوقهم و الانتقال عنهم إلى دار الاقامة الا القى الشيطان المعرض بعداوته عنه- عند فقده- بعده في الكتاب الذي انزل اليه ذمه و القدح فيه و الطعن عليه فينسخ اللّه ذلك من قلوب المؤمنين فلا تقبله و لا تصغى اليه غير قلوب المنافقين و الجاهلين و يحكم اللّه آياته بان يحمي أوليائه من الضلال و العدوان و متابعة اهل الكفر و الطغيان الذي لم يرض اللّه ان يجعلهم كالأنعام حتى قال بل هم أضل سبيلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 149

بهذه الإلقاءات تثبت على ما كانت من الايمان و اليقين شرط ان تنحو منحى الإيمان و اليقين، و ذلك هو النظر الموعود للرسل و المؤمنين:

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (37: 172).

فليست امنية الرسل هي فقط آيات الوحي الرسالية حتي يفسّر إلقاء الشيطان فيها بزيادة عليها، فانها حاصلة دفعة واحدة ام تدريجية طيلة كل رسالة دون حاجة إلى تمنّ، ف «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» ليست من تلك الإلقاءات في آيات الوحي المحمدي، بل هي من إلقاءاته على مختلقيها، مردودة إليهم و مضروبة عرض الحائط، حيث تضاد طبيعة الرسالة و لا سيما هذه الأخيرة السامية.

و تراه كيف ينطق هكذا عن أضل الأهواء الشركية «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» (53: 4) تصون تنطقاته كلها كتابا و سنة عن كل هوى حتى العقل، حاصرا لها في وحي يوحى؟! ام كيف يتقول على اللّه هكذا «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (69: 46) و لم نره حينا ما مقطوع الوتين او مأخوذا باليمين، إلا في مزيد من التامين المكين، و التأييد الرصين!: «قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ» (10: 25) ثم‏ «وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا. وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74) هذه، تجتث عنه جذور هذه الفتن، و المسايرة بها ليتخذوه خليلا كما افتراه عليه مختلقو الغرانيق العلى!.

ثم اللّه ضمن له ألّا ينسى الوحي فلا يزيد عليه و لا ينقص منه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 150

«سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏» (87: 6) و ليست أمثال قصة الغرانيق الا من سلطان الشيطان شر سلطان، و ليس الا على الغاوين: «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ» (15: 42) «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (38: 82) و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو من أخلص المخلصين، و هو أول العابدين.

و فرية الغرانيق تعارض هذه الآيات و طبيعة الرسالات، و تكذب هذه التضمينات و الصيانات لأبعاد الرسالات، فهي باطلة متنا مهما كثرت فيها الروايات، كما هي ضعيفة سندا، حيث رواها المطعون فيهم، و حتى لو صحت أسنادها فهي كاذبة المتون لمعارضة القرآن، و ان الآية نفسها لا تتحملها.

هؤلاء المختلقون هم من اعداء الرسل و كما قال اللّه: «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» (25: 31) «وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً. وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ. وَ لِتَصْغى‏ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ» (6: 113) و الافئدة هنا هي القلوب المتفئدة بنيران النكران حيث تستزيد نكرانا على نكران.

فإيحاء زخرف القول غرورا منهم هو- فقط- إلقاءهم، سواء في الأجواء و القلوب، ام في كتب السماء، و القرآن مصون عن ذلك الإلقاء، ثم لا تصغى إلى زخرفاتهم إلا «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ».

و لماذا «أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إذ «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» ثم اللّه لا يصد عن ذلك الإلقاء الزخرف؟:

لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 151

قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ 53-:

«وَ لِتَصْغى‏ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ..»

فذلك- إذا- بالنسبة للقاسية قلوبهم و المرضى الناكرين للآخرة، امتحان الامتهان ليزدادوا مرضا على مرض و نكرانا على نكران، و كما «إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ».

و هو في نفس الوقت مزيد علم و ايمان لاولي العلم و الإيمان‏ «فَيُؤْمِنُوا بِهِ» اكثر مما كان‏ «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» ايمانا فوق ايمان، حيث الايمان يتبلور بالامتحان، فلما يرى المؤمنون تلك العرقلات الشيطانية ضد الدعوة القرآنية و اضرابها، يتأكدون أكثر مما كان‏ «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».

إذا فليس ما يلقي الشيطان فتنة إلا للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم و الذين لا يؤمنون بالآخرة، و لو كان ذلك الإلقاء مثل ما يفترى على رسول الهدى من قصة فرية الغرانيق لكان هو (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه من هؤلاء المرضى الكافرين، خارجا عن الذين أوتوا العلم! بل هو خارج عن القبيلين حيث المرسلون هم ملي‏ء العلم و الايمان و الإخبات إلى ربهم، لولاها لما أرسلوا إلى العالمين، فلقد اجتازوا مراحل الإخلاص من العلم و الإيمان باللّه و الإخبات للّه حتى أخلصهم اللّه و اصطفاهم على علم على العالمين: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ» (22: 75) «وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ» (38: 47) «وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى‏ عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ» (44: 32).

انهم عليهم السلام كلهم خارجون عن ذلك الثالوث المنحوس، و حتى عن اولي العلم المتدرجين إلى ايمان الإخبات، فهم في قمة الإسلام بعد ما اجتازوا درجات الايمان و الإخبات إلى ربهم فاصطفاهم ربهم على العالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 152

«إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ» بينهم و بين الحق، فليسوا ليكتفوا بنفاقهم العارم و كفرهم الصارم، فيستزيدون نفاقا على نفاق و كفرا على كفر بما يلقي الشيطان، صاغية اليه افئدتهم‏ «وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ»- «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82) «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 20).

«لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» هم مرضى القلوب لعدم استقامتها في التعقل، فلا تذعن بما به يذعن إذا استقامت و صحت القلوب، ثم تقسوا لحدّ لو أرادت الإذعان لما تيسر لها حيث ختم اللّه عليها بكفرهم و هم‏ «الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» و يجمعهما «الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» حيث تصغى إلى ما يلقي الشيطان و ليرضوه و ليقترفوا ما هم مقترفون‏ «وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ» و هم هؤلاء الصاغون اليه‏ «لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ» غارقون فلا ينجون، و اصحاب الشقاق القريب قد ينجون، ثم الرفاق للحق المحتارون الفاحصون عنه أولئك هم يؤمنون:

وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏ 54.

ان المهديين إلى صراط مستقيم هم الراسخون في العلم، و يتلوهم‏ «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» حيث الامتحان يستدرجهم إلى الرسوخ في العلم فالى صراط مستقيم، حيث العلم هنا هو الايمان على بينة فانه مغزى المعرفة باللّه دون العلم فقط، و هكذا «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ ..» (3: 18) «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» (29: 49) «وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ» (34: 6) «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 153

(58: 11).

ذلك هو العلم الذي يزيد في الايمان و يحقّق الإخبات إلى الرب و «انه» ما يتمناه الرسل و هي مادة الرسالة أصلا و تطبيقا و خيرها أخراها و هي الرسالة الاخيرة. «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» لا سواه، و ان ما يلقي الشيطان هو الباطل‏ «فَيُؤْمِنُوا بِهِ» بالحق «فتخبت له لله «قلوبهم» حيث يصبحون لهم رفاقا في أمنياتهم دون فراق و لا شقاق، متسابقين إلى مزيد الايمان في ميدان السباق‏ «وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»! و هنا في محتملات المراجع لضمير الغائب «انه- به- له» وجوه عدة، فقد يرجع الاول إلى ما يتمناه الرسل‏ «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا» بالحق «فتخبت له»: الحق الرب «قلوبهم» ام إلى خير ما يتمنونه و هو الوحي الأخير «القرآن» ماثلا فيه الحق كله، ممثلا لكل أمنيات الرسالات‏ «فَيُؤْمِنُوا بِهِ»:

القرآن‏ «فَتُخْبِتَ لَهُ» القرآن- او- منزّله «قلوبهم»، «وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» قد يقوّم كون المرجع هو الصراط المستقيم، فانه أمنية الرسل كلهم، ف «انه الحق» نفس الصراط المستقيم، «فَيُؤْمِنُوا بِهِ» بالصراط، ام- و باحرى- صاحب الصراط و هو اللّه‏ «فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» او ان نسخ ما يلقي الشيطان او جعل ما يلقي الشيطان فتنة «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ».

اجل انه ليس للشيطان إلقاء الا بإذن اللّه تخييرا دون تسيير امتحانا للمكلفين‏ «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ».

كما و ان نسخه بعد سماح الإلقاء «أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» إلقاء «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ..» و إلقاء و نسخ‏ «لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..».

و لان قرآن محمد و محمد القرآن هما الصراط المستقيم القمة، تعريفا باللّه و معرفة باللّه و تجسيدا لشرعة اللّه، فالحق من ربك هو القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 154

و رسوله، و إخبات القلوب ليس إلا إلى الرب: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ» (11: 23) «فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» (22: 34).

هذه قضية العلم و الايمان في كتلة العلم الايمان، ان ما يلقي الشيطان لا يزيدهم الا نورا:

وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ‏ 55.

هؤلاء في مزيد الإيمان و إخبات القلوب، و أولاء «فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ»:

الحق- أيا كان، فإنهم في شقاق بينهم و بين الحق أينما حلّ‏ «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» و هي ساعة الموت‏ «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» و هو ساعة القيامة الكبرى، و الآخرون هم الذين تقوم الساعة في حياتهم الدنيا، و الأولون في حياتهم البرزخية، فهذه الكتلة الكافرة لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم قيامتهم الصغرى أو الكبرى، و هم في هذه الساعات أحياء لم تفدهم حياة التكليف إيمانا إلا مرية.

«الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا هم عامة كفار التاريخ الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» في حياة التكليف‏ «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً» بمباغتة الموت حيث لا ينفع الايمان‏ «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» و هو اليوم الآخر.

فتفسير الساعة بالقيامة تفسير عقيم، إذ لا تبقى المرية حتى القيامة لمن مات قبلها «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»! حيث تكشف الحقائق فلا تبقى أية مرية الا زالت مهما لم ينفع الايمان لمن لم يؤمن من ذي قبل.

فانما الساعة هي ساعة انقضاء التكليف بقيامة صغرى هي الموت، ام كبرى هي الكبرى، و قد يعني «عقيم» انه لا ينفع فيه عمل و لا ايمان، و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 155

يوم بعده فانه اليوم الأخير خلاف اليومين الأولين، و انه لا رجوع فيه عنه إلى حياة التكليف، و قد كان بالإمكان من قبل و ان بصورة خاصة كما يرجعون يوم الرجعة و قد رجع قبلهم افراد و جماعات.

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ 56 وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ‏ 57.

«الملك» كله، ظاهره و باطنه، إذ كان لهم الملك قبل «يومئذ» استخلافا ظاهرا و عارية مضمونة «وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ‏ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ..» (57: 7).

ظاهر كأن يتظاهر لأهل الظاهر أنه لمن يملك ظاهرا و باطنا، و «يومئذ» يعلمون انه كان للّه و لم يكن لهم إلا ظاهر مستخلف فيه ابتلاء و امتحانا.

«يومئذ» حين انقضاء التكليف برزخا و قيامة، إذا ف «جنات النعيم و عذاب مهين» تعم النشأتين مهما اختلفت جنات عن جنات و عذاب من عذاب.

[سورة الحج (22): الآيات 58 الى 78]

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (65) وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (66) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى‏ هُدىً مُسْتَقِيمٍ (67)

وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (68) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (72)

يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (73) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (75) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (76) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77)

وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (78)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 158

في هذه الآيات تعقيبات لما سلفت من الاذن في القتال، مهاجرة في سبيل اللّه مع وعد النصر في ختام بأمر الجهاد حق الجهاد و اعتصام باللّه‏ «وَ نِعْمَ النَّصِيرُ».

و المهاجرة في سبيل اللّه- و حياة المؤمن كلها مهاجرة- هي تجرّدة كاملة شاملة من كل ما تهفو له النفس في سبيل غير اللّه، إيثارا لتلك السبيل على كل سبيل.

و لا تعني المهاجرة هنا- فقط- ترك الوطن السكن إلى سواه كما حصل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 159

مرتين في مكة المكرمة، تارة إلى الحبشة و اخرى إلى المدينة، حيث المهاجرة في اللّه لا تحمل معها صورة خاصة، و لا سيما ان السورة مدنية و قد تمت تلك المهاجرات الخاصة، و انما تعني التباعد عن كل ما يعرقل المسير في سبيل اللّه، و أهمه المهاجرة الأنفسية، ثم الافاقية هي من مظاهرها، فقد تقتضي الهجرة عن ارض الوطن، و اخرى البقاء في ارض الوطن، كما قد تنتهي إلى القتل و اخرى إلى الموت.

و من ميّزات هذه الآيات ان تسعا منها متتالية تحمل ثمانية عشر من اسماء اللّه تعالى، تختم كل واحدة باسمين من اسماء اللّه الحسنى بعد الجلالة: و ان الله لهو خير الرازقين- العليم الحليم- العفو الغفور- السميع البصير- العلي الكبير- اللطيف الخبير- الغني الحميد- الرؤوف الرحيم، أحياكم ثم يميتكم».

و هذه ظاهرة منقطعة النظير في الذكر الحكيم، مما يدل على عظم الموقف للمهاجرين في سبيل اللّه:

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ 58 لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ‏ 59.

هنا «هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» هو الأصل‏ «ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا» دون تفاضل، فقد يقتل في سبيل اللّه، و قد يقتل ثم يموت، ام لا يقتل و لا يقتل ثم يموت، و المهاجر في سبيل اللّه هو في ايّ من هذه الحالات الثلاث على سواء في‏ «لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً» بعد القتل او الموت، و هو حياة طيبة عند اللّه، ممتازة عن سائر الحياة لسائر القتلى او الأموات الذين لم يهاجروا في سبيل اللّه، ثم لم يقتلوا او يموتوا في سبيل اللّه، مهما كانوا مؤمنين، فان المهاجرة في سبيل اللّه تصبّغ القتل او الموت بنفس الصبغة الإلهية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 160

«صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ» (2: 138).

إذا فلا يفضّل القتيل في سبيل اللّه على الميت في هذه السبيل و يفضّل ذلك الميت على القتيل في غير هذه السبيل‏ «1» و

قد سمع سلمان الفارسي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: من مات مرابطا اجرى اللّه عليه مثل ذلك الأجر و امن الفتانين، و اقرؤا ان شئتم‏ «وَ الَّذِينَ هاجَرُوا- الى قوله- حَلِيمٌ» «2»

بل و الآيتان نزلتا بشأن الميت في هذ السبيل‏ «3».

و هذه التسوية هي قضية «إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» حيث المفاضلة هنا خلاف الخير، كما هي قضية انه «عليم» بأحوال المهاجرين في سبيل اللّه، و لو كان بينهم تفضيل فهو على حدّ السبيل، و انه «حليم» بعباده، فلا يختص رزقه بخصوص القتل في سبيله، حيث الأصل هو المهاجرة في هذه السبيل، فمن يعيش حياته مهاجرة في سبيل اللّه، فهو من اهل هذه الآية على قدر نصيبه من هذه السبيل: «وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (4: 100).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 369- اخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الانصاري الصحابي انه كان برودس فمروا بجنازتين أحدهما قتيل و الآخر متوفى فمال الناس على القتيل فقال فضالة: مالي ارى الناس مالوا مع هذا و تركوا هذا؟

فقالوا: هذا القتيل في سبيل اللّه، فقال: و اللّه ما ابالي من اي حفرتيها بعثت اسمعوا كتاب اللّه: «وَ الَّذِينَ هاجَرُوا ..».

(2) المصدر اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ....

(3)

في جوامع الجامع و روى‏ انهم قالوا: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم اللّه من الخير و نحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك، فانزل اللّه هاتين الآيتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 161

فهنا الموت و هو أعم من القتل، و هناك القتل او الموت، مما يدل على ألّا فارق بينهما ما هما مشتركان‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» اللهم إلا تفارقا في درجات السبيل، فقد يفضل قتيل على ميت او قتيل، او ميت على ميت او قتيل‏ «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

ذلك ترغيب عام هام بالنسبة للمهاجرة في سبيل اللّه، و لان طبيعة الحال في حياة المهاجرة ان يتربص بها دوائر السوء، يتلوه وعد النصر:

ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60).

فهذه ضابطة عامة هي السماح في المعاقبة بالمثل في سبيل اللّه، و أما المعاقب في غير سبيل اللّه فلا سماح له بالمثل إذا كان تأديبا ام ردّة فعل لما أخطأ، اللهم إلا من ظلم.

فالمعاقب بالمثل إذا بغي عليه، انه موعود بالنصر، حيث عوقب في سبيل اللّه، و عاقب بالمثل بإذن اللّه، فاذن: «لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ».

أ ترى ما هي الصلة بين وعد النصر لمن بغي عليه و بين عفو اللّه و غفره؟ علّه بمناسبة شأن النزول حين دافع سرية الرسول في الشهر الحرام عن أنفسهم فتحرجوا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 369- اخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال: ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا اصحاب محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإنهم يحرمون القتل في الشهر الحرام و ان اصحاب محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ناشدوهم و ذكروهم باللّه ان يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام الا من بدأهم و قاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم و نصرهم اللّه عليهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 162

ثم المعاقبة بالمثل مسموحة كضابطة و ليست واجبة الا أحيانا، و هي مرجوحة اخرى على سماحها، «وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» (42: 40) «وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» (16: 126).

كيف لا «فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (5: 3) فالغفر شامل حتى موارد السماح بالاضطرار فضلا عن غير الاضطرار مهما كان مسموحا، حيث الأصل المحلّق على كل الأصول هو التغامض عن المعاقبة بالمثل، ما كان دفعا للسيئة بالحسنة «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ» ام دون دفع ما لم يخلّف تطاولا من الظالم عليه و على من سواه من المظلومين علّه ينتبه.

فقد يبتلى المؤمن بالمعاقبة بالمثل و الظرف ظرف رجاحة العفو و الإصلاح، فالنصرة الإلهية تشمله كظروف الرجاحة و الوجوب‏ «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» عن مثل ذلك اللمم.

ثم الغفر لا يختص برفع اثر العصيان بعد ما كان، بل و دفع العصيان عن المعفو، من نفسه ام سواه، فحين يعاقب المؤمن بالمثل ثم يبغى عليه يعفو اللّه عما فعل و يغفر له دفعا عنه من نفسه ام سواه عن التطاول، حيث المعاقبة تخلّف تطاولا طائلا من المعاقب عليه و اللّه يغفره و يستره عن المظلوم‏ «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» تتبع في معناها موارده، و هذه المعاني معنية حسب الموارد المختلفة.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ 61.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 163

إيلاج الليل في النهار و إيلاج النهار في الليل سنة كونية تشبه هذه السنة الشرعية و الكونية في المعاقبة بالمثل، فكما ان اللّه يولج كلّا في الآخر كظاهرة طبيعية تمر بالبشر ليل نهار و صيف شتاء، فلا تطاول لليل على نهار ام لنهار على ليل، اللهم إلا تساويا لردح قصير في ليال و انهار، مصلحة دائبة قد تخفى على الناس.

كذلك الأمر بين المتعاقبين، سماحا تكوينيا لمن يظلم، ثم سماحا شرعيا في معاقبته بالمثل، ثم نصرة للمنتصر بعد ظلمه إذ بغي عليه‏ «وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» قيلات المعترضين، و مقالات المظلومين «بصير» بحالات أولاء و هؤلاء، فلا يعاملهم في احكامه التكوينية و التشريعية الا بالعدل، كما يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل، قصرا في كلّ و مزيدا في الآخر كمصلحة كونية و ناموس مطّرد طبيعي، كذلك اللّه يفعل بخلقه‏ «وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ ..».

هنا الليل- علّه- كناية عن ليل الظلم على المظلوم، و النهار هو الظالم، حيث يصيب من حق المظلوم انتقاصا منه، ثم يولج النهار في الليل، معاقبة بالمثل المسموحة للمظلوم، ايلاجا لكلّ في كلّ على سواء فكما الليل يزوي سلطان النهار، كذلك ليل المظلومين يزوي بظلامه سلطان المتجبرين و ينشر سلطان المؤمنين المظلومين.

و فيما نراه لا يعاقب الظالم بمثل ما ظلم واقعيا مهما كان الحكم هكذا شرعيا، و هو الاكثرية الساحقة من الظلامات؟ فالنشأة الآخرة هي المجالة الاخرى الوافية الموفية لذلك الانتصار، «لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ» ليست لتختص بالأولى، و الآخرة خير و أبقى، و قد جمعت النصرة للحسين (عليه السلام) بين النشأتين، فهنا النصرة لمرامه و مرماه حيث يقود مدرسة الشهادة و النضال في سبيل اللّه، مستمرا به القتال ضد الفرعنة اليزيدية الاموية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 164

طوال التاريخ.

ثم نصرة ثانية عالمية بولده القائم المهدي (عليه السلام) «1» ثم في الآخرة النصرة الأوفى‏ «وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏». فعلى المظلوم ام له ان ينتصر، و هو منصور هنا ام في الاخرى ام فيهما كما وعد اللّه، و الآخرة أوفى فانها هي دار الجزاء.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ 62.

«ذلك» العدل و التعديل في التكوين و في التشريع، دونما تخلّف هنا او هناك قيد شعرة «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» فلا يأتي منه إلا الحق، بحكم العلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 518 في تفسير القمي و اما قوله عز و جل‏ «ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ ..» فهو رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لما أخرجته قريش من مكة و هرب منهم إلى الغار و طلبوه ليقتلوه فعاقبهم اللّه تعالى يوم بدر و قتل عتبة و شيبة و الوليد و ابو جهل و حنظلة ابن أبي سفيان و غيرهم فلما قبض رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) طلب يزيد بدمائهم فقتل الحسين و آل محمد صلوات اللّه عليهم بغيا و عدوانا و ظلما و هو قول يزيد حين تمثل بهذا الشعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ليت اشياخي ببدر شهدوا |  | جزع الخزرج من وقع الأسل‏ |
| لأهلّوا و استهلوا فرحا |  | ثم قالوا يا يزيد لا تشل‏ |
| لست من خندف ان لم انتقم‏ |  | من بني احمد ما كان فعلى‏ |
| قد قتلنا القرم من ساداتهم‏ |  | و عدلناه ببدر فاعتدل‏ |
| و كذاك الشيخ اوصاني به‏ |  | فاتبعت الشيخ فيما قد سال‏ |

فقال اللّه تبارك و تعالى‏ «وَ مَنْ عاقَبَ» يعني رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ» يعني الحسين (عليه السلام) أرادوا ان يقتلوه‏ «ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ» يعني بالقائم صلوات اللّه عليه من ولده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 165

و القدرة و الحكمة البالغة، العادلة الفاضلة، «وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» من آلهة و احكام «هو الباطل» متأرجفا في الحكم، «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» عليّ عن ان تناله الأوهام، و من تطاول في الأحكام، و كل ما لا يناسب ساحة الرب الملك العلام، ف «هو العلي» لا سواه، و هو «الكبير» في علوه لا سواه، فرب علي غير كبير، علوا جعليا مؤقتا، او استعلاء دون حق، «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» لا يأتي منه إلا الحق العالي الكبير.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ 63.

و كما هنا الأرض الموطوءة بالأقدام، اليابسة الواطئة تحت الأقدام، تصبح مخضرة بماء السماء، كذلك اللّه يفعل بالمظلومين المحطمين حيث ينزل ماء الحياة النصرة إليهم تكوينا و تشريعا في الاولى، و انتصارا وافيا في الاخرى، كما و ينتصر لهم أحيانا في الدنيا، و في آخر احيانها يوم المهدي (عليه السلام) «وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏» حين تصبح ارض المستضعفين مخضرة بماء الرحمة و القوة و السلطة العالمية.

و لماذا «تصبح» مستقبلا استمراريا بعد «انزل» ماضيا؟ حيث ان اخضرارها نتيجة متاخرة عن إنزال ماء السماء، هي في نفس الوقت مستمرة حيث الماء النازل إليها هو نصيبها الدائب، مهما يتبخر صاعدا و يرجع نازلا على طول خط الحياة الارضية، و هكذا اللّه يفعل بالمستضعفين المؤمنين، ثم الانتصار الوفي في دولة المهدي (عليه السلام) و من ثم الأوفى في الاخرى» وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏، وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏ ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» (53: 39- 40).

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ 64.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 166

«له» ملكا و ملكا، قدرة و علما، إيجادا و اعداما، خلقا و تدبيرا «ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» صيغة رائجة عن الكون كله، و هما يشملان ما بينهما و ما عليهما «وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ» لا سواه «الغني» دون فقر «الحميد» بكل مدح و دون اي ذم و قدح، فطبيعة الغنى لمن سوى اللّه هي الطغيان‏ «إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى‏ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى‏» و هي في الحق أفقر من كل فقر، فغناه تعالى كسائر صفاته رحمة كلها.

فالغني قد يكون ذميما حيث يطغى، ام لا ذميم و لا حميد و هو الذي يتاجر بغناه، فإذا أنفق يرجو منه عائدة مادية ام روحية، ام هو حميد إذ لا ينتفع بما ينفق و هكذا اللّه دون من سواه، فانه «الغني» المطلق «الحميد» المطلق، دون حاجة في غناه و لا لؤم.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ‏ 65.

«الم تر» يا رسول الهدى، أم أي راء كان، رؤية العلم و الاحساس‏ «أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ» من جماد و نبات و حيوان، مما يرى و ما لا يرى، ما على ظاهر الأرض سطحا او جوا، برا او بحرا، ام في باطنها، تسخيرا بعلم موحى ام مستفاد، و بقدرة موحاة ام مستفادة، لولا تسخيره لما تسخرت لنا الأرض بما فيها فلولا التناسق بين طينة الإنسان و طينة الأرض لما استطاع الحياة عليها فضلا عن ان يستفيد منها، و لو اختلفت كثافة الأرض بجوها عن كثافته و ما يحتاجه من جو لما استقرت قدماه عليها كما لا تستقر في كرة اخرى مثل القمر.

فهناك آلافات الموافقات بين الأرض و إنسانها سخرت بها الأرض له،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 167

و كل ما هنا منه ان يسعى كيف يستفيد منها! و سخر «الفلك» حال انها «تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» حيث الماء الملتطم، و الريح المحتدم، هما بأمر اللّه، كما الفلك بموادها و شكلياتها مصنوعة بأمر اللّه، فصانعها بما يعقل و يعلم هو من امر اللّه، فلا حول و لا قوة الا باللّه، فالفلك مسخرة لنا بامره مهما كانت لنا محاولات في أمرها، حيث النصيب الأوفر في أمرها هو امره تعالى، بل الكل في امره لحد الاختيار دون الإجبار.

و ليست الفلك هي- فقط- السفن الشراعية التي تجري بالأرياح و الشراعات بل هي كل جار في البحر، سواء أ كانت تلك السابقة، ام كل لاحقة تجري بقوات بترولية و كهربية اما هيه من طاقات مرئية و غير مرئية هي مما سخرها لنا ربنا.

«وَ يُمْسِكُ السَّماءَ» بانجمها «أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ» فانها بانجمها محيطة بالأرض مرفوعة عنها دون عمد ترونها: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (13: 2) إذا فثم عمد و لكن لا ترونها، «يُمْسِكُ السَّماءَ» بتلك العمد مما نعلمه أولا نعلمه، و هما مما لا يرى، فلو لم تكن هناك عمد لتساقطت السماء بانجمها على ما في مركزها، و الأرض من مراكزها حيث هي محاطة بها، فهي ممسكة بإمساكه تعالى، لا تقع على الأرض «الا باذنه» فقد يأذن ان تقع اجزاء سماوية على الأرض كالاحجار السماوية التي تصيبها أحيانا كعذابات مؤقتة يسيرة، ثم و يأذنها كلها ان تقع كما يأذن الأرض، ان تقع عليها و تتساقط كلّ على كلّ حين ينفرط عقد الكون كله: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ».

إذا ففوقنا بليارات الأنجم بشهبها و أحجارها و سائر ما فيها، هي كلها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 168

تهدّدنا بالسقوط لولا رأفته تعالى بنا و رحمته‏ «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ».

فيا ويلاه لولا رأفة اللّه و رحمته بنا، و هنالك بليارات من السواقط السماوية تهدفنا، من نيازك نارية تهدف الشياطين، و من أحجار تهدف أرضنا، و لكن اللّه لا يأذن لها ان تقع على الأرض، إلا باذنه يوم الطامة الكبرى، ام طرف ضئيل من ذوق العذاب قبلها!.

وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ 66.

«وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ» في هذه الدنيا «ثم يميتكم» عنها فتظلون احياء بالحياة البرزخية «ثم يحييكم» للحياة الاخرى بعد النفخة الاولى المميتة عن الحياة البرزخية: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» و كل من هذه و ما سخر لنا مما في الأرض، و الفلك تجري و يمسك السماء، كلها نعم تتطلب الشكر، و «إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ» علميا حين يتجاهل هذه النعم، و عقيديا حين ينكرها، و عمليا حين لا يصرفها في مرضات اللّه تعالى.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى‏ هُدىً مُسْتَقِيمٍ‏ 67.

المنسك كما أسلفناه هو منسك الحج و منه الذبح‏ «1» ام هو كل عبادة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 4: 369- اخرج احمد و الحاكم و صححه و البيهقي في شعب الايمان عن علي بن الحسين عليهما السلام: لكل امة جعلنا منسكا هم ناكسوه قال: ذبحا هم ذابحوه حدثني ابو رافع ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أملحين اقرنين فإذا خطب و صلى ذبح أحدهما ثم يقول: اللهم هذا عن امتي جميعا من شهد لك بالتوحيد ولي بالبلاغ ثم أتى بالآخر فذبحه و قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 169

حين إطلاقه كما هنا و «كل امة» تستغرق الأمم الخمس في الشرائع الخمس، و كل الشرائع هي ناشئة من الأمر «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ..»

- «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» حيث الأمر كله للّه‏ «وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ .... ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» (45: 17- 18).

فبمجرد ان منسكا- في هذه الشرعة أم أية شرعة بعد اخرى- يختلف عما قبلها، لا يحق لأهل الشرعة السابقة ان يعترضوا على هذه اللاحقة رميا لها بالفرية إذ لا يجدونها في شرعتهم، كما ليس لأهل اللاحقة ان يعتبروا سابقتها ناقصة غير لائقة، فان الشرائع بمناسكها هي سلسلة متواصلة، موصولة بأصل الدين الطاعة و لا واضع لها الا اللّه، فكيف يعترض متشرع على اللّه‏ «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» امر الدين- امر الرسالة- امر الشرعة او اي امر تحمّله من اللّه صاحب الأمر «وَ ادْعُ إِلى‏ رَبِّكَ» بدل الاشتغال بمنازعتهم‏ «إِنَّكَ لَعَلى‏ هُدىً مُسْتَقِيمٍ» دون اي عوج، فعليك يا حامل الرسالة الاخيرة بمواصلة الدعوة دون تلفت إلى من ينازعونك، و لا تفلت عنها «إِنَّكَ لَعَلى‏ هُدىً مُسْتَقِيمٍ».

وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ‏ 68.

انهم- أيا كانوا- كتابيين او مشركين، كانوا يمركزون ما يعملون و يقيسون عليه- كأصل- اعمال من سواهم، فكانوا يجادلون الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في منسكه إذ كان غير منسكهم، فيؤمر الرسول- اذن- ان يحوّل امر اللّه إلى اللّه: «فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللهم هذا عن محمد و آل محمد ثم يطعمها المساكين و يأكل هو و اهله منهما فمكثنا سنتين قد كفانا اللّه الغرم و المؤنة ليس احد من بني هاشم يضحي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 170

من عمل، جدالا في الأمر و سواه من امر، و ما انا الا رسول‏ «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ».

و مما كان يجادل فيه المشركون قولهم اعتزاضا عليه «اما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلون و اما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال» «1» و هم ليسوا من هذه الأمم المجعول لهم منسك هم ناسكوه!.

و كذلك سار الجدال معه بالنسبة لشرعته الخاصة الناسخة لما قبلها، من المشركين و من اهل الكتاب و كأنه بدع من الرسل، حيث المنسك مهما يستعمل في الاضحية، يعم مناسك الحج كلها، ثم و مناسك الشرعة كلها فتتجاوب الآية آية الشرعة: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ...».

و قد تكون العبادة و المنسك كالظرف و المجرور إذا اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا، فآية المنسك السابقة تذكره ردف عبادات و قرن الذبح، مما يدل على معنى خاص، و هنا «منسكا» و هو لكل امة دون قرين، قد يشمل كافة الطقوس الشرعية.

«وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ ..» و قل:

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ‏ 69.

و هكذا يأمره اللّه تعالى ألا يدع لهم فرصة لينازعوه او يجادلوه مضيا على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 369- اخرج ابن المنذر عن مجاهد «فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» قول اهل الشرك ... و في نور الثقلين 3: 519 عن جامع الجوامع في الآية روى ان بديل بن ورقاء و غيره من كفار خزاعة قالوا للمسلمين: ما لكم تأكلون ما قتلتم و لا تأكلون ما قتله اللّه؟ يعنون الميتة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 171

نهجه دون التفات و لا انشغال بنزاع المنازعين و لا جدل المجادلين، فإنهم أغلقوا أبواب قلوبهم فهم عن الحق عمون فلا ترجع في جدالهم إلى هدى لهم الا إصرارا على ضلالهم و استكبارا و فرارا.

ان الجدال قد تعني ارشاد المجادل و هم لا يرشدون، ام استرشادك ف «إِنَّكَ عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ثم لا تعني- بعد- إلا ما يعنى فليس عليك يا رسول الهدى و لا لك الانشغال بذلك الجدال، بعد أنك على هدى مستقيم و على بينات من الأمر لا مزيد عليها فانها كالشمس في رايعة النهار.

و نهاية المطاف معهم تحويلهم إلى اللّه: اللّه اعلم بما تعملون، و اللّه يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، و ذلك من مرور الكرام باللغو: «وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً».

أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» (70).

«الم تعلم» يا رسول الهدى! و هو يعلم فاستفهام تقرير، او «الم تعلم» ايها المجادل مع الرسول. فاستفهام تنكير «أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ» لا سواه، و لا انا الرسول الا ما علمني- يعلم‏ «ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» و هما الكون كله، فهو العالم بما نعمل و تعملون، و هو الحاكم يوم القيامة بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

«ان ذلك» العلم المحيط «في كتاب» مكتوب ثابت في الذكر الحكيم لدى اللّه العزيز العليم، «ان ذلك» العلم المكتوب‏ «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» مهما كان على من سواه عسير.

ام «ان ذلك» البعيد المدى من العلم المحيط «في كتاب» ف «ان ذلك» القليل القليل مما تعملون، علمه‏ «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» فما هو الا قطرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 172

من يمّ و ذرة من طمّ.

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ 71.

العبادة و سواها من الأمور المشابهة لها بحاجة إلى برهان قاطع لا مرد له، من سلطان الوحي القاطع ام سلطان العلم أيا كان، فطريا او عقليا او علميا او حسيا.

«و» هؤلاء المجاهيل‏ «يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً» يثبت السماح فيها «وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ» أيا كان حيث العلم حجة و قمتّه سلطان الوحي، فنحن نعلم فطريا و عقليا و علميا ان المعبود الحق هو اللّه لا سواه، و قد نزل به سلطان الوحي تقويما و تبيينا و تفصيلا لما علمناه من سواه، إذا فعبادة غير اللّه بحاجة إلى علم و سلطان يسامي ذلك العلم و السلطان، و هما قائمان على بطلانها انحصارا في اللّه و انحسارا عما سوى اللّه ان‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

و الباء في «به» لمجرد التعدية، فان «ينزل» معدى إلى مفعول واحد هو «سلطانا» و ذلك السلطان يعم الوحي، و السلطة الربوبية لمن سواه، فالمعبودون من دون اللّه يفقدون كل علم و سلطان تستصلحهم لان يعبدوا فعبادتهم- إذا- من دون اللّه ظلم ما أظلمه‏ «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»- «وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» في أية نشأة من النشآت و أي مسرح من المسارح إذ لا يملكون على ما يفتعلون اي برهان عاذر.

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ 72.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 173

لا فحسب انهم يعبدون من دون اللّه دون اي برهان، بل‏ «وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا» و هي سلطان الوحي حاملا كل برهان و سلطان، لمّا تمر بأسماعهم يظهر في وجوههم من النكرة لسماعها و الاعراض عن تأملها ما يعرفه الناظر إليهم، و «المنكر» هو الحالة المنكرة التي ينكرها الناظرون، و إنكارهم بسطوة منكرة حيث‏ «يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا» سطوة الإخافة و سطوة البطشة و إذا اسطاعوا فسطوة الإسكات و الإماتة.

اجل! انهم ليسوا ممن يناهضون الحجة بالحجة او يقرعون البرهان بالبرهان، فهم يلجأون إلى البطش و العنف حين تعوزهم الحجة و يخذلهم البرهان، و تلك هي سنة الطغاة لا يملكون أمام حجج اللّه و بيناته الا هياج البطشات و الغوغائيات و ألوان التهديدات.

انهم يزعمون آيات اللّه شرا يستنكرونه فتظهر على وجوههم حالة النكران لحد السطوة على المؤمنين، فيناسبهم التهديد الشديد «قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ» الذي تحسبونه شرا، و بشر من حالتكم الشريرة هذه و المنكر الظاهر في وجوهكم من قلوبهم المقلوبة كأنكم محترقون بلهيب الأفئدة؟

«النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ».

فان كنتم تتقون الاستماع إلى آيات اللّه البينات هنا فهل أنتم تتقون هذه النار الناتجة عن تقواكم الطغوى هناك؟ و انها تسطو بكم اكثر مما كنتم تسطون، و تحرقكم أشد مما كنتم تحرقون.

أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ‏ 73.

المثل هو النموذج من الشي‏ء يمثّله و يبرزه أمام الممثل لهم، و هذا أمثل مثل لتزييف‏ «الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» ضعفا في خلقهم لأضعف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 174

الكائنات: «ذبابا» و أضعف منه أنهم لا يستطيعون استنقاذ سلبهم منه، ضعفا في بعدية ما أضعفه و هم يدعونهم من دون اللّه القادر المتعال! و «الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» دون «التي» مما تدل على شمولها لكل معبود دون اللّه، ملائكة و أنبياء، ام طواغيت و أصناما، و ما خلق المسيح طيرا بإذن اللّه خلقا له حتى تنتقض به تلك الضابطة المستغرقة للمعبودين من دون اللّه ككل و «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ»؟! «أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» (7: 191) «وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» (16: 20) «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ» (25: 3)، و «لن» المحيلة هنا في المستقبل تحيل في مثلث الزمان خلق كائن ذي حياة مهما كان ذبابا ام أضعف منه، و انما يأتي الذباب مثلا لأنه معروف لدى الكل بسلبه ما يسلب.

«وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ» إحالة لاجتماعهم على إحالة خلقهم للذباب‏ «لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ» فلو اجتمعت كافة القدرات الخلقية على خلق ذباب أو بعوضة فما فوقها في الصغر لن يخلقوه: «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها ..» (2: 26).

لا فحسب بل و لا يستطيعون خلق ذباب او بعوضة اما هيه بلا روح لو خلقت فيها الروح لطارت او تحركت .. بل و لا خلق حبة من حنطة في كل المعامل الكيماوية إن أدخلت في تراب صالح نمت!.

إن خلق الحياة و ما دونها، ذلك مما يختص بخالق الحياة و ما دونها، لا يعدوه إلى سواه مهما كان مسيحا ام سواه، و خلق البعوضة و الذباب مستحيل كخلق الجمل و الفيل و الإنسان حيث يشترك الكل في سر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 175

الحياة، و هنا اختيار الذباب كما هناك البعوضة مثلا لتلك الاستحالة يلقي ظل أضعف الضعف ضعف ما يلقيه غيره من مثل.

و الواجهة الثانية منه‏ «وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ ..» سلبا لمتاع او لصحة و عافية، ام لعيون و جوارح، ام للحياة، حيث الذباب على ضعفه يحمل اخطر الأمراض إذ يحمل ميكروب السل و التيفود و الدسنتاريا و الرمد.

و من الطريف فيما يروى من شأن نزولها سلب الذباب من المسك و العنبر حيث لطخوا بهما الأصنام حول البيت الحرام فم يبق من ذلك شيئا الا اكله‏ «1».

عجبا من هؤلاء الآلهة غير اللّه انهم على عجزهم ان يخلقوا ذبابا و لو اجتمعوا له، هم أضعف من الذباب حيث‏ «إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» و ان كانوا احياء فضلا عن أصنامهم الأموات، فقد «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ» طالبا لعبادتهم و مطلوبا، و طالبا استنقاذ سلبهم و مطلوبا هو المستلب. و الي اين يصل هذا الإنسان الظلوم الكفار، إذ يترك خالقه و يعبد مخلوقا مثله نفسه ام أرذل و ادنى! و:

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ 74.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 519 في الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: كانت قريش يلطخ الأصنام التي كانت حول الكعبة بالمسك و العنبر و كان يغوث قبال الباب و يعقوق عن يمين الكعبة و كان نسر عن يسارها و كانوا إذا دخلوا خروا سجدا ليغوث و لا ينحنون ثم يستدبرون بحيالهم إلى يعوق ثم يستدبرون عن يسارهم بحيالهم إلى نسر ثم يلبون فيقولون: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه و ما ملك قال: فبعث اللّه ذبابا اخضر له اربعة اجنحة فلم يبق من ذلك المسك و العنبر شيئا الا اكله و أنزل اللّه هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 176

فمن انحس الباطل و أبطله تسوية الخلق برب العالمين، بل و هم يقدمونهم عليه فيما يعبدون: «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ» (39: 67) «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (6: 91).

فحق قدره في ألوهيته، هو توحيده لمكان قوته و عزته و ضعف من دونه و ذلته، و حق قدره في عدالته إقامة قيامته، و حق قدره في فضله و رحمته أن يوحي إلى بشر من خلقه، إذا فنكران توحيده و قيامته و وحيه ثالوث من الكفر به و نكران لحق قدره و منزلته في هذه الجهات الثلاث من ربوبيته، فقد نزّلوه عن قدر الربوبية و منزلتها توحيدا و عدلا و رحمة، و هكذا يكون كل من لا يقدّر اللّه حق قدره قالا او حالا او فعالا، مهما كان عدم قدره حق قدره دركات، كما ان قدره حق قدره درجات.

فما أنحسه من سوى بينه و بين خلقه ثم رجحهم عليه حيث يعبدهم دونه، و دونه من يخاف عبدا له كما يخافه ثم لا يخاف إلا عبده، ثم و من دونه من دونه، و رأس الزاوية هو الذي يشرك به جاهرا، و من ثم الرئاء و هو شرك خفي داخل في نطاق الآية بصورة هامشية، و كذلك كل قولة او فعلة او حالة تنافي منزلة الربوبية، جهلا او تجاهلا، قاصرا ام مقصرا.

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ 75.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا ..»

(35: 1).

آيتان تحملان رسالة للملائكة، أولاهما و كثير مثلها تحمل رسالة من الناس، و لكن ملائكة الفاطر مطلقة في جعلها رسلا كأنهم هم كلهم دونما استثناء، و ملائكة الحج‏ «يَصْطَفِي مِنَ» تبعيضا لمكان الفعل و الجار،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 177

تتجاوبان باختصاص آية الفاطر بخاصة آية الحج‏ «جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا» دون فوضى، بل كما في الحج اصطفاء منهم كما من الناس، ام يعني اصطفاء الحج رسالة الوحي إلى رسل الناس، و «جاعل» الفاطر يعني مطلق الرسالة حيث تعم امور التكوين و التشريع، إذا فبين رسالة الملائكة و الناس عموم مطلق، فمن رسول ملائكي من لا يحمل وحي الشرعة و منهم من يحمله، و رسل الناس انما يحملون وحي الشرعة مهما كانوا يحملون آيات تكوينية حجة على رسالاتهم بإذن اللّه.

و التجاوب مع ذلك الاصطفاء الرباني سرا و إعلانا، ذلك من قدر اللّه حق قدره في ربوبيته، حيث الرسالة كونية و شرعية هي من قضايا رحمته تعالى و علمه و قدرته و قوته و عزته‏ «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» ما تسألون من حاجة بلسان قال او حال، و ما تقولون من نكران للرسالة «بصير» بحاجاتكم و مصلحياتكم، فلولا علمه سمعا و بصرا بسؤلكم لما أرسل، و لولا قدرته و رحمته على علمه لما أرسل، و لكنه لقوي عزيز سميع بصير، مما يفرض الرسالة المصطفاة هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ 76.

«ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» هو ما يستقبلونه من تصرفات و حالات و مقالات صالحة لرسالة السماء، «وَ ما خَلْفَهُمْ» هو ما يستدبرونه من ماضيهم المشرق المشرّف، ظرفا صالحا ل «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ» لذلك الاصطفاء الرسالي، فليسوا- إذا- ليتخلفوا عن صالح الرسالة و امانتها، و ذلك قضية علمه المحيط و حكمته المحلّقة على كل ما دق وجل، جل جلاله و عظم شأنه.

اجل‏ «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 178

فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ» (72: 28) «وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا» (19: 64).

فلا احد من رسل اللّه ملائكية ام بشرية يتخلف عن امر اللّه، فإنهم كلهم بعين اللّه و رعايته، عالما بأحوالهم في مثلث الزمان، و ان مزعمة الخطأ في رسل اللّه هي بنفسها تخطئة للّه في رسالته، و مزرئة في علمه او قدرته و حكمته‏ «وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» في كافة النشآت، فليس لأحد سواه استقلال بجنبه و لا استغلال لربوبيته، سبحانه و تعالى عما يشركون.

و لان الرسالة الإلهية هي من أهم الأمور الربوبية، فهو- لا سواه- المرجع له، يصطفي لها من يشاء من عباده، من الملائكة و من الناس، فانه رب الناس و ملك الناس و آله الناس، فلا بد و انه ينجيهم برسالاته و سائر تأييداته عن الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس، اللهم إلا النسناس الذين هم يحاربون الناس و آله الناس.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ‏ 77.

أوامر اربعة توجّه إلى الذين آمنوا، من خاص «اركعوا» و عام حين لا يقرن بركوع «و اسجدوا» و أعم من السجدة: «وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» ثم و أعم من العبادة المصطلحة «وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ» حيث تتحول كل حالات المؤمن و مقالاته و فعالاته عبادة للّه لو انه راقب كل ما دق وجل من تصرفاته لتكون بمرضات اللّه و تقربا و زلفى إلى اللّه.

أ ترى‏ «ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا» هما ركوع الصلاة و سجودها، و التعبير الخاص الحاصر عنهما هو الصلاة، فإنهما و لا سيما «اسجدوا» أعم من الصلاة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 179

حيث السجدة عبادة طليقة في صلاة و سواها، بل و الركوع حيث يذكر مفردا «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ» (17: 48) «وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ» (38: 24).

هذا، مهما تعنى منهما الصلاة أحيانا في ردف دون عطف، «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (22: 26) «.. وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (2: 125) و لأنهما اظهر مظاهرها و أهم مواقعها.

إذا فالركوع كما السجود عبادة مطلقة في الصلاة و سواها، اللهم إلا بقرينة تخصها بها، مثل‏ «وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» (2: 43) حيث المعية فيه دليل انه في الصلاة جماعة، مهما قرن بالصلاة قبله، فانها مطلق الصلاة، و هذه هي في جماعة.

و لان ظاهر الأمر هو الوجوب ما لم تحوّله قرينة قاطعة، إذا فالركوع و السجود واجبان عند هذه التلاوة المباركة، قراءة و سماعا و استماعا، و كما تجب السجدة في الآية (18) من نفس السورة و في فصلت‏ «وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ» (37) و النجم‏ «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا» (62) و العلق‏ «كَلَّا لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ» (19) و السجدة «إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً ..» (15) و النمل‏ «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْ‏ءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (27: 25) آيات سبع تتطلب السجدة واجبة، مهما ترك مجتهدون كثير سجدتي الحج، خلاف الظاهر من آيتيها، و نص المروي من روايتها

عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «فمن لم يسجدهما فلا يقرءهما» «1»

و كذلك آية النمل، و اختصوا الوجوب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نقلناها بسندين عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ثالث عن علي (عليه السلام) في بداية الحج فراجع و في جوامع الجامع عن عقبة بن عامر مثلها قال‏ قلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 180

بالباقية المعروفة بالعزائم الأربع.

و قد يحمل الأمر في رواية بخصوص الأربع بحالة الصلاة، و كما تؤيده اخرى‏ «1» و مهما يكن من شي‏ء فالظاهر هو وجوب السجدة في هذه السبع مهما تأكدت في العزائم الأربع او اختص وجوب السجدة في الصلاة بها فلا تجب فيها للثلاث الأخرى، تأمل.

و قد تلحق بهذه الثلاث آية الرعد و النحل‏ «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً»: (15- 48) إلا ان الفرض في هذه التسع درجات حسب الدلالات، و العزائم الأربع مجمع عليها، و الأحوط وجوبا الحاق ايات الحج و النمل بها ثم الأولى اكيدا آية الرعد و النحل.

و الحكم في القراءة و السماع و الاستماع على سواء، و الأوسط

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في سورة الحج سجدتان قال: نعم ان لم تسجدهما فلا تقرءهما.

و اما ما

في نور الثقلين 3: 520 عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث: و فرض على الوجه السجود له بالليل و النهار في مواقيت الصلاة فقال: يا ايها الذين آمنوا اركعوا و اسجدوا و اعبدوا ربكم ..

فقد يعني أهم مصاديق واجب السجدة، لمكان اطلاق الآية متأيدا بنص الرواية.

(1). و

مثلها ما في البرهان 3: 104- الشيخ بسند متصل عن سماعة قال‏ سألته عن الركوع و السجود هل نزل في القرآن؟ فقال: نعم قول اللّه عز و جل: يا ايها الذين آمنوا اركعوا و اسجدوا .. فقلت: فكيف حد الركوع و السجود؟ فقال: اماما يجزيك من الركوع و السجود فثلاث تسبيحات تقول: سبحان اللّه سبحان اللّه ثلاثا و من كان يقوى على ان يقول في الركوع و السجود. فليطول ما استطاع يكون ذلك في تسبيح اللّه و تحميده و تمجيده و الدعاء و التضرع فان اقرب ما يكون العبد الى ربه و هو ساجد و اما الامام فإذا أم بالناس فلا ينبغي ان يطول بهم فان في الناس الضعيف و من له الحاجة فان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذا صلى بالناس خفف عنهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 181

أوسطها، و الآخر ان أولاها، و تعاوض الروايات في السماع إيجابا و نفيا مردود إلى القرآن الظاهر في شموله للسماع.

و الفقه الطليق عن أسر الشهرات و الإجماعات، حيث يتمحور القرآن و السنة الموافقة للقرآن، ذلك هو الفقه الحري بالتصديق و التطبيق و اللّه المستعان على ما يصفون.

«.. ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ» في ركوع و سجود و سواهما من مظاهر العبادة، و قد اختصا بالذكر من بينها لاختصاصهما القمة في ذلك المظهر، ثم‏ «وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ» و هو أعم من العبادة المرسومة تحليقا لأفعال المؤمنين على كل خير، و لتصبح كلها عبادة للّه و ركوعا و سجودا للّه‏ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» و تشقّون أمواج الفتن و أفواج العراقيل بسفن النجاة، فان الخير الصامد يذيب الشر و يذبله مهما زمّز و عربد، فان للحق دولة و للباطل جولة، و

قد يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خير ما في فعل الخير من قوله: «رأس العقل بعد الايمان التودد إلى الناس و اصطناع الخير الى كل بر و فاجر» «1»

و

«اصطنعوا الخير إلى من هو أهله و إلى من هو ليس من أهله فان لم تصب من هو اهله فأنت اهله» «2».

و «الخير» علاقة عامة مع عباد اللّه، بغير الركوع و السجود و العبادة للّه، فالمؤمن هو الذي يصلح علاقاته مع عباد اللّه كما أصلحها مع اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

نور الثقلين 3: 521 في عيون الأخبار باسناده قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و فيه عن أبي جعفر (عليه السلام) من هم بشي‏ء من الخير فليعجله فان كل شي‏ء فيه تأخير فان للشيطان فيه نظرة،

و

عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) جعل الخير كله في بيت و جعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 182

وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ 78.

ترى من هم المراجع للضمائر الجامعة الإحدى عشر؟ أهم كل‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» المأمورون في سابقة الآية؟ و ليس حق الجهاد إلا لأحق المجاهدين! و لا يشمل الاجتباء كل المؤمنين! و لا أنهم كلهم من ولد ابراهيم! و ما هم مسمّين ككلّ مسلمين من قبل مهما سمّوا في هذا مسلمين! و لا انهم شهداء على الناس ككل بمن فيهم من غير العدول!.

و علّ هذه الخمس تكفي دليلا باهرا ان المخاطبين في هذه الإحدى عشر هم جماعة خصوص من المؤمنين، تناسبهم هذه المواصفات و كما في آية البقرة: «وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ..» (143).

1 «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ» الجهاد هو بذل المجهود و استفراغ الوسع في دفع العدو، و هو في اللّه عبارة عن دفع ما سوى اللّه الذي يمانع عن سبيل اللّه و يصدّ عنها، و هو كل شيطان مريد، انفسي كالنفس الامارة بالسوء و الهوى و آفاقي ككل شياطين الجن و الانس فهكذا «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» (29: 69) و ذلك هو تقوى اللّه حقا: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ» (3: 124) الجهاد القمّة الطليقة و التقوى القمة المطلقة.

و على حد المروي‏

عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» «1»

و كما سماه الجهاد الأكبر حين سمى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 4: 371- اخرج ابن مردويه عن فضالة بن عبيد قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 183

القتال في سبيل اللّه الجهاد الأصغر، فلا يخص القتال و هي أصغر الجهاد، مهما كان اظهر مظاهر جهاد النفس ان يبذل نفسه في اللّه فان رأس النبعة هنا هو جهاد النفس لحدّ يفتدي المجاهد بها في سبيل اللّه» «1».

و كما المجاهدون في اللّه درجات كذلك الجهاد في اللّه درجات أعلاها حق الجهاد، و هي للمؤمنين القمة كالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة عليهم السلام و من نحى منحاهم و حذى محذاهم.

2 «هُوَ اجْتَباكُمْ» و الجباية هي الجمع فالاجتباء هو الجمع على طريق الاصطفاء، و هو هنا جمع الطاقات اصطفاء في اللّه، دون تبعثر فيها و لا تفرق، فهو- إذا- تجنيد كل الطاقات في اللّه، دون ان يكون لغير اللّه منها نصيب، و تلك هي العصمة أمّا يقاربها، كما و لم يأت في القرآن فيما أتى لغير المعصومين‏ «2» و كيف يعم الاجتباء كل الأمة و قليل منهم عدول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 523 عن الخصال عن فضيل بن عياض عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ سألته عن الجهاد أ سنة هو ام فريضة قال: الجهاد على اربعة أوجه، فجهادان فرض و جهاد سنة لا يقام الا مع فرض و جهاد سنة فاما احد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي اللّه و هو من أعظم الجهاد و مجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرض و اما الجهاد الذي هو سنة لا يقام الا مع فرض فان مجاهدة العدو فرض على جميع الامة و لو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب و هذا هو من عذاب الامة و هو سنة على الامام ان يأتي العدو مع الامة فيجاهدهم و اما الجهاد الذي هو سنة فكل سنة أقامها الرجل و جاهد في إقامتها و بلوغها و إحيائها فالعمل و السعي فيها من أفضل الأعمال لأنه احياء سنة قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من سن سنة حسنة فله أجرها و اجر من عمل بها من غير ان ينقص من أجورهم شي‏ء.

(2) «شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (16: 121) «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 122) «فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (68: 50) «وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ» (3: 179) «وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى‏ صِراطٍ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 184

فضلا عن العصمة الخاصة بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آل الرسول‏ «1».

3 «وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» و الحرج هو الذي ليس له مخرج من الحرجة الشجرة التي ليس لها مخرج فهو

«أشد من الضيق» «2»

و العسر، و قد وصف الضيق بالحرج‏ «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ» (6: 125) فليس- إذا- مطلق الضيق، و الرواية المفسرة «3» له بالضيق تؤوّل ردا على الآية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مستقيم» (6: 87) «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (42: 13) «وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» (12: 6) «وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا» (19: 58).

فترى كل هؤلاء المجتبين هم من المرسلين دونما استثناء، أ فلا يكفي هذه شهود صدق على ان «اجتباكم» هنا لا تعم كل الامة.

(1).

نور الثقلين 3: 521 في اصول الكافي عن بريد العجلي قال‏ قلت لأبي جعفر (عليه السلام) وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ» قال: إيانا عنى و نحن المجتبون ..».

(2) الدر المنثور 4: 371- اخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق سعيد بن جبير ان ابن عباس سئل عن الحرج فقال: ادعو لي رجلا من هذيل فجاءه فقال ما الحرج فقال: الحرجة .. فقال ابن عباس هذا الحرج الذي ليس له مخرج، و في نور الثقلين 3: 521

في اصول الكافي عن الباقر (عليه السلام) في حديث حول الآية: فالحرج أشد من الضيق.

(3)

المصدر- اخرج ابن جرير و ابن مردويه و الحاكم و صححه عن عائشة انها سألت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن هذه الآية «وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» قال: من ضيق‏

و

في قرب الاسناد للحميري باسناده إلى أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن أبيه عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: مما أعطى اللّه امتي و فضلهم به على سائر الأمم ... «وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» يقول: من ضيق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 185

«وَ ما جَعَلَ» يعم الجعل البدوي، جعلا لأحكام محرجة، و الاستمراري، ان يتطلب تطبيق حكم غير محرج حرجا في خاصة الظروف، فكل حرج أما يستلزم الحرج سواء أ كان حكما ام سلبا لحكم، كل ذلك منفي عن هذا الدين.

فلو ان زوجا يؤذي زوجته ناشزا عما يتوجب عليه. فلا يقيم صلبها، و لا يقوم بواجب الزوجية معها، فيذرها كالمعلقة لا ذات زوج و لا أيّم، ثم و لا يطلقها مضارة إياها، نظرة أخذ مال منها أمّا ذا، جاعلا إياها في حياة محرجة، فان بقيت هكذا كان حرجا عليها، فليس- إذا- بقاءها كما هيه مفروضا عليها بحكم الشرعة، فللحاكم الشرعي تطليقها دون اشتراط اذن من زوجها و هو على حالة المضارة دون تنازل عن احراجه إياها.

فضابطة اللّاحرج محلّقة على كافة الظروف، نافية للحكم المحرج او العمل المحرج، او الترك المحرج، فلا إحراج في الدين إطلاقا من ناحيته، اللهم الا من أحرج نفسه فانه ليس من الدين في شي‏ء.

فالواجب المحرج، و المحرم المحرج، لا يبقى على وجوبه او حرمته، فضلا عما يحرج و لا يعرف حكمه كطلاق المحرجة في زواجها، «ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (5: 6).

فهذا الدين كله، بأحكامه العبادية و السياسية و الاقتصادية و الحقوقية أما هيه، ملحوظة فيه فطرة الإنسان و طاقته، قد لوحظ فيه تلبية الفطرة الطليقة و الاتجاه إلى البناء و الاستعلاء فلا تبقى حبيسة كالبخار المحتبس، و لا تنطلق انطلاق الحيوان الغشم.

لذلك ترى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آل الرسول يستندون في نفي الاحراج بهذه الآية، و يرجعون الامة إليها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 186

كضابطة عامة لا تستثنى‏ «1».

و إذا كان العسر و الضيق منفيين في شرعة الإسلام فبأحرى للحرج أن ينفى، و «في الدين» دون «الشرع» مما يلمح كتصريحه ان الحرج منفي عن كافة الشرائع من الدين، فلا حرج في دين اللّه إطلاقا، في اية شرعة من الدين دونما استثناء، مهما كان في بعض الشرائع عسر كشرعة التوراة، كما و يعم الدين أصله إلى فرعه و الأصل أحرى، فلا حرج في اصول الدين كما في فروعه.

4 «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ» ألزموا ملة أبيكم ابراهيم، و الجهاد في اللّه حق جهاده، و عدم جعل الحرج في الدين، هما يعنيان‏ «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ».

أ ترى «كم» هنا تعم الامة الاسلامية؟ و ليس هو أباهم، اللهم الا قليلا منهم هم من ذرية ابراهيم و إسماعيل! و ليست هذه الأبوة هي الروحية فانها تأويل دون دليل، ثم و أحرى بهذا النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان يكون أبا للامة الاسلامية روحيا كما هو أب لكافة المرسلين‏ «النَّبِيُّ أَوْلى‏ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» (33: 6)! فإنما الأبوة هنا هي النسبية مضافة إلى الروحية، ف «كم» ليسوا هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 524 عن تهذيب الأحكام في صحيحة عبد الأعلى مولى آل سام قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) عثرت فانقطع ظفري فجعلت على اصبعي مرارة كيف اصنع بالوضوء؟ قال: يعرف هذا و أشباهه من كتاب اللّه عز و جل قال اللّه:

«ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». امسح عليه،

و

فيه عن الكافي في الصحيح عن ابن مسكان قال حدثني ميسر قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الرجل الجنب ينتهي إلى الماء القليل في الطريق و يريد ان يغتسل منه و ليس معه إناء يغرف به و يداه قذرتان؟ قال: يضع يده ثم يتوضأ ثم يغتسل هذا مما قال اللّه عز و جل‏ «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 187

إلا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الائمة من آل الرسول عليهم السلام‏ «1» دون الأمة ككل، و لا ذرية ابراهيم المسلمين ككل إذ لا يصدق عليهم حق الجهاد و لا الاجتباء مهما شملتهم الابوة الابراهيمية نسبيا، فها هي الابوة الروحية إلى جانب النسبية و كما في دعاءه (عليه السلام) لهم‏ «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ».

5 «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا» و ترى من «هو» أهو ابراهيم إذ سماهم مسلمين في دعاءه من قبل عند ما دعى: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» (3: 138) فكيف سماهم «في هذا» الدين؟ فهل هي تسميتهم من قبل؟ ف «في هذا» زائد، ام سماهم بعد القبل و ليس هو معهم في هذا! فحقا إنه هو اللّه‏ «2» إذ سماهم المسلمين من قبل‏

«في الكتب التي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال‏ في جمع من المهاجرين و الأنصار بالمسجد ايام خلافة عثمان: أنشدكم اللّه أ تعلمون ان اللّه عز و جل انزل في سورة الحج‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ» الى آخر السورة فقام سلمان فقال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد و هم شهداء على الناس الذين اجتباهم اللّه و لم يجعل عليهم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم؟ فقال: عنى بذلك ثلاثة عشر رجلا خاصة دون هذه الامة قال سلمان: بينهم لنا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: انا و اخي واحد عشر من ولدي، قالوا اللهم نعم و فيه عن بريد العجلي قال قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) قال اللّه عز و جل: ملة أبيكم ابراهيم؟ قال: إيانا عنى خاصة.

أقول: و في تفسير البرهان 3: 106 في رواية قيس «أسباطا» بدل «رجلا» و هو أليق تناسبا لدعاء ابراهيم، و بدل «من ولدي» من ولد علي.

(2)

نور الثقلين: 3: 522 الكافي عن بريد العجلي قال‏ قلت لأبي جعفر (عليه السلام) قوله تعالى‏ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ» اللّه عز و جل سمانا المسلمين من قبل في الكتب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 188

مضت» «1»

منذ صحف ابراهيم إلى توراة موسى و إلى الإنجيل‏ «وَ فِي هذا» الدين المتين حيث السمة البارزة المتميزة في القرآن لخاصة المسلمين و عامتهم هي «المسلمين».

و نموذجا مما في كتابات السماء من هذه التسمية المباركة من التورات حسب الأصل العبراني: «و ليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتو و هيفرتي أوتو و هيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد و نتتيو لغوى غادل» (تكوين المخلوقات 17: 20) «و لإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها انا أباركه كثيرا و أنميه كثيرا و أثمره كثيرا و ارفع مقامه كثيرا بمحمد (صلى الله عليه و آله و سلم) و اثني عشر إماما يلدهم إسماعيل و أجعله أمة كبيرة» «2».

و طالما التورات لا يذكر في هذا النص دعاء ابراهيم الا اشارة، فالقرآن ينص عليه قائلا: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (2: 129).

و من الإنجيل ما في لوقا 3: 14: «و ظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون الله و يقولون: الحمد لله في الأعالي و على الأرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

التي مضت و في هذه القرآن.

(1).

المصدر في اصول الكافي عن بريد العجلي قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ» قال: إيانا عنى خاصة «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» في الكتب التي مضت» «وَ فِي هذا» القرآن ...

(2) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية 40- 43.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 189

إسلام، و للناس «أحمد».

فالأصل المنقول عنه «إسلام» هو «إيريني» و «احمد» «أيودكيا» كلمتان يونانيتان، و قد ترجموا «إيريني» ب «سلامة- مسالمة- سلام» و هي في السريانية «شلم» و في العبرانية «شالوم» و من المعلوم ان لفظة «إسلام» تفيد معاني واسعة كالسّلم و السلام و الصلح و المسالمة و الأمن و الراحة، فالإسلام الذي هتفت به الملائكة هو ذلك الإسلام حيث يضمن كل معاني السلم و السلام‏ «1».

و قد يعني «هو»- ضمن المعني منها- ابراهيم الخليل حيث سماهم المسلمين من قبل، و ليس ذلك إلا بوحي من اللّه و كما أوحي إلى نبيين اخرين.

ترى و لماذا اجتباكم مجاهدين في اللّه حق جهاده دون حرج، و سماكم المسلمين من قبل و في هذا؟:

6 «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ»- «وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» (2: 143) فهؤلاء المسلمون الأكارم الخصوص المعصومون من ذرية ابراهيم و إسماعيل، هم وسط بين الرسول و بين الناس، و هم شهداء على الناس و الرسول شهيد عليهم.

فما كل مسلم حتى العدول منهم شهيدا على الناس مهما كانوا كافرين، حيث الشهادة هي على الأحوال و الأقوال و الأعمال، و هي تتطلب حضورا لتلقيها، و استحضارا لإلقائها، حضورا دائبا عند ما دق و جل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 178- 182.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 190

اعمال الناس، ما كان الشهداء احياء و أمواتا، و ذلك خارج عن قاصر العلم و الحضور لكل عالم من المسلمين و حاضر، اللهم الا بإشهاد اللّه، و ليس ليشهد إلا رجالات الوحي و العصمة كما هو مسرود في آيات الشهادة و من أشملها «فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى‏ هؤُلاءِ شَهِيداً» (4: 41) فهو إذا شهيد الشهداء، حيث الامة الوسط شهداء على الناس كافة و الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شهيد عليهم تحليقا على الشهداء و المشهود لهم و عليهم.

«وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى‏ لِلْمُسْلِمِينَ» (16: 89).

ف «الناس»- في تلكم الشهادة- هم كل الناس، مسلمين و سواهم، و هذه الأمة الوسط هم شهداء على كل الناس و الرسول شهيد عليهم‏ «1» و قد تحلّق شهادة الأمة الوسط: الأئمة الاثني عشر، على شهداء كل امة حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 521 عن الكافي بسند عن الباقر (عليه السلام) في الآية، فرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الشهيد علينا بما بلغنا عن اللّه تبارك و تعالى و نحن الشهداء على الناس يوم القيامة فمن صدق يوم القيامة صدقناه و من كذب كذبناه‏ و عن بريد العجلي مثله عن الصادق (عليه السلام).

و فيه عن المناقب في خبر ان قوله تعالى: «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» فدعوة ابراهيم و إسماعيل لآل محمد (عليهم السلام) فانه لمن لزم الحرم من قريش حتى جاء النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم اتبعه و آمن به و اما قوله: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ» النبي يكون على آل محمد عليهم السلام شهيدا و يكونون شهداء على الناس و

فيه عبد اللّه بن الحسن عن زين العابدين (عليه السلام) في قوله تعالى: لتكونوا شهداء على الناس قال: نحن هم‏

و

فيه عن كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى ابراهيم بن أبي محمود عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل و فيه: نحن حجج اللّه في خلقه و نحن شهداء اللّه و اعلامه في بريته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 191

هم داخلون هنا في نطاق الناس.

و هذه قضية ذلك الاجتباء القمة بالجهاد في اللّه القمة للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة، أن تحتصر الشهادة المحلقة على الناس كلهم فيهم، فآية الحج و البقرة حاكمتان على ساير آيات الشهادة.

و هؤلاء الشهداء هم أفضل الشهداء على الأعمال من المرسلين و النبيين و الملائكة، و من الجوارح و الأجواء و من الأرض و ما عليها، فانها عساكر مجنّدة تتحمل شهادات ثم تلقيها يوم القيامة، و كما هي مسرودة مشروحة في آيات انعكاسات الأعمال في سجلاتها الأربع.

أ ترى بعد ان المخاطبين بهذه الخطابات هم كل الامة الإسلامية بمن فيهم فسقة و منافقون، فحتى العدول منهم و علماءهم الربانيون غير المعصومين لا تشملهم هذه الخطابات، اللهم إلا هامشيا، أم في بعضها

«و كان زيد و الله ممن خوطب بهذه الآية» كما يروى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 522 في عيون الاخبار باسناده إلى ابن أبي عبدون عن أبيه قال‏ لما حمل زيد بن موسى بن جعفر إلى المأمون و قد كان خرج بالبصرة و احرق دور ولد العباس وهب المأمون جرمه لأخيه علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و قال له يا أبا الحسن لئن خرج أخوك و فعل ما فعل لقد خرج زيد بن علي (عليه السلام) فقتل و لولا مكانك مني لقتلته فليس ما أتاه بصغير فقال الرضا (عليه السلام) يا امير المؤمنين لا تقس اخي زيدا إلى زيد بن علي (عليه السلام) فانه كان من علماء آل محمد، غضب للّه تعالى فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله و لقد حدثني أبي موسى بن جعفر (عليه السلام) انه سمع أباه جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول: رحم اللّه عمي زيدا انه دعا إلى الرضا من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لو ظفر لو فى بما دعا اليه، و لقد استشارني في خروجه فقلت له: يا عمي ان رضيت ان تكون المصلوب بكناسة فشأنك فلما ولى قال جعفر بن محمد عليهما السلام ويل لمن سمع داعيته فلم يجبه، فقال المأمون يا أبا الحسن أ ليس قد جاء فيمن ادعى الامامة بغير حقها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 192

7 «... فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ» 78.

تلك الأمانة الكبرى تتطلب علاقة دائبة باللّه: «فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ» و صلة بعباد اللّه: «وَ آتُوا الزَّكاةَ» و اعتصاما باللّه على أية حال:

«وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ» لكي يعصمكم عن الزلات في هذه السبيل الشائكة، المليئة بالأشلاء و الدماء و العرقلات «هو مولاكم» لا سواه‏ «فَنِعْمَ الْمَوْلى‏ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ».

و من لطيف الأمر في هذه الآية الاخيرة من السورة، ان واجهات الخطابات فيها تعم المسلمين في ظاهر الحال، و هي خاصة بالقادة المعصومين عند التأمل و التعمل، و ذلك لكي يدرس المسلمون في مدارس العصمة و الطهارة هذه الدروس القيمة القمة.

فالصلاة المقامة بشروطها الظاهرية و الباطنية هي صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة و الزاد، و الزكاة هي صلة الجماعة المؤمنة بعضها ببعض و التأمين من الحاجة و الفساد، و الاعتصام باللّه هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المعبود و العباد.

و بهذه العدّات و ما سبقتها تملك الامة المسلمة بقياداتها الصالحة- معصومة و عادلة- ان تقود البشرية جمعاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ما جاء؟ فقال الرضا (عليه السلام) ان زيد بن علي (عليه السلام) لم يدع ما ليس له بحق و انه كان أتقى للّه تعالى من ذلك إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و انما جاء ما جاء فيمن يدعي ان اللّه تعالى نص عليه ثم يدعو إلى غير دين اللّه و يضل عن سبيله بغير علم و كان زيد و اللّه ممن خوطب بهذه الآية «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 193

سورة المؤمنون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 195

[سورة المؤمنون (23): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (2) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (4)

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (5) إِلاَّ عَلى‏ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغى‏ وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (7) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (8) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (9)

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 196

سورة «المؤمنون» و كل سور القرآن هي للمؤمنين، الا ان الجو الشامل فيها هو جو الايمان، صفات الايمان، و دلائل الايمان في الآفاق و الأنفس، و حقيقة الايمان وحده و تفرق الناس عنها، و ما للمؤمنين من فضائل الأخلاق و الأعمال، و لمن سواهم من رذائل الأخلاق و سفاسفها.

فهي تبدء بفلاح المؤمنين الحاملين شروطات الايمان في آيات عشر

«من أقامهن دخل الجنة» «1»

و «الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ» توضيحة للعاشرة دون ان تحمل مواصفة زائدة.

ثم عرضا لخلق الإنسان و خلق الطرائق السبع و إنزال نصيب الأرض من ماء السماء، ثم قصصا من دعوات الرسل و عرقلات الناكرين منذ نوح و رسل بعده إلى موسى و هارون و عيسى بن مريم، توحيدا لدعواتهم و أممهم، و إلى خاتم النبيين، بما يطمها و يتمها من دلائل التوحيد و الوحي و المعاد، و كلها تحول حول صالح الايمان و طالح الايمان.

و في بعض الروايات اليتيمة ان عليا (عليه السلام) قرء هذه الإحدى عشر عند ولادته أمام النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «2» و في لطيمة انه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 2- اخرج جماعة عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا انزل على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فانزل عليه يوما فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال: اللهم زدنا و لا تنقصنا و أكرمنا و لا تهنا و أعطنا و لا تحرمنا و آثرنا و لا تؤثر علينا و ارض عنا و أرضنا ثم قال لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ: قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر و اخرج آخرون عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة كيف كان خلق رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قالت: كان خلقه القرآن ثم قالت: تقرأ سورة المؤمنون فقرأ حتى بلغ العشر فقالت هكذا كان خلق رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(2)

بحار الأنوار 35: 17 في رواية شعبة عن قتادة عن انس عن العباس بن عبد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 197

قرء حينذاك كافة الكتب السماوية و منها القرآن من أولها إلى آخرها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المطلب و رواية الحسن بن محبوب عن الصادق (عليه السلام) و الحديث مختصر- انه انفتح البيت من ظهره و دخلت فاطمة فيه ثم عادت الفتحة و التصقت و بقيت فيه ثلاثة ايام فأكلت من ثمار الجنة فلما خرجت قال علي (عليه السلام) السلام عليك يا ابه و رحمة اللّه و بركاته ثم تنحنح و قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ‏ الآيات فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قد افلحوا بك أنت و اللّه أميرهم تميرهم من علمك فيمتارون و أنت و اللّه دليلهم و بك و اللّه يهتدون و وضع رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لسانه في فيه فانفجرت اثنتا عشرة عينا قال فسمى ذلك اليوم يوم التروية فلما كان من غده و بصر علي برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ضحك في وجهه و جعل يشير اليه فأخذه رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالت فاطمة: عرفه فسمي ذلك اليوم عرفة فلما كان اليوم الثالث و كان يوم العاشر من ذي الحجة اذن ابو طالب في الناس اذانا جامعا و قال: هلموا إلى وليمة ابني علي و نحر ثلاثمائة من الإبل و الف رأس من البقر و الغنم و اتخذوا وليمة و قال هلموا طوفوا بالبيت سبعا و ادخلوا و سلموا على علي ولدي ففعل الناس ذلك وجرت به السنة و وضعته امه بين يدي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ففتح فاه بلسانه و حنكه و اذن في اذنه اليمنى و اقام في اليسرى فعرّف الشهادتين و ولد على الفطرة.

أقول و في الحديث من الغرائب ما يعجز عنها التعبير، و كأن مختلق الحديث نسي ان النبي بعد لم ينبأ فكيف اذن و اقام، و ابو طالب كان فقيرا ذا عيال فكيف قدم هذه الوليمة التي كانت تكفي اهل مكة أياما عدة و سنة الطواف هي كانت منذ آدم إلى ابراهيم و إلى محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فكيف كانت منذ هذه الولادة ...

و رواه مثله الشيخ الطوسي في اماليه.

(1).

بحار الأنوار 35: 19 ح 15 خص ضه روي عن مجاهد عن أبي عمرو و أبي سعيد الخدري قالا كنا جلوسا عند رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذ دخل سلمان الفارسي و ابو ذر الغفاري و المقداد بن الأسود و عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان و ابو الهيثم بن التيهان و خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين و ابو الطفيل عامر بن واثلة فجثوا بين يدي رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الحزن ظاهر في وجوههم فقالوا:

فديناك بالآباء و الأمهات يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انا نسمع من قوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 198

ذلك! مع العلم ان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه لم ينبأ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في أخيك و ابن عمك ما يحزننا و انا نستأذنك في الرد عليهم فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ما عساهم يقولون في اخي و ابن عمي علي بن أبي طالب؟ فقالوا يقولون:

اي فضل لعلي في سبقه إلى الإسلام، و انما أدركه الإسلام طفلا و نحو هذا القول، فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فهذا يحزنكم؟ قال: اي و اللّه فقال: باللّه اسألكم. هل علمتم من الكتب السالفة ان ابراهيم هرب به أبوه من الملك الطاغي فوضعت به امه بين أثلال بشاطئ نهر يتدفق يقال له حزر ان من غروب الشمس إلى اقبال الليل فلما وضعته و استقر على وجه الأرض قام من تحتها يمسح وجهه و رأسه و يكثر من شهادة ان لا اله الا اللّه ثم أخذ ثوبا و اتشح به و امه تراه فذعرت منه ذعرا شديدا ثم هرول بين يديها مادا عينيه إلى السماء فكان منه ما قال اللّه عز و جل: و كذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات و الأرض- ثم نقل قصة موسى و عيسى فقال-: و قد علمتم جميعا ان اللّه عز و جل خلقني و عليا من نور واحد- الى قوله- و لقد هبط حبيبي جبرئيل في وقت ولادة علي و يقول: هذا أوان ظهور نبوتك و إعلان وحيك و كشف رسالتك إذ أيدتك بأخيك و وزيرك و صنوك و خليفتك و من شددت به ازرك و أعلنت به ذكرك فقم اليه و استقبله بيدك اليمنى فانه من اصحاب اليمين و شيعته الغر المحجلون فقمت مبادرا فوجدت فاطمة بنت اسد ام علي و قد جاء لها المخاض و هي بين النساء و القوابل حولها فقال حبيبي جبرئيل يا محمد نسجف بينها و بينك سجفا فإذا وضعت بعلي تتلقاه ففعلت ما أمرت به ثم قال لي امدد يدك يا محمد فمددت يدي اليمنى نحو أمه فإذا انا بعلي على يدي واضعا يده اليمنى في اذنه اليمنى و هو يؤذن و يقيم بالخفية و يشهد بوحدانية اللّه عز و جل و برسالاتي ثم انثنى الي و قال: السلام عليك يا رسول اللّه، ثم قال لي يا رسول اللّه أقرء؟ قلت: اقرأ، فوالذي نفس محمد بيده لقد ابتدأ بالصحف التي أنزلها اللّه عز و جل على آدم فقام بها ابنه شيث فتلاها من أول حرف فيها إلى آخر حرف فيها حتى لو حضرت شيث لأقر انه احفظ له منه ثم تلا صحف نوح ثم صحف ابراهيم ثم قرأ توراة موسى حتى لو حضر موسى أقر له بانه احفظ لها منه ثم قرأ زبور داود حتى لو حضر داود لأقر بانه احفظ لها منه ثم قرأ إنجيل عيسى حتى لو حضر عيسى لأقر بانه احفظ لها منه ثم قرء القرآن الذي أنزله اللّه علي من اوله إلى آخره فوجدته يحفظ كحفظي له الساعة من غير ان اسمع منه آية ثم خاطبني و خاطبته بما يخاطب الأنبياء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 199

بعد و لما ينزل عليه القرآن الا بعد اثنتي عشر سنة، فما كان يعلم من القرآن شيئا: «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (11: 49) «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (42: 52)! فهل نزلت على علي (عليه السلام) هذه الآيات، أم القرآن كله بسائر كتابات السماء، قبل ان ينزل القرآن على رسول القرآن، فأصبح- إذا- رسولا قبل الرسول، ام علمها دون وحي حيادا عن رسالته، و لم يكن الرسول يعلمها دون وحي، إذا فهو اعلم من الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)! و مما لا ريب فيه أن عليا علم ما علم بتعليم الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فكيف علم ما قرأه قبل تعليمه بوحي أم دون وحي! إذا فهذه الروايات اليتيمات لطيمات من إسرائيليات و كنسيات و وثنيات، و الهدف من اختلاقها القضاء على سيادة القرآن و كرامته، و الجهلة البسطاء من الشيعة المتطرفين يتقبلونها زعما انها ترفع من كرامة الإمام، غفلة او تغافلا عن انها من واجهة اخرى تمس من كرامة الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

لا نقول ان الصبا تمنع عن نزول الوحي فان يحيى‏ «وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» و المسيح قال في مهده: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ..» فليس من المستحيل ذاتيا ان يقرء الامام علي حين ولادته هذه الآيات ام القرآن كله، ام كتب السماء كلها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الأوصياء ثم عاد إلى حال طفوليته، و هكذا احد عشر اماما من نسله فلم تحزنون و ماذا عليكم من قول اهل الشك و الشرك باللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 200

و لكنه من المستحيل ان يوحى وحي الرسالة إلى من ليس برسول، و قبل ان يوحى إلى الرسول! و النظر الصائب المجرد، المتحلل عن العصبيات العمياء الجهلاء يطمئن الناظر إليها انها من المختلقات الزور، و ساحة الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و اهل بيته الطاهرين براء من هذه التقولات التي تمس من كرامة الرسالة و الشرعة القرآنية.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ‏ 1 الفلح هو الشق، و الفلّاح: الأكّار الذي يشق الأرض للزراعة، و الفلاح الظفر و إدراك بغية دنيوية او أخروية او الطليقة الشاملة لهما، و الآخرة خير و أبقى.

فالإفلاح هو بالغ الفلاح دخولا فيه‏ «1» تشقيقا لأرض الحياة، و سحقا لكافة الشهوات و الحيونات، و إزالة لكل العرقلات، فوصولا إلى بغية الإيمان في الدارين و كما وعد اللّه‏ «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51).

ثم «المؤمنون» هنا و في سواها لا يخص الذكور، بل هم كل من حمل الإيمان ذكرانا و إناثا، اللهم إلا في البعض من هذه المواصفات التالية التي لا تناسب الأناث ك «ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ».

و ترى «المؤمنون» هنا تشمل كل من آمن أيا كان، مهما حمل في قلبه- فقط- صورة الإيمان، دون ان يأتي بسيرته؟ كلّا! بل هم المؤمنون الموصوفون بهذه الثمان عدد أبواب الفردوس:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كأبشر دخل في البشارة و يقال افلحه صيّره إلى الفلاح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 201

1 الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ‏ 2.

فالصلاة فيها هي البداية بعد الايمان خشوعا فيها، و هي النهاية حفاظا عليها، و بينهما متوسطات، و هكذا تكون الصلاة قاعدة الايمان و عموده، و زائدة لسائر شروط الايمان.

و هنا عنصر الخشوع هو القلب لقالب الصلاة، كما هو قلب لسائر العبادات و الطاعات: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ» (2: 45) «وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ» (21: 90) «خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا» (3: 199).

و الخاشع في صلاته و هي قلب العبادات، هو بطبيعة الحال خاشع للّه في سائر الحالات، فحياته إذا حياة الخشوع للّه في كافة التصرفات، فلا يخشع لما سواه، و لا يترك الخشوع للّه.

و الخشوع هو ضراعة القلب كما الخضوع هو ضراعة القالب، و إذا ضرع القلب ضرع سائر جوانح الإنسان و جوارحه فان «القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء» فخشوع إمام الأئمة خشوع و خضوع لسائر الائمة و المأمومين، و

قد رأى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال:

«اما انه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» «1».

ثم و خشوع المؤمن هو خشوع الايمان تسوية فيه بين القلب و الجسد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 3 و في نور الثقلين 3: 528 في المجمع روي ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رأى رجلا .. و

فيه عن الخصال عن امير المؤمنين (عليه السلام) ليخشع الرجل في صلاته فانه من خشع قلبه للّه عز و جل خشعت جوارحه فلا يعبث بشي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 202

دون نفاق، ف «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق» «1» و اما إذا زاد خشوع القلب على الجسد فما هو بنفاق مهما كانت التسوية اولى، اللهم الا في مظان الرئاء او مرجح سواه هو قضية خشوع القلب.

«إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فان سكون الأطراف من تمام الصلاة» «2»

و الالتفات في الصلاة

«هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» «3»

«لا يلتفت أحدكم في صلاته فان كان لا بد فاعلا ففي غير ما افترض الله عليه» «4».

فالى من تلتفت في صلاتك و أنت أمام ربك و هو خير لك ممن تلتفت اليه و ما يلفتك اليه! اللهم إلا لفتة غير قاصدة فيما تضطر اليه.

و لان الخشوع هو في الأصل فعل القلب، فله النصيب الأوفر بالنسبة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و

في الدر المنثور 5: 3 اخرج الحكيم الترمذي و البيهقي في شعب الايمان عن أبي بكر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تعوذوا باللّه من خشوع النفاق قالوا يا رسول اللّه و ما خشوع النفاق قال خشوع البدن و نفاق القلب.

(2) الدر المنثور 5: 3- اخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن اسماء بنت أبي بكر عن ام رومان والدة عائشة، قالت رآني ابو بكر أتميل في صلاتي فزجرني زجرة كدت انصرف من صلاتي قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: إذا قام ..

(3) المصدر اخرج ابن أبي شيبة و البخاري و أبو داود و النسائي عن عائشة قالت سألت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن الالتفات في الصلاة فقال: هو اختلاس ...

(4) المصدر- اخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة انه قال في مرضه اقعدوني اقعدوني فان عندي وديعة او أودعنيها رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لا يلتفت ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 203

للقالب، و الصلاة تنقسم حسب درجات الخشوع و كما

يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1» ف «انما الخشوع لمن تمكن و تواضع» «2»

فالصلاة الخاشعة للّه هي قطع كافة الصلات عما سوى اللّه، فيصبح المصلي موصول القلب و بكليته الى اللّه، بإعظام المقام و جمع الاهتمام، عارفا ذلّه أمام العز المطلق الذي لا يرام، «وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ».

فخشوعك في صلاتك هو على قدر معرفتك باللّه و عقلك عن اللّه‏ «3» و حضورك بمحضره، فمن المصلين من هن غيّب في صلاتهم فما صلاتهم هذه- إذا- بصلاة، و لولا امر اللّه لكانت مزرئة و مسخطة، و عليهم ان يستغفروا من هذه الصلاة الغائبة غير الخاشعة.

و المصلون هم الذين تستشعر قلوبهم رهبة الموقف بين يدي اللّه بلقاء اللّه، فتسكن و تخشع للّه، فيسري خشوعهم إلى الجوارح و الملامح، و يغشى أرواحهم جلال اللّه في حضرته، و يتوارى عن مشاعرهم و حواسهم كل ما سوى اللّه، فلا يشهدون الا اللّه، و لا يتذوقون الا حظوة لقاء اللّه، و عندئذ تتصل هذه الذرة التائهة بمصدرها، و تجد الروح الحائرة طريقها، و يعرف القلب المتقلب مثواه و مأواه، و تتضاءل كل القيم و الأقدار الا قدر اللّه‏ «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»! و الصلاة معراج المؤمن، و المصلي يناجي ربه‏ «4» فكيف تكون نجوى و معراجا الصلاة الفاضية عن الخشوع، الخاوية عن الخنوع للّه؟ و افحش الفحشاء و أنكر المنكر لمن لا تنهاه صلاته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 4- اخرج احمد عن أبي اليسر ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: منكم من يصلي الصلاة كاملة و منكم من يصلي النصف و الثلث و الربع حتى بلغ العشر.

(2) تفسير الفخر الرازي 23: 77 قوله (عليه السلام): ....

(3، 4)

المصدر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليس للعبد من صلاته الا ما عقل»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 204

عن التفكك، و التلفّت إلى من سوى اللّه. «1»

«إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» (29: 45) «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» (20: 14) و

«من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من الله الا بعدا» «2».

«كم من قائم حظه من قيامه التعب و النصب» «3».

فما ذا تفيدك صلاتك في ألفاظ و افعال خاوية و القلب لاه، و ليس هذه المظاهر إلا بيانات عما في القلب، إذاعة صوتية و صورية عن خشوع القلب و بخوعه.

و لان الخشوع في الصلاة معدود في عداد مواصفات الايمان فتركه- إذا- خلاف الايمان حيث الايمان المستكن في القلب يتطلّب خشوع القلب في معراجه.

فهو واجب من واجبات الصلاة قدر الإمكان، و المتهاون عنه متهاون بالصلاة، فمهما صحت صلاته قالبيا لم تكن لتصح قلبيا، و أركن أركان الصلاة هي صلاة القلب، البارز في صلاة القالب، و

«ان العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها و لا عشرها و انما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» «4».

2 وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3).

إعراضا عن لغوهم و اللغو من غيرهم‏ «5» فإعراضا شاملا عن اللغو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2، 3) المصدر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(4) تفسير الفخر الرازي 23: 79 و روى ايضا مسندا قال عليه السلام: ...

(5)

نور الثقلين 3: 529 عن المجمع روي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 205

كله أيا كان و من أيّ كان قالة او فعالة ام حالة «وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً» (25: 72) «وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ» (28: 55).

و اللغو- ككل- هو ما لا يعتد به و لا يعنى حيث يورد لا عن رويّة و لا فكرة فيجري مجرى اللّغا و هو صوت العصافير حيث لا نفهم منه شيئا و إن تفهم هي و تعني ما تعنيه، و لكنه لا يخص الصوت، بل يعم كل حركة و سكون في مثلث الأحوال و الأقوال و الأفعال، منك و ممن سواك، فتعيش حياة تعني الحيويّة الإنسانية الإيمانية، دون الحيوانية اللاغية اللاهية مما لا يعنيه الايمان.

و الإعراض هو حالة نفسانية، فهو يعم الترك، و المؤمن أيا كان يعترضه أحيانا اللمم و ما فوقه فضلا عن اللغو، فلم يقل هنا «تاركون» كيلا يخرج هكذا مؤمنين عن‏ «أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» و انما «معرضون» مهما يعتريهم بطبيعة الحال لغو و ما فوقه.

و من حق الإيمان أن يتطلب الإعراض عن اللغو الذي يرفضه الإيمان، ترفّعا لنفس المؤمن النفيسة عن خسيسة الأعمال و خسة الأحوال و الأقوال، و اعتلاء عن الإشتغال بما يمس من كرامته و شرافته، و تعلقا بجلائل الأمور و عظائم المقاصد.

لست اعني ان المؤمن لا يتفرج و لا يمزح إذا كانا في سبيل التفريج عن التضايق، و التخريج عن المضايق، و انما اللغو هو ما لا يعنى لا في نفسه و في لا غايته، و أما ما يفيده تفريجا عن كربته و تفريحا عن كآبته، مزاحا او لعبا اما إذا في هذه السبيل فهي سبيل الايمان و قضيته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- في الآية- ان يتقول الرجل عليك بالباطل او يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه للّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 206

فالاستماع إلى القصّاص لغو «1» كما الغناء و اللهو- ككل- من ألغى اللغو «2» و كضابطة عامة

«كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو» «3»

و الذكر أعم من ذكر القال و الحال و الفعال: ألّا يخلو المؤمن على اية حال عن ذكر اللّه، اعراضا عما يلهيه و يغفله عن اللّه، سواء أ كان لغو القول او لغو الفعل او لغو الاهتمام.

3 وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ‏ 4.

هنا «لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» و في سواها من آيات الزكاة «يُؤْتُونَ الزَّكاةَ» أ تراهما على سواء؟ كلا! حيث العبارة الصحيحة و الأخصر عنها «و المزكون» و ليس القرآن مما يفدي المعنى رعاية اللفظ، فلا تعني‏ «لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» سجعا و وزنا اللهم على ميزان خاص للمعنى.

و حقا ان‏ «لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ» تحلّق على كافة الاهتمامات في سبيل الزكاة، من سعي ينتج مال الزكاة ثم إيتاءها، و دعاية للآخرين سعيا ينتج الزكاة و دعاية لإيتاء الزكاة، و دعوة لجبايتها بنفسه و من سواه.

ثم «الزكاة» لا تنحصر في زكاة المال، انحسارا عن زكاة الحال من عقل و علم و أية طاقة بالإمكان إنفاقها في سبيل اللّه، فالمؤمن حركة دائبة لتحصيل الزائد عما يلزمه في حياته، لكي يزكيه لمن ينقصه مالا و حالا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 529 في اعتقادات الامامية للصدوق‏ و سئل عليه السلام عن القصاص ايحل الاستماع لهم؟ فقال: لا.

(2)

المصدر في عيون الاخبار باسناده إلى محمد بن أبي عباد و كان مشتهرا بالسماع و شرب النبيذ قال: سألت الرضا (عليه السلام) عن السماع؟ فقال: لأهل الحجار رأي فيه و هو في حيز الباطل و اللهو اما سمعت اللّه عز و جل يقول: و إذا مروا باللغو مروا كراما، و في المجمع في رواية انه الغناء و الملاهي.

(3) المصدر في ارشاد المفيد كلام طويل لأمير المؤمنين (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 207

عقلا و فكرا و علما و قوة، و كما في الحديث زكاة العلم تعليمه ...

ذلك، و من الزكاة هنا تزكية النفس فقد تكون مصدرا تشملها و سائر الزكاة، فهي- إذا- زكاة ذات بعدين نفسي و غيري و الأخير يعم كل إنفاق حالي و مالي.

اجل انهم فاعلون للزكاتين، تطهيرا للقلب من كل شح و استعلاء على حب الذات، و انتصارا على وساوس الشيطان، ثم و تطهيرا للمال و سائر الحال إنفاقا لهما في سبيل اللّه، صيانة جماعية بعد الفردية عن التفكك و الخلل الذي ينشئه العوز في ناحية، و الترف في أخرى.

و الزكاة كما الصلاة هي مما شرعت منذ العهد المكي كما تدل على ذلك آيات منها «1» مهما كانت الاكثرية الساحقة من آياتها مدنيات، و علّ تلك القلة هي قضية جو الضيق في العهد المكي، و هذه الثلّة قضية السعة في الجو المدني، فليس- إذا- «فاعلون» لأن الزكاة ما كانت مشرّعة بعد في مكة المكرمة.

بل و «فاعلون» في مكة تتبنى مختلف ألوان الزكاة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي الاسلامي، فحتى لو لم تكن مشرّعة في مكة فلا بد من ذكرها فيها لأنها بداية العهد من هذه الشرعة، و كما تشير بعض آياتها إلى القتال و لم يؤذن فيه بعد حتى الهجرة إلى المدينة المنورة.

4 وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ‏ 5 كل من الذكور و الإناث يحفظ فرجه عن النظر و اللمس و عمل الجنس أم إفراغ النطفة، و كل ما يخص الفرج من المشتهيات الجنسية، كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالاية 7: 156- 21: 73- 27: 3- 30: 39- 31: 4- 41: 7.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 208

بالنسبة لجنسه و سواه، فهذه ضابطة عامة ان الفرج محفوظ بعامة الحفظ و خاصته في ذلك المربع و أضرابه من مرتقبات الجنس.

إذا فلا تحل أية محاولة شهوانية جنسية بالفروج، ذكرانا مع ذكران و أنحسه اللواط، ام إناثا مع إناث و أنحسه المساحقة، ام كل مع الآخر على أية حال، اللهم:

إِلَّا عَلى‏ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ‏ 6.

«أزواجهم» تعم الزوجين دائما و منقطعا، كما البيع يعم القاطع الدائم و المشروط المؤقت، اللهم الا بقرينة قاطعة كالأزواج في أحكام الميراث و النفقات و أضرابها من اختصاصات النكاح الدائم.

و قولة القائل ان الزواج المنقطع ليس بزواج، قولة قاحلة جاهلة، حيث الوطي‏ء إما نكاح أو سفاح و لا ثالث بينهما، فهل الزواج المنقطع سفاح إذ ليس نكاحا، و الضرورة القاطعة الإسلامية حاكمة أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سمح في النكاح المنقطع، مهما اختلف المسلمون في نسخه و استمراره، فهل انه سمح في السفاح ردحا من زمن رسالته ثم نسخ السفاح، و هو محرم على أية حال و إنه كان فاحشة و ساء سبيلا!.

هذا و لا ينافيه اشتراط العفاف في النكاح و الزواج فان «أزواجهم» لا تعني إلا الزواج الصحيح بشروطه المسرودة في الكتاب و السنة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 531 في الكافي عن احمد بن محمد عن العباس بن موسى عن إسحاق بن أبي أبي سارة قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عنها يعني المتعة فقال لي حلال فلا تتزوج الا عفيفة ان اللّه عز و جل يقول‏ «وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ» فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 209

و لا حرمة الوقاع في حالات خاصة فانها مستثناة عن قاعدة الحل.

و على الجملة فكل آيات الزواج و النكاح باطلاقاتها او عموماتها تشمل القسمين القسيمين، الا بقرينة تخصها بأحد الزواجين، و لولا آية النساء «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» (34) و لا سماح النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالنكاح المنقطع، لكانت الآيات بعموماتها و إطلاقاتها حجة السماح فيه، و الروايات المنقولة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في نسخه و استمراره متناقضة من جهات عدة، فترد إلى كتاب اللّه، حيث يسمح له بخصوصه و عمومه، و نهي عمر عنه مردود اليه لأنه خلاف الكتاب و السنة، فتحريمه بدعة كما ان تحليل السفاح بدعة.

و من أسخف الهراء قولة القائل إنه سفاح سمح فيه لضرورة وقتية اقتضته، فإذا كانت الضرورة تبيحه و هو سفاح، فلما ذا سمي في ذلك الوقت نكاحا، و قرر فيه ما قرر من شروطات النكاح، ثم و تلك الضرورة دائبة على طول الخط للذين لا يجدون نكاحا دائما فلما ذا التحريم إذا منذ الخلافة الثانية إلى يوم القيامة، و الضرورة فيه- أحيانا- هي أقوى مما هيه.

و كذلك القول بنسخ آيات السفاح بآية النساء و الروايات، و تلك الآيات لا تتحمل نسخا و لا تخصيصا على أية حال، فانه فيها فاحشة و سبيل سوء، و ان فاعله يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا.

إذا ف «أزواجهم» تعم الزواجين دون ريب، اللهم الا وطئا في حالات خاصة، و مع ما دونه في أخرى كالإحرام.

و من حفظ الفرج- الا على أزواجهم او ...- حفظه عن إفراغ نطفة دون جماع، فلا يحل الا في هذين الموردين. فإقرار نطفة غير الزوج في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 210

رحم امرأة، قريبة او غريبة، لا سيما المحارم، ذلك محظور بعموم الآية «وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ» حيث الإطلاق يعم مربع الأعمال المترقبة جنسيا من الفروج، بل و أهمها الاستيلاد و كما في آية التحريم‏ «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ ...».

و المورد الثاني، و هو على هامش الأول‏ «أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ» و هنا مربع من الصور لا يحل الا في بعضها:

فقد يملك رجل امرأة غير مزوجة و لا ممنوعة من ناحية أخرى، او تملك امرأة رجلا أيا كان، او يملك رجل رجلا او امرأة امرأة، قد تشمل كلها «إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ» في بادئ الأمر.

و لكنما المتجانسين ذكرا أو أنثى خارجان قطعا، حيث الأول لواط و الثاني مساحقة و هما محرّمان ضرورة بالكتاب و السنة، و ان طبيعة الحال اسلاميا هي الأمور الجنسية بين المتخالفين في الجنس في المستثنى، مهما شمل المستثنى منه غيرهما تحريما، ثم «هم» في الأصل لا يعني إلا الرجال و ليس لحوق النساء بهم في‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» إلا بقرينة، و هنا القرينة ضدها.

و بنفس الحجة تخرج الصورة الثانية فلا يحل مملوك لمالكته، و تبقى الصورة الاولى هي المستثناة من تلك الضابطة المحرّمة، اللهم إلا في حل نظره إليها و نظرها إليه كما فصلناها في آية النور: «أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ» لولاها نصا لما كان داخلا في نطاق الاستثناء.

فما ملكت أيمان الرجال من النساء حلّ لهم كزوجة، و ما ملكت أيمانهن من الرجال هم حل لهن كمحرم من المحارم إلا الزوج، على شروط مسرودة في محلّها.

ثم الأصل المفهوم من‏ «ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ» بديل «أزواجهم» هن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 211

النساء للرجال و كما في آياتها «1».

إلا «ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ» كما في النور (31) و الأحزاب (55) فهم الرجال للنساء او الأعم منهم.

فهنا «أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ» بديل «أزواجهم» ليست لتعني الا النساء المملوكات للرجال، اللهم الا المحرمات نسبيا او سببيا ام في حالات خاصة كالحيض و النفاس و الإحرام و الصوم، فالقصد من الاستثناء هو الخروج عن أصل الحرمة و لا ينافيه الموارد المستثناة كما في أزواجهم.

و لماذا «إِلَّا عَلى‏ أَزْواجِهِمْ أَوْ ..» دون «لأزواجهم»؟ عله اعتبار بالعلو في ذلك الحق للأزواج على زوجاتهم، فانه ليس مجرد حق مسموح، بل هو حق مستعل، مفروض عليهن التمكين في موارد الطلب حيث هي حلّ خارج عن مستثنيات التحريم.

فقد تحرم «أزواجهم» حالة الإحرام و الصيام و الحيض و النفاس، و حين نكحت امرأة و لما تدخل عليها ثم تنكح ربيبتك منها فتحرم أمها دون طلاق، و ان لم تصدق عليها زوجة بعد، فهي- اذن- خارجة عن نطاق الأزواج.

كما تحرم من‏ «ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ» المحرمات النسبية و السببية و الرضاعية و أمتك و هي حامل من غيرك حتى تضع، و المزوجة من غيرك حتى تسرح، و التي لك فيها شريك، و المحرمة و الصائمة و الحائض و النفساء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم 4: 3 و المحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم 4: 24 فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات 4: 25 و ما ملكت يمينك مما أفاء اللّه عليك 33: 50 و لا ان تبدل بهن من ازواج و لو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك (33: 52).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 212

فكما في حل أصل الزواج و ملك اليمن شروط، كذلك في الحل بعد الزواج و ملك اليمين شروط، و الآية انما هي في مقام البيان لأصل الضابطة تحريما و تحليلا، ان الحل في الفروج يختص بالأزواج و المملوكات و لا ثالث لهما «1».

«فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» في هذين الحقلين، مهما اختلفت الحالات و الظروف معهن وجوبا و استحبابا و إباحة و كراهة، ثم هم ملومون في موارد الحرمة مثل ما في المستثنى منه.

و ترى كيف يستبيح الإسلام ملك اليمن دون نكاح، أ ليس في ذلك هتكا لحرمة الإنسان مهما كان كافرا أن يستباح عرضه و بضعه بصورة طليقة خارجة عن شروطات النكاح المشروع عند كل قوم، مهما اختلفت صوره؟.

نقول: النكاح بحاجة إلى سبب، فقد يكون لفظة تقال مع رعاية الأحوال، صيغة دائمة او مؤقتة، و أخرى معاطاة كما في سائر المعاملات، و نفس الاسترقاق بحرب و أشباهها هو من اسباب النكاح قائما مقام صيغة النكاح.

ثم و ذلك الاستمتاع، الملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، يمنعهن عن التبعثر، كيلا يشبعنها من طريق الفوضى في المخالطة الجنسية.

و فيما إذا لا ترضى أمة تلبية الجنس مع مالكها قد لا تجبر على أسر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 521 عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) تحل الفروج بثلاثة وجوه نكاح بميراث و نكاح بلا ميراث و نكاح بملك يمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 213

الجنس هكذا، فتتزوج بمن تراه و يراه المالك صالحا، و على أية حال فهذه الاستباحة بشروطها سياج على تخلف الجنس و تحرير عن حبسه.

فَمَنِ ابْتَغى‏ وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ‏ 7.

و ذلك وراء الأزواج بالنسبة للشهوات الجنسية بأضلاعها الأربعة نظرا و لمسا و وقاعا، و استيلادا بإفراغ المني في الأرحام دون وقاع، فان ذلك تجاوز عن الحق المرام و خروج عن حدود اللّه الملك العلام.

كما و وطي‏ء البهائم أمّا ذا من غير الأزواج و ما ملكت ايمانهم داخل في «وراء ذلك» اللهم إلا نظرا و لمسا دون شهوة، بل و هما عن شهوة خارجان عن المستثنى منه، حيث الناظر إلى فرج حيوان او اللامس له بغير فرجه نفسه لم يترك الحفاظ على فرجه، فليدل على حرمتها عن شهوة دليل آخر.

فقد حصرت حرية الشهوة في هاتين بحدودها و إياهما، فمن ابتغى وراءهما أية بغية شهوانية فقد عدا الدائرة المباحة و وقع في المحظور و اعتدى على الأعراض المحترمة المحرمة غير المستحلة بنكاح و لا جهاد، و حينئذ تفسد النفس الراعية في غير مرعاها، و تتفسخ حرمة العائلة المشروعة المحددة، و تفسد الجماعة المؤمنة.

5 و 6 وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ‏ 8.

و الأمانات تعم أمانات اللّه تكوينا و تشريعا، و أمانات الخلق حالا و مالا و عرضا أمّا هي، و كذلك العهد الذي عاهد اللّه عليهم في فطرهم و عقولهم و شرعتهم او الذي عاهدوا له، او المعاهدات بينهم أنفسهم، فالعهد كما الأمانة لزام المتعهد و المؤتمن أيا كان، اللهم الا أمانة أو عهد في غير مرضات اللّه، كسارق يأتمنك على ما سرق، او متعهد يتعهد لك ان يقترف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 214

إثما، فالأمانات و العهود الواجبة الرعاية محدودة بحدودها دون فوضى جزاف.

و هنا النص يجمل التعبير دون تفصيل عن كل امانة ب «أماناتهم» و عن كل عهد ب «بعهدهم» و علّ الإفراد في «عهدهم» يتبنى عهد الفطرة الذي يتبناه كل عهد.

7 وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ‏ 9.

الخشوع في الصلاة أمر، و الحفاظ عليها امر آخر بهما تكمل الصلاة ظاهرا و باطنا، قلبا و قالبا، فهنا صلاة بأصلها، و هناك خشوع فيها، و هنا لك شروطها من «أوقاتها و حدودها» «1» و مقدماتها و مقارناتها بقبلتها و الطهارة عن حدث، او خبث في الأبدان و الألبسة، و كل هذه و نظائرها داخلة في نطاق‏ «عَلى‏ صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ»، ف «في» ناظرة إلى نفس الصلاة، و «على» تنظر إلى ما يحلّق على الصلاة من أوقات و مكانات و مقدمات و مقارنات.

هذا و لكن المحافظة في آية البقرة: «حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى‏» (238) و كذا الانعام (92) و المعارج (34) هي أعم مما هنا حيث لم تقرن بسابقتها «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ» و لماذا الإفراد للصلاة في «خاشعون» و الجمع في «يحافظون»؟ علّه حيث الخشوع هو لزام جنس الصلاة، و المحافظة هي على الجمع، سواء جمع الشروط و الأجزاء، ام جمع الركعات او الصلوات عدا لها، ام جمع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 531 عن تفسير القمي في الآية قال: على أوقاتها و حدودها و

عن الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هي الفريضة و «الَّذِينَ هُمْ عَلى‏ صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ» قال هي النافلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 215

الأوقات، فالمحافظة هي عن التبعثر و التفرق في الصلاة، و الخشوع هو قلبها على جمعها، ثم و «في صلاتهم» هي حالة المصلي فيها و «على صلواتهم» أعم مما فيها و ما قبلها و بعدها.

و لقد بدأت شروطات الايمان بخضوع الصلاة و ختمت بالحفاظ عليها تدليلا على عظيم مكانتها في بناء الإيمان، و الذي لا يحافظ على صلاته كصلة دائبة بربه لا ينتظر منه ان يحافظ على سائر صلاته، و صلاته الصالحة تضمن صالح كل صلاته، حياة ادبية منضبطة على أية حال.

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ‏ 10.

«هُمُ الْوارِثُونَ» شرعة اللّه حيث يحملونها تطبيقا لها و دعوة و دعاية إليها بعد نبيها، أئمة و علماء ربانيين: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا» (35: 32).

و «هُمُ الْوارِثُونَ» السلطة الزمنية إضافة إلى الروحية يوم الدولة الإسلامية العالمية: «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ» (21: 105).

و «هُمُ الْوارِثُونَ» بين هؤلاء و أولاء: «وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها» (7: 137) «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى‏ وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ» (40: 53).

و على اية حال‏ «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (7: 128) و طبعا الأتقى منهم فالأتقى و لكي يحافظوا على وراثة اللّه.

و مهما كانت الوراثة الارضية غير تامة و لا طامة لهم اللهم إلا في الدولة الأخيرة، لكنها خالصة لهم يوم القيامة، فإنهم هم:

الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏ 11.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 216

و «الفردوس» هي «أعلى الجنان» «1» و «هي مقصورة الرحمن» «2» و هي‏

«ربوة في الجنة و أوسطها و أفضلها «3»

هذه! و في أخرى أضيفت إليها الجنات مما يدل على اختصاصها من بينها: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا. خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا» (18: 108) و يا لها من جنة

«سورها نور و الغرف التي فيها هي من نور رب العالمين» «4»

و كما ان النار دركات أسفلها لمن يصلونها إيقادا لها، كذلك الجنة درجات أعلاها للمؤمنين القمة حسب الدرجات.

و تراهم عمن يرثون الفردوس؟ عن اللّه؟ و هو الوارث للسماوات و الأرض و لا يتحلل عن ملكه حتى يورث المؤمنين به! أم عن سائر خلقه؟ و اهل الجنة منهم يدخلونها دون توريث، و اهل النار ليس لهم منها نصيب حتى يورثوه! اهل الفردوس يرثونه عمن دونهم من المؤمنين إذ كان لهم منها نصيب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير الفخر الرازي 23: 82 روى ابو امامة عنه عليه السلام انه قال: سلوا اللّه الفردوس فانها أعلى الجنان و ان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش.

(2)

المصدر روى ابو موسى الاشعري عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: الفردوس مقصورة الرحمن فيها الأنهار و الأشجار.

(3)

الدر المنثور 5: 6- اخرج عبد بن حميد عن انس‏ ان الربيع بنت النضر أتت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و كان ابنها الحارث بن سراقة أصيب يوم بدر و اصابه سهم غرب فقالت اخبرني عن حارثة فان كان أصاب الجنة احتسبت و صبرت و ان كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء فقال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يا ام حارثة انها جنان في جنة و ان ابنك أصاب الفردوس الأعلى و الفردوس ربوة ..

(4)

نور الثقلين 3: 532 في من لا يحضره الفقيه في خبر بلال عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يذكر فيه صفة الجنة قال الراوي فقلت لبلال: هل فيها غيرها؟

قال: نعم جنة الفردوس، قلت و كيف سورها؟ قال: سورها نور قلت الغرف التي هي فيها؟ قال: هي من نور رب العالمين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 217

إن كانوا كما هم، و يرثونه عن اهل النار إذ كان لكلّ منها نصيب حرموا أنفسهم منه.

فكما وراثة الأرض للمؤمنين في الدولة الحقة لم تكن الا احتلالهم في السلطة عليها عنهم و هو حقهم بما عملوا، كذلك الجنة و أحرى: «وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (43: 72) و هذا لأهل الجنة كلهم، و لأهل الفردوس ميراثان، عمن دونهم من المؤمنين، و عن الكافرين، حيث قدّر لكلّ نصيب لو عملوا كما عمل هؤلاء، و كذلك منازل النار

«فيورث هؤلاء منازل هؤلاء و يورث هؤلاء منازل هؤلاء» «1».

هذا و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «ما منكم من احد الا و له منزلان منزل في الجنة و منزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله: أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 6- اخرج سعيد بن منصور و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... أقول و قد مضى حديث حارثة انه أصاب الفردوس.

(2) و

في نور الثقلين 3: 521 عن تفسير القمي حدثني أبي عن عثمان بن عيسى عن سماعة عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ما خلق اللّه خلقا الا جعل له في الجنة منزلا و في النار منزلا فإذا اسكن اهل الجنة الجنة و اهل النار النار نادى مناد: يا اهل الجنة أشرفوا فيشرفون على اهل النار و ترفع لهم منازلهم فيها ثم يقال لهم: هذه منازلكم التي في النار لو عصيتم اللّه لدخلتموها، قال: فلو ان أحدا مات فرحا لمات اهل الجنة في ذلك اليوم فرحا لما صرف عنهم العذاب ثم ينادي مناد: يا اهل النار ارفعوا رؤسكم فيرفعون رؤسهم فينظرون الى منازلهم في الجنة و ما فيها من النعيم فيقال لهم هذه منازلكم التي لو أطعتم ربكم لدخلتموها قال: فلو ان أحدا مات حزنا لمات أهل النار حزنا فيورث هؤلاء منازل هؤلاء و يورث هؤلاء منازل هؤلاء و ذلك قول اللّه‏ «أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 218

[سورة المؤمنون (23): الآيات 12 الى 22]

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (16)

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (17) وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (19) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (20) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (21)

وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (22)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 219

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ‏ 12.

هذه و اللتان بعدها هي اشمل الآيات و اجمعها تفصيلا لخلق الإنسان تناسليا.

أ ترى هذا «الإنسان» يعم الإنسان الاول و ذريته؟ و ليس خلق الأول مرحليا كذريته! ام هو- فقط- ذريته؟ فما هو دور الطين في مراحله الجنينية! الإنسان هو الإنسان ككل، و خلقه من سلالة من طين يعم كل انسان، و مفرق الطريق بينه و بين ذريته هو المرحلية الجنينية في نشوءه و ارتقاءه.

فالإنسان الاول مخلوق‏ «مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» قفزة دون ان تخطو هذه المراحل، و نسله مخلوق من سلالة من طين بهذه الخطى بعد البداية حيث المني ينتهى إلى طين.

و مهما اختلف طين الإنسان الاول عن طين ذريته في التخلق كيانا فقد يشتركان في‏ «سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» و ان كان هنالك اختلاف بين سلالة و سلالة.

و اما آية السجدة «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ» (8) فقد تعني ذلك البدء الخاص قفزة دون كل بدء، فهنالك بدء قريب يختص بالإنسان الاول، و هنا بدء بعيد يعم أنسا له.

«سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» بدء للأول هي الطين الخاص الخالص المنسلّ من سائر الطين، المقتفز إلى خلق آدم (عليه السلام) دون مراحل، حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 220

السلالة هي المنسلّة المنفصلة خفية كصفوة مختارة و قد انسل الإنسان- ككل- من الطين و استخرج من صفوه و سره، من خلاصته و كلاسته، حيث السلالة هي محض الشي‏ء و مصاصه و صفوته و لبابه.

و البشرية لم تعرف حتى الآن كيف يتسلل المني من الطين، و النطفة كيف تتسلل من المني، اللهم الا إشرافا على أشراف بعيدة من ذلك المنظر المبين.

و «سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» نسله، هي الخلاصة السرية المنوية المنسلة المختارة عن صفوة المواد الطينية- أغذية و اشربة- و كلها سلالات من طين، و هنا «سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» تعني منيا يمنى، و هناك تعني طينة آدم المنسلة عن سائر الطين.

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ» الأول‏ «مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» ثم هو الإنسان دون ان يخطو مراحل.

و «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ» الذرية «مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» هو المني‏ «ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً ...» حيث النطفة مجعولة من المني، فانها جزء من البحر المنوي.

فالطين إذا هو المصدر الاول المتكرر ذكره في الذكر الحكيم: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى‏ أَجَلًا» (6: 2) «إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ» (37: 11) «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ» (32: 7).

و قد يعبر عنه بالتراب و هو اصل الطين: «أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا» (18: 37) «فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ» (22: 5) «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ» (35: 11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 221

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» (40: 67).

و لان النطفة مخلوقة في المني كجزء منه، فالمني مخلوق من طين سلالة عنه، و لكن النطفة ليست مخلوقة ثانية مع المني، و كل ما يحصل لها بعد لمرحلة ثانية ان تجعل في قرار مكين من الرحم دون خلق لها ثان، و لذلك.

ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ‏ 13.

دون ثم خلقنا نطفة، فانه مخلوق عند خلق المني السلالة عن الطين‏ «أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏» (75: 37) «وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏. مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى‏» (53: 6) فالنطفة تمنى مع مني يمنى، إذا فليست مخلوقة منه، بل هي كائنة فيه منذ يمنى، ثم يجعلها اللّه في قرار مكين.

و هكذا يقرر القرآن هذه الحقيقة الطينية للإنسان ككل ليتخذها مجالا للتدبر في صنع اللّه، تاملا في تلك النقلة البعيدة العجيبة بين الطين و ذلك الإنسان دون تفصيل الا انه على أية حال‏ «سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ» و النطفة هي نقطة منوية، و هي خلية واحدة من ملايين الخليات السابحات في البحر اللجي المنوي يجعلها اللّه‏ «فِي قَرارٍ مَكِينٍ» من الرحم، محميّة عن كافة الاختلاطات و الاهتزازات و الانصدامات و ما يصيب الظهر و البطن من كدمات و رجّات و تاثرات‏ «فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ».

و ذلك‏ «قَرارٍ مَكِينٍ» مكانا في هندسته و حرارته الخاصة، و مكانة في حراسته و حفاظته، فلا مكين أمكن منه و أمتن و احسن تمكينا و ضيافة من ذلك المضيف المكين الأمين الرزين الرصين‏ «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 222

الْخالِقِينَ» «1».

هذه النطفة التي لا تحسب بشي‏ء في ظاهر الحساب، الغريقة في ذلك البحر الملتطم، انها تجعل في قرار مكين «بما مكنها الله، و أمكن لها كل شروطات النمو و الارتقاء، فخالق كل شي‏ء يجعل هذه اللاشي‏ء في صيانة كاملة لكي يخلق منه إنسانا خلق له كل شي‏ء، فيا لهذا الإنسان النسيان من كفران بآلاء الرحمن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

هذا الإنسان العظيم العظيم، بكل اجزاءه الجسمية، و بكلّ خصائصه الروحية، كان مختصرا محتصرا في تلك النطفة النقطة الهندسية، كأنها لا وجود لها فلا تبصر إلا بالمكبرات القوية، سبحان الخلاق العظيم! و في التعبير عن مقر النطفة ب «قرار» مصدرا، إشارة إلى دور الرحم بالنسبة لها، كأنه لا شأن له إلا إيوائها، فهو إذا قرار لا شأن له إلّا ذلك الإقرار.

ثم «مكين» تأكيدة ثانية لاستقرارها في ذلك القرار، ذي مكنة و مكانة راقية فائقة، لا تتطرق إليها أية هجمة داخلية ام خارجية، حيث أعمق أعماق كيان الام، مستقر قارّ، ذو مكان مكين لا يضرها فيه ضار.

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ....

و هي كالدودة العالقة بجدار الرحم، مرحلة ثانية جنينية لها التقدير الثاني من الدية إذا أسقطت، فللنطفة عشرون و للعلقة أربعون،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 534 في الكافي ابن محبوب عن رفاعة قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) في حديث تطور الجنين: و ان النطفة إذا وقعت في غير الحم؟؟؟ لم يخلق منه شي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 223

و للمضغة ستون، و للعظام ثمانون، و بعد كسوها لحما مائة، و بعد إنشاءه خلقا آخر- هو الروح- الدية كاملة، إذا كان ذكرا فألف و ان أنثى فخمسمائة «1».

ثم بين كل مرحلتين- الدية- بحساب الرحلة، مقدرة بقدرها «2» «وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ» و هكذا يكون دور الإنسان جسدانيا، ثم دوره روحيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد استفاضت الرواية على هذه التقادير في دية الجنين بمراحله.

(2) نور الثقلين 3: 358 عن تفسير القمي في الآية إلى‏ «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» فهي ستة اجزاء و ستة استحالات و في كل جزء و استحالة دية محدودة ففي النطفة عشرون دينارا و في العقلة أربعون دينارا و في المضغة ستون دينارا و في العظم ثمانون دينارا و إذا كسي لحما فمائة دينار حتى يستهل فإذا استهل فالدية كاملة

فحدثني أبي بذلك عن سليمان بن خالد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فان خرج في النطفة قطرة دم؟ قال: في القطرة عشر النطفة ففيها اثنان و عشرون دينارا قلت فقطرتان؟ قال: اربعة و عشرون دينارا قلت فثلاث قال:

ستة و عشرون دينارا قلت فأربعة قال ثمانية و عشرون دينارا قلت فخمس قال: ثلاثون دينارا و ما زاد على النصف فهو على هذا الحساب حتى تصير علقة فيكون فيها أربعون دينارا قلت فان خرجت متخضخضة بالدم؟ قال قد علقت ان كان ماء صافيا فيها أربعون دينارا و ان كان دما اسود فذلك من الجوف فلا شي‏ء عليه الا التعزيز لأنه ما كان من دم صاف فذلك للولد و ما كان من دم اسود فهو من الجوف قال فقال ابو شبل: فان العلقة صارت فيها شبه العروق و اللحم؟ قال: اثنان و أربعون دينارا العشر قلت ان عشر الأربعين دينارا اربعة دنانير؟ قال: لا انما هو عشر المضغة لأنه انما ذهب عشرها فكلما ازدادت زيد حتى تبلغ الستين، قلت فان رأيت في المضغة مثل العقدة عظم يابس؟ قال: ان ذلك عظم أول ما يبتدى ففيه اربعة دنانير فان زاد فزاد اربعة دنانير حتى يبلغ الثمانين، قلت: فان كسي العظم لحما؟ قال: كذلك إلى مائة قلت:

فان وكزها فقط الصبي لا يدري حيا كان او ميتا؟ قال: هيهات يا أبا شبل إذا بلغ اربعة أشهر فقد صارت فيه الحياة و قد استوجب الدية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 224

و اين دور من دور، ثم لا قيمة لهذا الجسد إلا لاستعداده حلول الروح بعيدا او قريبا، و كذلك الدية طبقا عن طبق دون فوضى جزاف.

... فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. هي اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، و كأنها ممضوقة مهشّمة، فلا هي لحمة كسائر اللحم، و لا هي مهضومة كسائر الهضم.

... فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً ...

ناعمة كأنعمها كما تناسب الجنين لأولى النشأة العظامية، عظاما فيها الأسس الاولية لكل عظام الإنسان الأصلية مهما خفّت و قلّت و رخت.

.. فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً .. و هنا لك تتم الصورة الجنينية دون إبقاء، و كيف هنا «كسونا» دون «خلقنا» خلاف التطورات السابقة، لان اللحم غير نابت من العظام، و غير متحول عنها، فخلايا العظام هي خلايا المضغة و العلقة و النطفة و ليست هكذا خلايا اللحم.

و هكذا كشف العلم اليوم النقاب عن وجه هذه الحقيقة الخفية، على ضوء تقدم علم الأجنّة، ان خلايا اللحم لا تشاهد و لا واحدة منها إلا بعد ظهور خلايا العظام و استكمال الهيكل العظمى، و هكذا «فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً» عارضا عليها من غيرها، من المواد المساعدة لنشوء الجنين في الرحم.

.. ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ عبارة ثالثة عن ذلك التطور الجنيني، أم رابعة بجعل الجعل أولا في «ثم جعلناه» تعابير قاصدة دقيق المعنى المرام، دون فوضى التعبير.

هناك جعل و ليس خلقا إذ لم يكن خلقا إلا قبل حيث‏ «خَلَقْنَا الْإِنْسانَ ..» و من ثم خلق في زوايا ثلاث، كل لاحق يتبنى سابقه، و كل تطور عن أسبقه مزيدا عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 225

ثم كسوة العظام لحما ليس في هذه التطورات له نصيب، و أخيرا- و بعد تكملة الجنين جسميا- «أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ»- دون خلقناه او جعلناه- مما يدل على ان المنشأ غير مجعول و لا مخلوق كمثلث الخلق او مربعة.

«انشأناه» الجنين، دون «انشأنا له» فليس الخلق الآخر الروح من غير جنس الجنين، مجرد ام سواه، بل هو هو إنشاء، فلم تتحول العظام المكسوة باللحم روحا، كما تحول كل من النطفة و العلقة و المضغة تاليتها ككل، و إنما «أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» ليس آخر كما كانت هذه الثلاث، و انما آخر في الحالة و الخاصة الحاضرة رغم كونه من المادة الجنينية.

فكما يقال انشأت الوردة جلابا و عطرا، و انشأت التراب الذهبي ذهبا، فالمنشأ سلالة و صفوة من المنشأ منه و ليس كلّه، كذلك الروح منشأ من نفس المادة الجنينية و ليس كلها، و لا بعضا منها كسائر أبعاضها، بل هو سلالة منها مصطفاة، لها خاصتها الخاصة التي ليست لسائر اجزاء الجنين مهما اشتركا في اصل المادة، كما الذهب و التراب! و كما الئيدروجين و هي أخف و أصفى الذرات بالنسبة لأثقلها و أكدرها.

و قد تعني «ثم» المراخية هنا- كما في‏ «ثُمَّ جَعَلْناهُ»- انفصال الروح عن البدن بعيدا من حيث الكيان، مهما كانا متحدين في الكون المادي، كما ان جعل النطفة متراخ عن خلقه من سلالة من طين، و الفاء في الثلاثة المتوسطة دليل التقارب و التماثل.

«ثم» بعيدا عن الكثافة الجسمية الجنينية و بعيدا عن كدرتها و الأكثرية الساحقة من آثارها «انشأناه»: الإنسان الميت لحد الآن «خلقا آخر» يختلف عن الاول في شاكلة المادة و خاصتها بحيوية شاعرة مريدة لم تكن له من ذي قبل، الا حركات تكاملية- ان صح التعبير- هي أتوماتيكية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 226

ثم الإنشاء هو إيجاد الشي‏ء و تربيته ناشئا عن الآخر، إذا ف «خلقا آخر» و هو الروح‏ «1» ناشئ عن البدن نفسه، مهما كان منفوخا فيه‏ «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» (32: 9) فتربية البدن تخليصا منه- صفوة مختارة و سلالة صافية غير كدرة- هي إنشاءه خلقا آخر.

فالإنسان قبل نفخ الروح خلق و هو بعد نفخة خلق آخر، مهما كان منشأ عن الاول، كما أن الحطب قبل حرقه خلق، و بعده- حيث يتحول نارا و دخانا- هو خلق آخر، و المادة نفس المادة إلا في الصورة المتحولة.

إذا فليس الروح مجردا عن المادة، فلا هو روحانية النشأة و لا روحانية البقاء، بل هو جسمانية نشأة و بقاء مهما اختلفت حالاته و تصرفاته و خاصياته عن البدن الميت.

إذا فشعوره دون البدن، و بقاءه دون البدن، و سائر ميزاته دون البدن لا يدل على شي‏ء إلا انه ليس هو البدن أو جزء عاديا من البدن، بل هو صفوة مختارة و سلالة منسلّة عن البدن، و علّ عقله سلالة عن مخّه و صدره عن صدره و قلبه عن قلبه، و سائر أبعاضه عن سائر أعضاءه حسب المناسبات و التجاوبات‏ «2».

فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ‏ 14.

و كيف هو احسن الخالقين و «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» حتى يكون هو أحسنهم؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 541 في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» فهو نفخ الروح فيه.

(2) لتفصيل البحث حول الآية و آية الروح راجع تفسير سورة الأسرى عند «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 227

علّه يعني فيما يعني: لو ان هناك خالقين فهو احسن الخالقين‏ «أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ» (37: 125) فلو ان بعلا خالق فاللّه هو احسن الخالقين! او يعني من جمع الخالقين خالقياته المختلفة حسب اختلاف الكائنات فقد جعل أحسنها في الإنسان‏ «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (95: 4) «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (17: 7).

أم ان الخلق في هذا الجمع أعم من حق الخلق، و من مجازه ككل صنع، فهو إذا احسن الخالقين، و قد نسب الخلق بهذا المعنى الطليق إلى الخلق‏ «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً» (29: 17) كما نسبه إلى المسيح مقيدا له باذنه‏ «وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي» (5: 110) «1».

هذا و لكن الخلق الربوبي و هو حق الخلق، يختص برب العالمين:

«ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (6: 102) «قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ» (13: 6) «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» (35: 3).

و من الأقاويل المختلقة الزور هنا ان ذلك التعقيب مما جرى على لسان عمر قبل ان يسمع وحيه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 541 في كتاب التوحيد باسناده إلى الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) حديث طويل و فيه: قلت جعلت فداك و غير الخالق الجليل خالق؟ قال: ان اللّه تبارك و تعالى يقول: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ‏ «منهم عيسى بن مريم (عليه السلام) خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فنفخ فيه فصار طائرا بإذن الله و السامري اخرج لهم عجلا جسدا له خوار.

(2) الدر المنثور 5: 6- اخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر عن صالح أبي الخليل قال: نزلت هذه الآية على النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الى قوله: ثم انشأناه خلقا آخر قال عمر: فتبارك اللّه احسن الخالقين فقال و الذي نفسي بيده انها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 228

تفضيلا للخليفة على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ما أكثره في أمثال هذه المختلقات الزور من روات كاذبين مبتدعين!.

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ 15 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ‏ 16.

«ثُمَّ إِنَّكُمْ» بعد تلكم الحياة الدنيا، بانقضاء أجلها المحتوم او المعلق‏ «بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ» انتقالا إلى حياة برزخية «ثم» بعد انقضاء البرزخ‏ «إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» العامة «تبعثون» من اجداثكم في أرواحكم باجسادكم الاصلية التي كنتم فيها تعيشون.

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ‏ 17.

هذه طرائق سبع تعني السماوات السبع و اخرى في الجن تعني طرائقهم القدد المفصولة عن بعض في سبلهم الحيوية العقيدية و العملية: «وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً» (72: 11).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ختمت بالذي تكلمت يا عمر.

أقول و

في تفسير الفخر الرازي 23: 86 فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هكذا نزلت يا عمر و كان عمر يقول: وافقني ربي في اربع في الصلاة خلف المقام و في ضرب الحجاب على النسوة و قولي لهن لتنتهن او ليبدلنه اللّه خيرا منكن فنزل قوله تعالى: عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن. و الرابع قلت: فتبارك اللّه احسن الخالقين فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هكذا أنزلت‏

و

فيه روى الكلبي عن ابن عباس‏ ان عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فلما انتهى إلى قوله تعالى: خلقا آخر عجب من ذلك فقال: فتبارك اللّه احسن الخالقين، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

اكتب فهكذا أنزلت فشك عبد اللّه و قال: ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى إلي كما يوحى اليه و ان كان كاذبا فلا خير في دينه فهرب إلى مكة فقيل انه مات على الكفر و قيل انه اسلم يوم الفتح!!!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 229

و لان «طرائق» هي جمع طريقة دون طريق، فكلّ سماء فوقنا- إذا- طريقة بالإمكان التطرق بها إلى ما فوقها و إلى السابعة إلى السدرة المنتهى، و كما تطرّقها كلها رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و كما يتطرق من فوقها إلى تحتها و إلينا، فهي السبل المطروقة لبعض المقربين السابقين كالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و للملائكة «وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» (19: 64) و لأمره المدّبر «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» (65: 12) «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» (32: 5) و لنزول الأمطار «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ..» (18) «وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ» عن هذه الرحمات الروحية و سواها المتنزلة بين الأرضين و السماوات، فالكون كله بسماوته و أرضيه وحدة مدبرة من عليم حكيم، سبحان الخلاق العظيم.!

نحن و حتى الآن- على ركب العلم السريع السير- لم نتطرق إلا بعض الأبواب من طريقة السماء الأولى، فأنى لنا السير في سائر طرقها و الطرائق الست الأخرى سبحان الخلاق العظيم! وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ‏ 18.

من هذه الطرائق السبع طريقة الماء من السماء إلى الأرض، فقد كانت أرضنا هذه محروقة عطشانة قبل حياتها و الحياة عليها، فانزل اللّه عليها من ماء السماء بقدر مقدر فأسكنه في الأرض نصيبا لها خاصا، فالأبخرة المائية الأرضية الصاعدة إلى السماء ترجع كما هيه ماء دون زيادة و لا نقيصة، اللهم إلا زيادة في حالات استثنائية كطوفان نوح: «وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي» ف «ماءك» هو الماء النازل إليها بقدر الساكن فيها على حذر: «وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» ذهابا عن بكرته كما في يوم قيامتها، ام ذهابا مؤقتا عن قدره تجديبا كما يفعله أحيانا في ارض دون اخرى، و لكي يعلموا «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 230

إذا فكل مياه الأرض هي من نازل السماء دون إبقاء، كما و يؤيده التهديد في‏ «وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» و ذلك خلافا لما كان يزعمه الإنسان إلى وقت قريب ألّا علاقة بين المياه الجوفية و المياه السطحية، و القرآن يقرر العلاقة الوثيقة بينهما و أن الكل من نازل السماء.

فلا تعني‏ «فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ» سكناه فيها دون صعود مؤقت، و انما تعني ان النازل منها بقدر إليها هو نصيبها الخاص، دون ان يصعد بأسره إلى غيرها و يبقى.

و مما يلمح له «فأسكناه» ملحّقا «بذهاب به» انه لولا إسكانه فيها لما رجعت امطارا عن الابخرة الصاعدة عنها، فان طبيعة الحال في الماء المحكوم بحرارة الشمس و سواها الصعود إلى السماء، و قضية إسكان ماء الأرض فيها رجعه مطرا إليها بعد تبخّره: «وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ» أمانات الأرض من ماء و سواه.

اجل «ماء بقدر» دون افراط و لا تفريط «وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ. عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ» (13: 9) «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15: 21).

فهناك في النطفة «فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ» بغية تحوله إلى جنين، و هنا «فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ» كذلك الأمر، حيث الماء كنطفة و الأرض قرار مكين بغية حياتها بإنشاء مختلف النبات:

فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ‏ 19.

فكما هناك في نهاية المطاف للأطوار الجنينية «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» حياتا بعد ممات، كذلك هنا «فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ ..» حياة بعد ممات و اين حياة من حياة هي في احسن تقويم!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 231

و علّ تخصيص‏ «نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ» بالذكر بين‏ «فَواكِهُ كَثِيرَةٌ» لأنهما طعام و إدام و فاكهة رطبا و يابسا دون سائر الفاكهة، و ان منافعها تحلّق على سائر المنافع كما:

وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ‏ 20.

و هي الزيتونة و علّها في أصلها خارجة من طور سيناء ثم انتشرت في غيره، ام هي فيه أطيب من غيره، ام اكثر و أوفر، و القصد «مِنْ طُورِ سَيْناءَ» المحيط الشرق الأوسطي الأقرب الى الطور فالأقرب، و من ميزاتها بين سائر الشجر انها «تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» و علّ الباء هنا سببية فهي تنبت بسبب الدهن، حيث الأصل النابت عليه هو الحصى التي تحمل الدهن، و كذلك هي تعدية تنبت دهنا، ام و معية، و بالدهن حال ل «تنبت» فهي تنبت مع الدهن، و هذه هي الشجرة الوحيدة بين الشجر حيث تنبت بالدهن، و كذلك‏ «صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ» يصبغون به خبزهم و طعامهم فتصبح سابغة طيبة الطعام، سريعة الهضم، كما و تصبغ أمعاءهم.

فالزيتونة هي ضوء و إدام و طعام و شفاء من داء، فهي منقطعة النظير بين سائر الشجر و

لقد جاءت الرواية عن خير البشر: «الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه و ادهنوا» «1».

وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ 21 وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ‏ 22.

هنا «مِمَّا فِي بُطُونِها» و في النحل‏ «مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ» (66) و لقد فصلنا القول فيه فيها فلا نعيد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 543، في المجمع في الآية و قد روي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 232

«و عليها»: الأنعام الرّكوب و الفرش أمّا بالإمكان ان يركب‏ «وَ عَلَى الْفُلْكِ» أيا كان «تحملون» و ذلك جمع بين حمل البر و البحر بنعمة اللّه.

و ان لكم فيها لعبرة لمن القى السمع و هو شهيد، لمن ينظر بعين عقله و يبصر ببصيرته، عبرة يعبر بها الى خالقها الكبير المتعال، سبحان الخلاق العظيم.

[سورة المؤمنون (23): الآيات 23 الى 56]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (23) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (25) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (27)

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (28) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (32)

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (34) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37)

إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (39) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (42)

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (44) ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى‏ وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (45) إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ (46) فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (47)

فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (48) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْناهُما إِلى‏ رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ (50) يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (51) وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52)

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ (55) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (56)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 235

هنا انتقالة بارعة من دلائل الايمان إلى واقع الايمان الذي جاء بها رسل الايمان، و ما واجههم الطغاة المستكبرون على مدار الزمان طول خط الرسالات منذ نوح إلى خاتم النبيين، و هم يحملون رسالة واحدة إلى امم هم في الحق امة واحدة، حيث الدعوات الرسالية صيغة واحدة في الجذور مهما اختلفت في بعض الصور و القشور، قضية مختلف الظروف و الابتلاءات في مختلف العصور.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ‏ 23.

«نوح» هو أول نبي من اولى العزم الذين دارت عليهم الرحى و لقد اختصت باسمه سورة تحدثنا عندها عن مدى رسالته و دعوته الصعبة الصارمة، و تصدّيات و عرقلات قومه العارمة، و هذه الدعوة التوحيدية هي إجمال عن كل تفاصيل دعوته المفصلة في آياتها.

هنا «اعْبُدُوا اللَّهَ» و في هود «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» (2) و الاولى لا يستلزم الثانية، فانها نص في توحيد العبودية و تلك مطلقة، و ليست مقالة نوح لقومه الا التوحيد، فما هو التوفيق؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 236

المشركون كانوا و لا يزالون يعبدون غير اللّه و لا يعبدون اللّه لا توحيدا و لا اشراكا، و اطلاق الإشراك على عبادتهم لا يعني الجمع بين العبوديتين، و انما لأنهم يعبدون من لا يستحق، كأنه اللّه الذي يعبد، فهي إذا إشراك في اصل استحقاق العبادة لا من حيث واقع الشركة، فاللّه- في زعمهم- شريك في الاستحقاق، و ليس له نصيب العبادة في الواقع حسب الزعم انه أعظم من ان يعبد بنفسه، فليعبد شركاءه: «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» فلو كان يصح عبادته لم تصح عبادة غيره.

ثم‏ «ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» قائم مقام ذلك الحصر «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و حتى بالنسبة لمن يجمعون بين العبادتين، كما هو واقع في آخرين من المشركين و من مقالهم‏ «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» (26: 98) و الشرك الاول ليس- في زعمهم- تسوية، ثم و من مصاديق الإشراك الواقع في العبادة رئاء الناس، حيث المعبود الأصل فيها هو اللّه، اضافة إلى رعاية الناظر رئاء له «أ فلا تتقون» الشرك باللّه، و «لا تتقون» عذاب اللّه؟.

و هنا «ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ» برهان لا مرد له لحصر العبودية في اللّه إذ لا يعبد الا الإله و لا اله الا اللّه، فلا يعبد الا إياه.

و لكن الملأ المستكبرين من قومه الذين لم يناقشوا أمثال هذه الحجج الباهضة الناهضة للهدى، انهم تغافلوا عنها بصورتها العامة و اخلدوا إلى شخصياتهم الوهمية قياسا إلى شخص نوح كالسا فالسا في حقول البرهان:

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ‏ 24.

«من» هنا تبعّض قومه الكافرين إلى الملأ المستكبرين الأشراف و سواهم، و هذه الأقاويل ليست الا منهم الأصول دون الهوامش الأتباع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 237

اللهم الا تبعا لهم و لفظ قول، و لم يؤمن احد من ذلك الملإ و كما يحكي عنهم القرآن دون تكذيب‏ «وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ» (11: 27).

نقول لهؤلاء الأنكاد و حماقي الطغيان إذا كان بشر- لأنه مثل سائر البشر- لا فضل له على أضرابه فكيف أنتم تفضلون أنفسكم- بزيادة المال و المنال و القوة و الأولاد و سائر زخرفات الحياة- على من يفقدها، و هذه كلها من حيونات الحياة، ثم لا ترضون ان يتفضل ذووا الفضل في الروحية الانسانية- و هي أصلها و جمالها- على من يفقدها، و ليهديهم إلى صراط مستقيم.

فيا له من برهان قاحل جاهل هو عليهم أنفسهم قبل أن يكون على رسل اللّه لأنهم بشر.

ثم هم يهتكون ساحة البشرية حيث لا يستأهلونها لابتعاث نبي لهم من أنفسهم لحد الإحالة: «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً» إحالة لإرسال اي رسول، ثم على فرض إمكانيته فليكن من الملائكة.

ثم تلحيقا لذلك النكران النكير يستندون إلى‏ «ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ» و طبعا المشركين، و هم شرع سواء في استحالة او استبعاد ابتعاث بشر إلى بشر.

يستندون في نفي التوحيد إلى حقل الشرك القديم، و هو جديده و قديمه على سواء في كونه خواء و عراء عن اي برهان، الا دعايات زور و غوغائيات غرور، يرأسهم في كل ذلك الغرور!.

و لا فحسب انهم نزّلوه إلى منزلة البشرية المماثلة لسواه، غير المفضّلة على من سواه، بل و نزلوه عنها ايضا إلى حقل المجانين اسقاطا لرأيه عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 238

بكرته حتى لا يسمع كبشر مثل سائر البشر:

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ‏ 25.

به جنة لأنه يخالف آراءنا و آباءنا الأقدمين في أصالة الشرك، و انه يدعي ضرورة المستحيل في بعدين: ان ينزل اللّه شيئا، و ان يرسل بشرا رسولا «فَتَرَبَّصُوا بِهِ» نظرة علاجه عجالة ام أجالة «حتى حين» يعافى عن جنته، فسوف ترون انه لا يقول قوله الآن، ام «حتى حين» يموت على جنته فنستريح من دعايته الجنونية، ام «حتى حين» يظهر تصلبه في دعوته فتقضوا عليه في ذلك الحين، ام «حتى حين» تظهر جنّته و يظهر حقنا عليه، حينات اربع قد تعنيها كلها «حتى حين» إذ لا برهان لواحدة منها دون أخرى حتى حين.

و هذه الدعاية النحسة هي بطبيعة الحال مؤثرة في المستضعفين العائشين تحت نير الذل، المحتاجين إلى رحمة المستكبرين، حيث العقل هو خير ما يرام، فمن به جنّة لا يرجى منه أي خير حتى إذا كان ممكنا و هو منه متمكن فضلا عن الدعاوي الشاردة المستحيلة غير الواردة في‏ «آبائِنَا الْأَوَّلِينَ».

إذا فاتّباعه خروج عن العقلية الانسانية، و سنة الآباء القدامى! تحذير خطير يتحذر منه كل مسامح عن عقله، متاجر بانسانيته الحرة البالغة.

هنا- و لما لا يجد نوح منفذا إلى هذه القلوب المتحجرة- يستنصر ربّه لكي يهديه سواء السبيل:

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ‏ 26.

و هذه آخر المطاف من تصبّره على أذاهم، و تحمّله لظاهم طول الف سنة الا خمسين عاما، و قد تكون اجمالا عن تفاصيل دعواته لربه طول هذه المدة كما في آيات عدة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 239

«قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (26: 118) «وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً» (71: 27) و ذلك بعد ما أخبره ربه‏ «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» (11: 34).

فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ‏ 27.

«اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا»: رقاباتنا، كما تناسب صناعة فلك النجاة عن البحر اللجي «و وحينا» فقد كانت هندسة الفلك تماما و صناعته بوحي اللّه، إذ لم يكن نوح صانع الفلك، و لا ان مصنوع الإنسان دون وحي يتمكن من الإنجاء في هذه الهلكة الشاملة، فليكن إذا صنع الفلك‏ «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» «وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ» (11: 42) «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14).

أ ترى فلكا تصنع بأعين اللّه و وحيه، و هي تجري بأعين اللّه، أ تراها تغرق او تتكسر في موج كالجبال و اللّه ربّانه! «فَإِذا جاءَ أَمْرُنا» بغرقهم و دلالة عليه بإمارة عجيبة خارقة العادة كنفس الغرق الجماعي، «وَ فارَ التَّنُّورُ» فوران ماء الغرق من تنور النار دون سائر التنور المؤوّل، ثم و ما ندري اين هو «1»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قيل انه تنور آدم و كان من حجارة فصار إلى نوح و اختلف في مكانه فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده و كان نوح (عليه السلام) عمل السفينة في وسط المسجد، و قيل بالشام بموضع يقال له عين وردة و قيل بالهند.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 240

«فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ» اسلك‏ «أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ»: امرأته و ابنه‏ «وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» رسالة اللّه و عباد اللّه، سواء أ كانوا من أهلك ام سواهم‏ «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» كلمة واحدة لا رجعة فيها.

و لان السلوك هو النفاذ في الطريق، و هذه الفلك كانت طريق النجاة، إذا «فاسلك» لا تعني- فقط- الإدخال، و انما التمكين و الإنفاذ لكامل الإنقاذ.

ثم «من كلّ» تعني من كلّ الخليقة الا الناس، ام كلهم لمكان الاستثناء: «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» الا ان «أهلك» قبلهم يؤيد الأول، إذ كان يكفي الاستثناء دون ذكر اهله، ان كانوا معنيين في‏ «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ».

و ترى‏ «أَهْلَكَ إِلَّا ..» هم فقط كانوا ناجين، فلم يؤمن طيلة الف سنة إلا خمسين عاما الا اهله الثمانون، الا امرأته و ابنه كانا من الغابرين؟

عله نعم حيث‏ «وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» (37: 76) «وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» (21: 77).

و قد يعني «اهله» اهله نسبيا و سببيا إلا من سبق، و اهله ايمانيا كما تدل عليه‏ «وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ثم قيل ان التنور هو وجه الأرض عن ابن عباس ام هو تنور الشمس و نورها طلوعها عن علي (عليه السلام)، ام هو الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء اليه عن الحسن و لكن هذه التنانير خارجة عن التنور المعروف لغويا، و لو كان كل يراد لاتي بلفظه الخاص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 241

(11: 40) فالقلة الثمانون طول هذه المدة بين الملايين، هم اهله الا من سبق و من آمن من غير اهله، إذا «فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ» هم ليسوا كل قومه، بل هم- فقط- «الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا».

و ذلك آخر المطاف لقوم صلد صلب هم حجر عثرة في حياة الإنسان و عقبة كئودة كائدة في طريق الايمان، و لأنهم كانوا في فجر البشرية في بدايات الطريق، فشاءت ارادة اللّه الإطاحة بهم من الطريق المرسوم للانسانية جمعاء، تحطما لهذه المتحجرات المتفجرات في وجهها، فتحتّما من سلوك سبيلها إلى النجاة، و لتسري ركب الانسانية قدما إلى الحياة المرماة.

فقد غسل الطوفان هذه التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد:

«وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ».

ذلك! و قد كان بالإمكان ان ينزل اللّه عليه فلكا من السماء، او يصنعه هو دونه، و لكنه شاء ان يصنع نوح فلك النجاة بيده، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب، و بذل ما في طوقه، ثم يمده اللّه في الخارج عن طوقه، و النجاة القاطعة بالفلك كانت بان يصنعها «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» و كما هي‏ «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»! فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 28 وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ‏ 29.

«فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ» يا نوح‏ «وَ مَنْ مَعَكَ» المؤمنين و الحيوان، و الاستواء هو الاستقرار: ان يأخذ كلّ مستقرّه و قراره كقرار البيت‏ «فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» كواجب الحمد للّه‏ «الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» من بأسهم البائس و من الغرق معهم، و هذه مرحلة اولى من النجاة حالة الطوفان، ثم‏ «وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً» نفس النزول و مكانه و زمانه، مباركا في زواياها الثلاث‏ «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ»-

«اللهم أنزلنا منزلا مباركا و أنت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 242

خير المنزلين» «1».

هنا «أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ» فلما ذا «فقل- و قل» و هم عدة؟ عله لأنه إمامهم، فقوله قولهم و كلما يقوله بأمر اللّه فهم قائلوه و قائلون به قضية الإمامة المحلّقة على كل قال و حال و فعال، و لا سيما في هذه الحالة الخطرة و الرحمة العطرة المستوجبة لقالة الحمد و الدعاء و الاستدعاء.

فقطع دابر الظالمين يتطلب الحمد له من المظلومين، بل و اللّه يقولها تعليما لهم و تأديبا «فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (6: 45).

و ترى كيف أصبح الإستواء على الفلك نجاة لمّا تنزل منزلا مباركا؟

لأنها صنعت بعين اللّه و وحي اللّه، و هم ركبوها باسم اللّه: «وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» (11: 41) و هي‏ «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14) أ فيبقى بعد هذا من شك في النجاة؟! إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ‏ 30 «إن» مخففة عن مثقلة تعني تأكيد مدخولها و كذلك اللام، تأكيدان اثنان انه تعالى يبتلي عباده بألوان البلاء، ابتلاء لنوح و من آمن معه بالصبر و الشكر، تمحيصا للشكر و التوجه و التأديب و الأجر و التقويم، و ابتلاء للذين كفروا بازدياد الكفر و الكفران و النكران و إلى مصير النيران.

«إِنَّ فِي ذلِكَ» العظيم العظيم في تاريخ الرسالات و لفجرها و بزوغها «لآيات» تدل المستدلين على علمه و حلمه و حكمته و قدرته،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 544 في الفقيه قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام) يا علي إذا نزلت منزلا فقل: ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 243

و واقع وعده للمؤمنين و على الكافرين‏

«يا ايها الناس ان الله قد أعاذكم من ان يجور عليكم و لم يعذكم من ان يبتليكم و قد قال: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ» «1».

و «كنا» هنا تضرب إلى اعماق الماضي الضارب إلى مثلث الزمن كسنة إلهية يوم الدنيا.

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ‏ 31.

و هم ذرية نوح حيث‏ «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» و تراهم ذرية النسب؟ فما شأن المؤمنين الآخرين! علهم اهله الناجون حيث تعم ذرية النسب و ذرية الإيمان بغير النسب، بل هم ذرية الايمان ككل في نسب او سبب ام غير سبب و لا نسب، و قد تلمح له سابقتها: «وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» مع العلم ان اهله أعم من اهله الخصوص كما دلت عليه آية هود «وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ» (40).

و اما ان نوحا هو الأب الثاني للبشر، فهو ان كان ثابتا فليس يستغرق كل البشر، و انما- على اكثر تقدير- الاكثرية الساحقة اللاحقة من البشر حيث انتسلوا من ذريته في النسب و هم ثلة ثم الآخرون هم قلة و ترى‏ «قَرْناً آخَرِينَ» هم كل المنتسلين من الناجين في الفلك؟ و ما كان كلهم كافرين! ام انهم خصوص الكافرين منهم المكذبين؟ و لا يختصهم ذلك الإنشاء الجديد! «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ» هي عبارة أخرى عن‏ «قَرْناً آخَرِينَ» و لكنه يقصد منهم في حقل الدعوة الرسالية من هم أضراب قوم نوح.

و مهما اختلفت الآراء في: من هم هؤلاء المكذبون؟ الا ان في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 544 و في نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 244

انشاءهم بعد قوم نوح، و إرسال رسول فيهم بعد نوح، برهان قاطع لا مرد له انهم عاد قوم هود فإنهم كانوا بعد قوم نوح و كما خوطبوا «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ» (7: 69) كما و جاءت قصة عاد تلو قصة نوح في سورة الأعراف و هود و الشعراء و هم يذكرون قبل ثمود فيما تجمعهما من آيات، إذا فهم‏ «قَرْناً آخَرِينَ» مهما كان منهم مؤمنون:

فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ‏ 32.

و صيغة الدعوة نفس الصيغة السابقة السابغة، حيث الرسالة واحدة و امم الرسل هم امة واحدة في هذه الدعوة التوحيدية، و كما المعارضة ضد الدعوة نفس المعارضة، سلسلة موصولة طول تاريخ الرسالات رسلا و مرسلا إليهم:

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ‏ 33.

«وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» و هم في ثالوثهم المنحوس‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا- وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ- وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» قالوا قيلتهم في نكران الأصل الثالث: الوحي و الرسالة: «ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» فانه‏ «يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ» آخذين المماثلة في حيونة البشرية و حاجياتها المادية دليل المماثلة المطلقة بين بشر و بشر، متغافلين متجاهلين عن رحمات روحية و ان اللّه يمن على من يشاء من عباده، فمقياسهم الاول و الأخير هو المادة و المادة فقط «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ» (47: 12) و الإتراف- و هو التوسيع في النعم فوق الحاجة- انه يحجب الفطرة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 245

و يغلّظ المشاعر، و يغلّط الشعور، و يسد المنافذ و تفقد القلوب حساسيتها المرهفة، فالمترفون كالعفن يفسدون الجو الذي فيه يعيشون، و لا سيما إذا كانوا كافرين باللّه و يوم لقاء اللّه.

ثم هم يمحورون المماثلة في البشرية لإبطال الطاعة و هم يطيع بعضهم بعضا و المماثلة نفس المماثلة، لأنهم يمحورون فضل المادة و الترف أصلا أصيلا وحيدا في التفضيل:

وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ‏ 34.

حيث المماثل يجعل من طاعته لمماثله ترجيحا بلا مرجح، لأن الرجحان عندهم هو فقط في ميزات الحيوان، متغافلين عن انسانية الإنسان.

و ترى إذا كانت طاعة المماثل في البشرية خسارا، فلما ذا هم أنفسهم يحمّلون طاعتهم على من دونهم؟ أ لأنهم- فقط- بشر و سواهم حيوان؟ أم هم مناقضون في قيلاتهم الويلات، و ذلك هو الملاحظ فيها عند كل حماقى الطغيان، ثم وهم بأتباعهم يعبدون أحجارا و اخشابا و اين الجماد من الإنسان؟

و منهم من هم يحتجون على نكران رسالة البشر انهم و إياهم في اصل البشرية سواء و في فضلها المادي لا سواء «وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى‏ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» (43: 31) و هؤلاء اقل من أولاء خطأ مهما هم كلهم مخطئون.

ذلك! و من ثم يحاولون إحالة رسالة هذا الرسول البشر لدعواه البعيدة عندهم كحجة اخرى على دحضه بمحضه:

أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ 35 هَيْهاتَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 246

هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ‏ 36.

«إِذا مِتُّمْ» زوالا للحياة «وَ كُنْتُمْ تُراباً ...» زوالا للأجساد «أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ» من اجداثكم بأرواحكم و أجسادكم، فيا له مراما ما أبعده‏ «هَيْهاتَ هَيْهاتَ» بعيدا بعيدا لحد الاستحالة «لِما تُوعَدُونَ»: «أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ» و هم بهذه الحجب الثلاث عن واقع المرام و عن الحق المرام، هم مرتكسون ركسة الحيونة الرذيلة، منتكسون إليها عن كل فضيلة، و قد هدرت ميزات الانسانية فيهم‏ «أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ»! ثم هم بعد هذه الدعاية و الدعوى يحصرون الحياة في حياتهم الدنيا ليست الا:

إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ‏ 37.

ذلك و كما قال نظرائهم: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» (6: 29) «وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (45: 24) و علّ الآخرين- فقط- هم دهريون كما قد تشهد ما قبلها: «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ..».

و تراهم حين يحصرون حياتهم في الحياة الدنيا، كيف يقدّمون «نموت» على «نحيى» و الحياة بعد الموت هي الحياة الأخرى، تناقضا صارحا صارخا ينقض دعواهم الاولى؟.

قد تعني «نموت» جماعة مثلنا نحن الأحياء ثم لا نبعث «و نحيا» جماعة اخرى لمّا يحيوا، و هم- كما نحن- يموتون ثم لا يبعثون، و يجمع عدم بعثهم احياء و أمواتا «وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» سواء الأحياء الحاضرون الذين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 247

يموتون، او الذين سوف يحيون ثم يموتون.

ام ان «نموت» تعني ما تعنيه «نحيى» مقالة التناسخية، فكل من يموت عن جسده يحيى في آخر حتى تنتهي الحياة الدنيا ثم لا حياة بعدها.

ام انه بيان واقع حياتهم بعد موتهم خلاف زعمهم، اضافة إلى الأوّلين، فأصبحت الآية تجمع بين هذه الثلاث، و المجموعة صالحة دلاليا و معنويا لتعنيها، و ما أجملها عبارة و ألطفها جمعا بين الواجهات المعنية حقا و زعما.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ‏ 38.

و هنا أصبحوا وكلاء عن اللّه يذودون عن ساحته فرية الرسالة التي هي قضية ربوبيته العادلة الرحيمية.

فهم- إذا- لا يؤمنون بمدعي الرسالة قضية إيمانهم باللّه، معاكسة هارعة رأسا على عقب، و كأنهم هم الصادقون في ايمانهم إذ لا يؤمنون بمن يفتري على اللّه كذبا، فليشكرهم اللّه على ذلك و يشكرهم الشاكرون! و لما وصلت حالتهم البئيسة التعيسة الآية هذه الهارفة النحيسة، حيث صمت آذان قلوبهم و عميت ابصارها.

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ‏ 39.

نصرة كما نصر نوح على قومه الظالمين مهما اختلفت صورتها، فطمأنه ربه بالاجابة:

قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ‏ 40.

و ماذا تفيدهم الندامة و الإيمان- لو آمنوا- عند رؤية بأسهم؟! فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏ 41.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 248

«بالحق» هنا قد تعني بسبب الوعد الحق، او مصاحبة الحق الذي رفضوه، او الحق الذي وعدوه، و الصيحة هي التي جعلتهم كالرميم، حيث خلّفت الريح العقيم‏ «وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» (51: 42).

و الغثاء هي هشيم الأوراق: «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ» (54: 31) فقد عاجلهم اللّه بهلاك الاستئصال فطاحوا كما يطيح الغثاء إذا سال به السيل الجارف، حيث الغثاء ما حملت السيول في ممرها من أضغاث النبات و هشيمها، فكأنهم هلكوا و لم يحس لهم اثر كما لا يحس اثر ما طاح به السيل من غثاء، فجعلناهم كالغثاء الطافح في سرعة انجفاله و هوان فقدانه و اضمحلاله‏ «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ‏ 42.

كثمود قوم صالح و سائر الفراعنة و النماردة المعرقلة لمسير الرسالات.

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ‏ 43.

فان اجل العذاب المهدّد محدّد بما يراه اللّه، «ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها» المقدر لها ان يعجلها «وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ» تأجيلا لها، فانها من الآجال المحتومة الأممية حين تستحق العذاب ولات حين مآب.

و هذه سنة اللّه الجارية في تاريخ الدعوات الرسالية، كل قرن يستوفي اجله و يمضي غثاء:

ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ‏ 44.

«ثم» بعد نوح إلى موسى‏ «أَرْسَلْنا رُسُلَنا» من ولي عزم كإبراهيم ام سواه كسواه‏ «تَتْرا» تلو بعض البعض و لصق بعض، متواترين في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 249

سلسلة الرسالة و الدعوة دونما انقطاع‏ «كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ» دونما انقطاع، و كأنهم تواصوا بينهم‏ «فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً» في عذاب الاستئصال مهما اختلفت ألوانه و أطواره‏ «وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ» إذ لم نبق منهم على اثر فلم تكن منهم من باقية الا «أحاديث» عنهم في صفحات التاريخ و ألسنة الناس و بقيت العبرة ماثلة امام الناس في مصارعهم، حيث محيت العيون و عفيت الآثار فلم تبق منهم الا الآثار «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»- «فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ‏! ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى‏ وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ 45 إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ 46.

و هنا إرسال كسائر الرسالات بآيات كسائر الآيات و سلطة البرهان كسائر السلطات الرسالية، مهما اختلفت في بنودها و قيودها و مظاهرها، و انما يذكر هنا موسى بعد رسل تترى لأنه كان يحمل ولاية العزم في أعظم رسالة إلهية و أبعدها غورا، و أعمقها طورا، و أكثرها عراقيل، و أشدها في مواجهة الأباطيل، فكانت- إذا- قمة رسالية مرموقة، كما ان آياتها بعد القرآن قمة منقطعة النظير.

«الى فرعون» رأس الزاوية الطاغية «و ملائه» هوامش الضلالة «فاستكبروا» عن هذه الرسالة بصيغة مطردة بين المستكبرين المكذبين‏ «وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ» في كافة القدرات الزمنية و المقدرات المادية، و بطبيعة الحال كانوا مستعلين.

فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ 47 فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ‏ 48.

فصيغة التكذيب نفس الصيغة و هم كانوا مؤمنين لبشر مثلهم و هم له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 250

عابدون! كما و هلاك التكذيب نفس الهلاك مهما اختلفا امهالا و املالا، و صورة و مثالا.

و قد يعنون ب «وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ» ان لنا الفضل عليهما كما عليهم فليعبدانا كما هم إيانا يعبدون، و قد تعني العبادة الخضوع الطليق. و هذه معاكسة مرتكسة امام الدعوة الموسوية.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ‏ 49.

«لعلهم» فرعون و ملؤه و بني إسرائيل و سواهم من المكلفين «يهتدون» على هديه و هو اوّل كتاب رسالي يحمل شرعة مفصلة رئيسية و من ثم القرآن العظيم إلى يوم الدين.

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْناهُما إِلى‏ رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ (50).

و لماذا «ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً» و هما اثنان، و كل- إذا- آية؟ حيث القصد من «آية» هنا هي الآية الخارقة الرسالية، و هما معا يشكّلان آية الولادة دون أب.

«و آويناهما» إسكانا مطمئنا في مأوى مريح «الى ربوة» مكان مرتفع راب من الأرض، هي‏ «ذاتِ قَرارٍ» لعيشة راضية دون اضطراب «و معين» ماء جار.

و قد عبر عن هذه الربوة في «مريم» ب «سريا»: «فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى‏ جِذْعِ النَّخْلَةِ .. فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا. فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً ..» (36)

و قد تعني ربوة القدس الشريف، و هو ربوة بعد ربوة، قد تعنيهما معا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 251

«رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ» حين الولادة، و ذات قرار بعدها، و يروى انها دمشق الشام‏ «1» و علها توسعة للقدس حيث الشام كان يشمل تلك الدويلات الحاضرة من فلسطين ككل و لبنان و سوريا و الأردن.

يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ 51 وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ 52 فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ‏ 53.

«إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (21: 93): نداء عام للرسل أولا في بعد البشرية «كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ» فليست محرمة عليهم مهما حرمها عليهم حارمون حراميون، فلا اصل الاكل ينافي الرسالة و لا أكل الطيبات: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (7: 32)

«فان الله طيب لا يقبل الا طيبا و انه امر المؤمنين بما امر به المرسلين» «2».

ثم في بعد الايمان‏ «وَ اعْمَلُوا صالِحاً» فلا تضمن لكم رسالتكم صالحا دون ان تعملوا صالحا، و ليست الرسالة سياجا عن عقوبات التخلفات،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 10- اخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي امامة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه تلا هذه الآية قال: أ تدرون اين هي؟ قالوا: اللّه و رسوله اعلم، قال: هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدن الشام.

(2)

نور الثقلين 3: 545 في المجمع. روي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه .. فقال: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ. كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ..» و قال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 252

بل و المسؤولية الرسالية تملي صالحا اكثر.

ثم البعد الثالث «ان هذه» الأمم بأسرها «أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً» في مسيرها و مصيرها لوحدة الرسالة فوحدة الائتمام‏ «وَ أَنَا رَبُّكُمْ» لا سواي «فاعبدون» لا سواي.

فالحكم الحاكم عليهم في كل دور رسالي هو شريعة من الأمر تصدر عنه و تتجه اليه دون تقطّع، و ليس عديد الشرائع من ذلك الأمر الدين تقطيعا لأصل الأمر فانه مصدرها بأمر اللّه‏ «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ» «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ»، و لكنهم:

«فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً» حيث جعلوا عديد الزبر للشرائع وسيلة للتقطع تحريفا لها و تهريفا بها، و تحزبوا أحزابا كتابية متناحرين بحربة شرعة ضد شرعة و كتاب ضد كتاب «كل حزب» من هؤلاء المتقطعين‏ «بِما لَدَيْهِمْ» كأنه الحق و سواه باطل «فرحون» و اللّه لا يرضى من عباده تقطعا في أمره‏ «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْ‏ءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (6: 159) «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 118) خلقهم لرحمة الوحدة و وحدة الرحمة على ضوء توحيد الكلمة على كلمة التوحيد في كل زمن كما يريد اللّه، فلا اممية في امر اللّه و دينه و لا رايات مختلف الكتابات السماوية، كلّ ضد الأخرى، محاربة شرعة إلهية لأخرى!.

ففي كل دور من الأدوار الخمسة الرسالية الاصيلة يجب على العالمين ككل اتباع رسولها، ثم إذا جاء دور التالي، فعلى الكل النقلة إلى التالي و للتالي إلى الشرعة القرآنية التي تحلّق منذ بزوغها على الطول التاريخي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 253

و العرض الجغرافي و إلى يوم الدين‏ «1».

و من مصائب التحجر في ذلك التقطع ان كل قطاعة متحزبة ضد الاخرى ترى الحق معها كله و الباطل مع من سواها كله، فتمضي فرحا مرحا لا تفكر في شي‏ء و لا يلتفت إلى شي‏ء إلا إلى شيئه المتقطع، مغلقة على أنفسها جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة، او يدخل إليها منها اي شعاع مضي‏ء، تعيش كلّ في تلك الغمرة الهامرة «فذرهم ..»:

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ‏ 54.

لقد غمرتهم و اغرقتهم حيونة الجهالة و جهالة الحيونة، و الغمرة هي إزالة اثر الشي‏ء، و هي معظم الماء الساتر لمقرها، و هم أزالوا آثار الانسانية كلها، و اختصوا أنفسهم بآثار الحيوانية كلها بل هم أضل سبيلا «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ» يغمرهم العذاب في لجة او يأتيهم الموت قبلا، او حتى حين يؤذن لك في حربهم حيث تغمرهم، او حين ينجو منهم من ينحوا منحى النجاة.

أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ 55 نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ‏ 56.

ذلك الحسبان هو ظن الذين كفروا حيث يستمدون بمدّ اللّه لهم من اموال و بنين لتثبيت قاعدتهم و انهم- فقط- على خير، رغم ان ذلك المدّ مزلة و مضلة لكثير من المؤمنين فضلا عن الكافرين‏ «بَلْ لا يَشْعُرُونَ» شعورا في الأمور، و دقة تميزّ لهم المحبور عن المحظور.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «المقارنات العلمية و الكتابية بين الكتب السماوية» و راجع تفسير الآية الثانية في سورة الأنبياء تجد فيها تفصيلا اكثر مما هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 254

و

قد قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه تعالى يقول:

يحزن عبدي المؤمن إذا قترت عليه شيئا من الدنيا و ذلك اقرب له مني، و يفرح إذا بسطت له الدنيا و ذلك أبعد له مني ... ان ذلك فتنة لهم» «1».

و

قال علي (عليه السلام): «فلو رخص الله في الكبر لأحد لرخص لأنبيائه و رسله و لكنه سبحانه كره التكابر و رضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، و عفروا في التراب وجوههم، و خفضوا أجنحتهم للمؤمنين، فكونوا قوما مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة، و ابتلاهم بالمجهدة و امتحنهم بالمخاوف و محصهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضا و السخط بالمال و الولد جهلا بمواقع الفتنة و الاختبار في موضع الغنا و الإقتار فقد قال سبحانه: «أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ» فان اللّه سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم» «2».

اجلّ هؤلاء الحماقى لا يشعرون أن مدّ الأموال و البنين ليس مسارعة في الخيرات، فهم يسارعون في ذلك البلاء المبين تلوما يمد اللّه لهم فيه زعما انه مسارعة في الخيرات، و انما المسارع في الخيرات هم:

[سورة المؤمنون (23): الآيات 57 الى 90]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (59) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى‏ رَبِّهِمْ راجِعُونَ (60) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ (61)

وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (63) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى‏ أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66)

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (67) أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (70) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71)

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (72) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (74) وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ (76)

حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (78) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (81)

قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (90)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 545 عن المجمع و روى السكوني عن أبي عبد اللّه عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... ثم تلى هذه الآية إلى قوله: بل لا يشعرون ثم قال: ان ذلك فتنة لهم.

(2) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 257

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ‏ 57.

الخشية هي للقلب، و الإشفاق عناية مختلطة بخوف زائد عليها حين يعدّى بمن كما هنا، فالمؤمنون لأنهم يخشون ربهم، فهم مشفقون على أية حال، و لا سيما حال النعمة الموفّرة عليهم، فخشيتهم من ربهم تجعلهم خائفين في الرخاء و البلاء، و لا سيما الرخاء ان قصروا و غمروا فيها غافلين، فتبدّل نعمة اللّه نقمة و نعمة، محاسبين أنفسهم في صرفها دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 258

تهدّر، بكل حائطة و مراقبة و تحذر، فالمؤمن الخاشي إذا يجمع يجمع إحسانا و إشفاقا، و غيره يجمع دائبا إساءة و غمرة و إغراقا، يقول: انما أوتيته على علم عندي و لا يحسب للّه حسابه، و لا يرجو ثوابه و لا يخاف عقابه.

وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ‏ 58.

سواء فيها الآيات الآفاقية و الانفسية، بل هم يعيشون كل الآيات ايمانا بها، و الكون كله آيات الرب دون إبقاء و لا استثناء فيعتبرون بضمنها كلا من الرخاء و البلاء من آيات البلاء فيشفقون خشية من ربهم.

وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ‏ 59.

و كيف يأتي نفي الإشراك بربهم بعد الايمان و الإشفاق من خشية ربهم، و هذا السلب يتقدم كل إيجابات الايمان؟

علّه لأنه يعني الإشراك في شؤون الربوبية، لا- فقط- الالوهية، و من الإشراك بالرب رئاء الناس، و الانعطاف إلى غير الرب في أية زاوية من زوايا الحياة طويلة و قصيرة.

فذلك- إذا- سلب يجرف عن ايجابيات الايمان كدرتها، و تبلور الإيمان عما يشوبه من شرك خفي قد لا يحسب بشي‏ء.

فمثله مثل الإسلام بعد الإيمان الذي هو بعد إسلام، فهنا سلب بعد إيجاب كان بعد سلب، و اين سلب من سلب و اين إيجاب من إيجاب ك «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ..».

وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى‏ رَبِّهِمْ راجِعُونَ‏ 60.

«يُؤْتُونَ ما آتَوْا» عن طاعة للّه، من مال و علم و معرفة، و من نفس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 259

و اي نفيس يمكن ايتاءه في سبيل اللّه و «ما آتوا» ماضيا بعد «يؤتون» دليل استمرارهم في ذلك الإيتاء، فهم يعيشون حياة الإعطاء و الإيتاء في سبيل اللّه «و» الحال في إيتاءهم ان‏ «قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» علهم مقصرون ام هم قاصرون ل «أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ».

و الوجل هو استشعار الخوف، فهم تستشعر قلوبهم خوفا من الهول المطّلع حين يرجعون إلى ربهم، استعظاما لقدر اللّه حق قدره، و استصغارا لأقدارهم أنفسهم بما آتوا من صالحات.

أ تراهم وجلة قلوبهم لمعاصيهم و مآسيهم؟ كلا! حيث‏ «يُؤْتُونَ ما آتَوْا» هو إتيان ما فرض عليهم و ندب فيه إليهم:

«يصوم و يتصدق و يصلي و هو مع ذلك يخاف الله ان لا يتقبل منه» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 11 اخرج جماعة عن عائشة قال‏ قلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قول اللّه‏ «وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» اهو الرجل يسرق و يزني و يشرب الخمر و هو مع ذلك يخاف اللّه؟ قال: لا و لكن الرجل يصوم ...

و أخرجه مثله جماعة عن أبي هريرة عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الا «و هو مع ذلك»

و

في نور الثقلين 3: 545 عن الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال:

سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ان قدرت ان لا تعرف فافعل و ما عليك ان لا يثني عليك الناس و ما عليك ان تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند اللّه ثم قال قال علي بن أبي طالب لا خير في العيش الا لرجلين رجل يزداد كل يوم خيرا و رجل يتدارك منيّته بالتوبة و أنى له بالتوبة و اللّه لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبل اللّه تبارك و تعالى منه الا بولايتنا اهل البيت ألا و من عرف حقنا و رجا الثواب فينا و رضي بقوته نصف مد في كل يوم و ما ستر عورته و ما أكن رأسه و هم في اللّه في ذلك خائفون وجلون ودوا انه حظهم من الدنيا و كذلك وصفهم اللّه عز و جل فقال: و الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون ثم قال: ما الذي آتوا و اللّه مع الطاعة و المحبة و الولاية و هم في ذلك خائفون ليس خوفهم خوف شك و لكنهم خافوا ان يكونوا مقصرين في محبتنا و طاعتنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 260

و هكذا يكون المؤمن الصالح، و جل القلب انه راجع إلى ربه، وافدا اليه من غير زاد مهما زاد فيما أتى من طاعة ربه، و ليس يعني وجلهم انهم في شك من الثواب على ما آتوا، بل هم بين خوف من تقصيرهم و رجاء لرحمة ربهم دون ان يروا استقلالا لاعمالهم في الثواب، بل يستقلونها لاستحقاق الثواب.

و

«لو ان العباد وصفوا الحق و عملوا به و لم تعقد قلوبهم على انه الحق ما انتفعوا به» «1»

و لا ينافيه و جل قلوبهم استصغارا لاعمالهم و عدم بلوغ تقواهم حق التقاة،

«ان المؤمن يعمل بين مخافتين بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه و بين اجل قد بقي لا يدري ما الله عز و جل قاض فيه» «2».

اجل و ان قلبا يستشعر يد اللّه عليه و عين اللّه ترعاه، و يحس آلاءه التي لا تحصى في كل نبضة فيستصغر و يستقل كل ما آتاه تعبدا لربه و أعطاه لخلقه في سبيله، شاعرا بالهيبة المحلّقة على كيانه ككل، مشفقا ان يلقى اللّه و هو مقصر- و قطعا هو قاصر- في حقه:

أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ‏ 61.

يصارعون الشرور و الأشرار و يسارعون في الخيرات مع الأخيار، قضية تلك اليقظة و التطلّع الدائب، و عجلة سيرهم إلى ذلك المصير هي عدم اشراكهم باللّه و ايمانهم بآيات اللّه، و خشيتهم و إشفاقهم من اللّه و إيتائهم ما آتوا وجلة قلوبهم في سبيل اللّه، فبطبيعة الحال‏ «أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 546 في محاسن البرقي عن زرارة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ...

(2)

المصدر في الكافي عن حمزة بن حمران قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ان مما حفظ من خطب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 261

الْخَيْراتِ» دنيا و عقبى، دون مسارعة في اموال و بنين إلا ما يقدمونه في سبيل اللّه، «وَ هُمْ لَها سابِقُونَ» دون «إليها» فقط، بل «لها» حيث ان ذلك السباق لزام حياتهم فهم غامرون فيها ليل نهار ما عاشوا، لا يهمهم إلا ان يسبقوا الرفاق في ذلك السباق.

ام هم لأجل الخيرات سابقون في كل ميادين السباق، دون ما يسارع لها غيرهم و هم فيها متصارعون غامرون.

وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏ 62.

لا نكلفهم في سباقهم هذه الا وسعهم دون عسر و لا حرج، فكلّ يعتقد حسب وسعه دون عسر و لا حرج، و كلّ يعمل حسب وسعه دون عسر و لا حرج.

و كما «لا نكلف» يعم اصل التكليف الخارج عن الوسع، كذلك الحالات الاستثنائية للاحكام الميسورة حيث تنقلب فيها التكاليف معسرة او محرجة، كما و ان «نفسا» تؤيد ذلك الشمول.

«و لدينا» علما لدنّيا نعلم عسرهم و يسرهم، و سائر الشهود الرسالية و الملائكية و العضوية و الأرضية «كتاب» استنسخناه: «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29) «كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ» بسبب الحق الثابت الذي حصل، و بسبب الحق عند اللّه، و بمصاحبة الحق الذي يحمله الكتاب‏ «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» في ذلك النطق الشهادة، نطق القالة و نطق الصورة و نطق السيرة المستنسخة المسجّلة في سجلّات الأعمال و الأحوال و الأقوال.

و لقد كان يحمل علي بن الحسين (عليه السلام) غلمانه قائلا

«ارفعوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 262

أصواتكم و قولوا: يا علي بن الحسين (عليه السلام) ربك قد أحصى عليك ما عملت كما أحصيت علينا و لديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة و لا كبيرة الا أحصاها فاذكر ذل مقامك بين يدي ربك الذي لا يظلم مثقال ذرة و كفى بالله شهيدا، فاعف و اصفح يعف عنك المليك ..» «1».

فليس نكرانهم لأنهم كلّفوا فوق السعة معرفيا .. و عمليا فهم معذرون:

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ‏ 63.

هذه صفات المؤمنين و حالاتهم، و أما المسارعون في خلافها فهم معاكسون لهم تماما «بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا» الذي ذكرناه لهؤلاء، و في «هذا» القرآن الذي يذكرهم عن غفلتهم فهم غامرون في لجج الجهالة، خامرون عقولهم بخمر الغفلة «و» الحال ان‏ «لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ» الذي يعمله المؤمنون، و من دون ذلك الذي وصفناه لهم، غمرة هامرة خامرة ليس لهم من دونها شاعرة الا شاغرة، أولئك هم في غمرة المسارعة في الخيرات، و أولاء في غمرة الشهوات، في حيرة تغمرها و غمة تسترها، حيث الغمرة هي ما وقع الإنسان فيه من امر مذهل، و خطب موغل، مشبه بغمرات المياه التي تغمر الواقع فيها و تأخذ بكظم المغمور بها.

هذا، و قد تعني ضمائر الجمع الثلاث المؤمنين أنفسهم و «بل» إضراب عما ذكرت لهم من صفات تحدد مواقفهم الايمانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 547 في المناقب لابن شهر آشوب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) و كان إذا دخل شهر رمضان يكتب على غلمانه ذنوبهم حتى إذا كان آخر ليلة دعاهم ثم اظهر الكتاب و قال: يا فلان فعلت كذا و كذا و لم أؤدبك؟ فيقرون اجمع فيقوم وسطهم و يقول لهم: ارفعوا أصواتكم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 263

«بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا» المذكور لهم فلا تحدّ خيراتهم حدود «وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ» الذي ذكرناه‏ «هُمْ لَها عامِلُونَ» دون «هم عاملوها» فاللام تجعل اعمالهم الصالحة لزاما لغمرتهم.

ام تعني الآية كلتا الضفتين كلا بغمرته، و اين غمرة من غمرة و اين مسارعة من مسارعة.

حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ‏ 64.

و لأن الضفّة الشريرة المسارعة في الشهوات موصوفة من قبل ب «أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» ف «مترفيهم» هنا يقتسم الغامرين إلى مترفين و سواهم، و «حتى إذا» تنهي الغمرتين إلى حين العذاب موتا و سواه، فالغامرة المترفة تجئر، و الغامرة المؤمنة لا تجئر، و الجؤار هو صوت الوحش عند الفزع، فهم الوحش مستوحشين من عذاب اللّه المفاجأ رجاء النصر و لكن:

لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ‏ 65.

و لأنه‏ «وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» فسلب النصر من عنده سلب لمطلق النصر، و هكذا يخاطبون بعد غياب من ذكراهم ليكون أوقع في استيحاشهم تقريعا لهم و قطعا لآمالهم فانه:

قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى‏ أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ‏ 66.

«قد كانت» مؤكّدة متواترة بينة «آياتي» المذكرة لكم عن غمرتكم‏ «تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ» ليل نهار «فكنتم» على طول خطها «على أعقابكم» آباءكم الأولين، و أعقابكم أنفسكم مدبرين «تنكصون»، رجوع القهقري، مرتجفين إلى جهّال و جهالات، مسامحين عما عندهم من عقول و ذكريات:

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ‏ 67.

«مستكبرين» عن سماع الآيات، ام إذا سمعتهم فعن تدبرها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 264

و الاعتبار بها «سامرا»: متحدثا بالليل، ليلة الجهالة و الشهوة، ليلة الحيونة و الاستكبار، ليلة التقاليد العمياء، دون ضوء من الاضواء آفاقية و انفسية، حال انكم «تهجرون» هذيانا هاجرا للحق، حاجزا عما يحق ان يسمع و يطبق، مطلقون ألسنتكم بهجر القول و فحشه و أنتم محلّقون- حول أصنامكم في سامركم- بالكعبة فلقد كان هؤلاء يرمون الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في ظلام، و يطلقون ألسنتهم بهجر القول و فحشه في نواديهم، و هنا القرآن لما يجأرون يذكرهم بسمرهم الفاحش و هجرهم الطائش في الليل الأليل الدجى، بهراء هم الهجى.

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ‏ 68.

«أ» سمعوا «فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ» حتى يعرفوا حقه الرسالي «ام» اعرضوا عنه لأنه أتى‏ «ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ»؟ و قد أتاهم نفس ما أتاهم و زيادة، فما هو بدعا من الرسل و لا قوله الرسالي بدع من القول! و هم محجوجون ان لم يدّبّروا حيث أنكروا رمية في ظلام، و محجوجون ان تدبروا و أنكروا بحجة انه أتى ما لم يأت آباءهم الأولين و قد أتى! أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ‏ 69.

«لم يعرفوه» منذ دعوته إذ لم يدّبّروا قوله ام هو بدع من القول، «ام لم يعرفوه» رغم كافة الحجج الرسالية المحلقة عليه‏ «فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ» رغم هذه الحجج الدامغة البارقة، ام لم يعرفوه قبل رسالته فقد لبث فيهم عمرا من قبله أ فلا يعقلون، فقد عرفوه قبل بالامانة و الصدق، فهل الأمين الصادق مع الناس يتحول إلى خائن كاذب مع اللّه‏ «تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏» فقد عرفوه سابقا و في الحال بأحواله المصدّقة لكل حاله و قاله دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 265

اي كذب و إدغال، ثم لما جاءهم بما ينجيهم من غمرة الجهالة أنكروه.

ذلك و كما عرفه اهل الكتاب بما بشر به بمواصفاته في كتاباتهم، و لمّا جاءهم كذبوه و جنّنوه: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ» (2: 146) و 6: 20).

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ‏ 70.

و هذه طنطنة و غوغائية دعائية هي آخر المطاف لهم في تزييف موقف الرسالة، ان «به جنة» إذ يقول ما لا نقول به، و يعد ما لا نعرفه، فبيننا و بينه حجاب المعرفة، «بل» كل ذلك دعوى بلا حقيقة و لا برهان‏ «بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ» بكلّ آياته و بيناته‏ «وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ» و أقلهم لا يعرفونه قصورا أو تقصيرا فهم له منكرون، قصورا كالمستضعفين الذين لا يجدون حيلة و لا يهتدون سبيلا، فهم بله لا يميزون، و تقصيرا كمن لا يفتشون عن الحق، بغية أريحية الحياة، أم عرفوه و لكنهم تركوه دون كراهية له نفسه، و انما كراهية التوبيخ من قومهم و ان يقولوا ترك دين آباءه.

هؤلاء هم منجرفون مع الهوى، منحرفون إلى كل ردى، يهوون ان يتّبع الحق أهوائهم، كأنهم آلهة بأهوائهم الطائشة و على الحق ان يتبعهم حيث جعلوا آلهتهم أهواءهم فألهتهم عما يعنيهم:

وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ‏ 71.

«لو» تحيل ذلك الاتباع المفروض المرفوض في كل الحقول عند ارباب العقول، فلو كان الحق- المطلق، المعصوم عن كل زلل و خطل- موافقا لاهوائهم القاحلة الجاهلة، لعاد كلّ إلى ضلاله و أوقع كلّ في بطله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 266

و كلاله، حيث الحق يدعو إلى المحاسن و المصالح، و الأهواء تدعو إلى المساوئ و المقابح، فلو اتبع الحق قائد الهوى لشمل الفساد و عم الاختلاط و خفضت أعلام الهدى، و رفعت أعلام الردى.

و لا تعني «أهوائهم» فقط الشريرة منها التائهة، بل و الخيرة ايضا و العاقلة، حيث المتّبع الصالح لادارة شؤون التكوين و التشريع هو الحق المطلق، لا الحق الخاطئ كالعقول غير المعصومة، فضلا عن الباطل المطلق، ف «الحق» هنا هو اللّه، و الأهواء هي من غير اللّه عقولا ام أهواء سواها، «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏».

اجل و في اتباع الحق لسواه- ايّا كان- اختلال كافة الموازين و المقاييس في السماوات و الأرض و من فيهن، و كما في تعدد الآلهة المدّبرة و المشرّعة.

فالحق المطلق واحد ثابت لا يتقلب في تغلّبه، و الأهواء عاقلة و سواها كثيرة متقلبة، و بالحق الواحد يدبّر الكون كله تكوينا و تشريعا فلا ينحرف ناموسه لهوى تعترض، و لا تتخلف سنته لرغبة طارئة «بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ» الذي يذكّرهم عن قصورهم و تقصيرهم، عن غفلتهم و غفوتهم، و يذكرهم لما يتوجب عليهم في صالح حياتهم «فهم» أولاء الحماقى‏ «عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ»! فالقرآن ذكر جملة و تفصيلا، ذكر للفطر و العقول و القلوب، ذكر عما نسيه أصحابها ام تناسوه، و ذكر لما ستر عنهم من فصائل المعارف و فضائلها و هم يطلبون ان يتّبع الذكر الحق و حقّ الذكر أهوائهم الخاملة غير الكاملة، فحتى لو اتفقت أهوائهم العاقلة على شي‏ء لم تكن لتأتي بالحق المطلق، فضلا عن أهوائهم الجاهلة، ام المختلقة في هذه او تلك كما هي الواقع فيها على أية حال، فالفساد- إذا- آت من بعدين اثنين: قصور الأهواء، و تضادها، فليكن الحاكم المطلق هو الحق المطلق لا سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 267

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ‏ 72.

«أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً» رزقا على أتعاب الدعوة، و ليس يسأل، و ذلك تذكار لهم أنه يدعوهم إلى اللّه دون ان يسأل خرجا «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» فكل الموانع في تقبّل الدعوة- مادية و معنوية أما هيه- زائلة، و كلّ الدوافع لتقبلها حاصلة ماثلة:

وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏ 73.

«ان و اللام» تأكيدان اثنان لانحصار هذه الدعوة إلى صراط مستقيم، و انحسارها عما يبعده او يميل عنه، و قد ذكر لنا

ان نبي اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لقي رجلا فقال له اسلم فتصعّب له ذلك و كبر عليه فقال له النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ رأيت لو كنت في طريق و عر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه و تعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أ كنت تتبعه؟ قال: نعم- قال: فوالذي نفس محمد بيده انك لفي أوعر من ذلك الطريق لو كنت فيه و اني لادعوك إلى أسهل من ذلك الطريق لو دعيت اليه ..» «1».

وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ‏ 74.

فالصراط المستقيم هو صراط المبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 13- اخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: ما فيه عوج ذكر لنا ... و ذكر لنا ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لقى رجلا فقال له اسلم فصعده ذلك فقال له نبي اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أ رأيت فتييك أحدهما ان حدث صدقك و ان أمنته ادى إليك و الآخر ان حدث كذبك و ان ائتمنته خانك قال: بلى فتاي الذي إذا حدثني صدقني و إذا أمنته ادى الي قال نبي اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كذاكم أنتم عند ربكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 268

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم ناكبون عن ذلك الصراط حيث المعاد هو مصير المبدء و الرسالة، و هما مسير المعاد، و كما المعاد مصيرهما.

و لان الصراط صراطان: في الدنيا و الأخرى، فهم ناكبون مائلون عنهما، فساقطون فيهما إلى شفا جرف هار «وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ‏ 75.

«لو» هنا تحيل رحمة اللّه لهم إذ صدوا على أنفسهم كل منافذها، ثم لا يرجى منهم الهدى بكشف الضر عنهم، بل لجوا في طغيانهم المتعرق في حياتهم يعمهون، فلما ذا نرحمهم و هي عذاب على عباد اللّه الذين يظلون و يضلون تحت رحمة طغيانهم العمه.

وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ‏ 76.

هؤلاء الصلتون الصلبون الصامدون في كفرهم لا يزحزحهم عن ضلالهم لا رحمة بكشف الضر عنهم و لا عذاب‏ «وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ» تخضعا «1» له عن كبرهم‏ «وَ ما يَتَضَرَّعُونَ» استغفارا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي باسناده عن محمد بن مسلم قال‏ سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن هذه الآية فقال: الاستكانة هي الخضوع و التضرع رفع اليدين و التضرع بهما

و

في المجمع و روي عن مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نابتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رفع الايدي في الاستكانة قلت و ما الاستكانة؟ قال: اما تقرء هذه الآية «فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ» أورده الثعلبي و الواحدي في تفسيريهما

و

فيه قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) الاستكانة الدعاء

و

في الدر المنثور 5: 14 اخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في الآية اي لم يتواضعوا في الدعاء و لم يخضعوا و لو خضعوا للّه لاستجاب لهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 269

عما كانوا يعملون، و الإنسان أيا كان يتحول حال الرحمة و العذاب إلى غير حاله، ففريق يشكرون حال الرحمة، و آخرون يستغفرون حال العذاب و الزحمة، و اما هؤلاء المناكيد فكأنهم ليسوا من الناس، بل هم نسناس وسواس خناس دائبون في كفرهم بآله الناس:! حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ‏ 77.

ان أبواب العذاب اربع، اثنان في الاولى و آخران في الاخرى، فعذاب الاستئصال و ما دونه يوم الدنيا، و أشد منه يوم الرجعة ثم أشد منهما يوم البرزخ، ثم الأشد في الاخرى، و «باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ» قد لا يعني الاولى في الاولى، لمكان‏ «أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ» من ذي قبل و مواصفته ب «شديد» و الاولى أيا كان هي بجنب سائر العذاب غير شديد، و «حَتَّى إِذا فَتَحْنا» تضرب إلى المستقبل، و لان ضمير الجمع في «عليهم» يعم كافة الطغاة في تاريخ الرسالات فليكن العذاب الشديد يوم الرجعة «1» «إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» حزنا معترضا من شديد البأس.

و اما يوم القيامة فكل أبواب العذاب مفتوحة عليهم و على سواهم من اهل الجحيم، و يوم البرزخ لكلّ باب تناسبه، و ليس هناك باب جماهيرية تفتح على ذلك الجمع الطاغي.

وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ‏ 78.

«الافئدة» هي القلوب المتفئدة، ذاتية بأنوار الفطرة، و عارضية بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 550 عن المجمع قال ابو جعفر (عليه السلام): هو في الرجعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 270

تستوردها بالسمع و الأبصار ظاهرية و باطنية من الآيات الآفاقية، و الشكر على هذه النعم الثلاث هو استعمالها فيما انشأت له من مزيد المعرفة و لكن‏ «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» عدّة بين الجموع‏ «وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» و عدة في هذه القلة حيث لا يشكرونه كلهم كما يحق و يستطيعون، فالشاكرون تماما هم أقل قليل، و الشاكرون بعضا هم القليل، و الكافرون هم الكثير.

وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ‏ 79.

الذرء هو الإظهار «هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ» أظهركم أحياء «فِي الْأَرْضِ» ثم يخفيكم إذ يميتكم ثم‏ «وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏ 80.

فكما له اختلاف الليل و النهار أن يأتي كلّ خلف الآخر و خلفته و في كل حكمة بالغة، كذلك له اختلاف الإحياء و الإماتة كلّ يأتي خلف الآخر حسب الحكمة البالغة و هي أحرى و اعقل‏ «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» و ما هو الفارق بين الاختلافين الا موادهما؟ فحين نعيش اختلاف الليل و النهار لحكمة معيشية دنيوية فانية، فهلا نعيش اختلاف الموت و الحياة لحكمة معيشية اخروية باقية «أَ فَلا تَعْقِلُونَ»!؟

بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ 81 قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ 82 لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ‏ 83.

انهم لم يؤمنوا بعد هذه الدلائل الباهرة و الحجج الظاهرة و لم يقولوا آمنا «بل» قالوا كلمة الكفر، و لم تكن قولتهم من عند أنفسهم‏ «بَلْ قالُوا مِثْلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 271

ما قالَ الْأَوَّلُونَ»- «يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» قالوا قيلة الاستبعاد لبعثهم بعد إذ كانوا ترابا و عظاما، و هو الذي خلقهم أول مرة، ثم هو يخلقهم و هو أهون عليه‏ «لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا» الوعد «من قبل» طول تاريخ الرسالات‏ «إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» و خرافات ملفقة من «الأولين» لقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة و متناقضيها، فهم حين لا ينكرون اللّه خالق الكون يشركون خلقه به، و حين لا ينكرون انه خالق الحياة ينكرونها بعد الموت، و لذلك هنا يستجوبهم فيما هم معترفون، ثم يتبناه لثتبيت ما هم منكرون:

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏ 84.

لمن هي و من فيها، ملكا و ملكا و تدبيرا أصيلا.

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ‏ 85.

أ فبعد ذلك الاعتراف الجاهر لا تذكّرون؟.

ان مالك الكون هو- فقط- مدبّره حسب الحكمة البالغة، دون شريك و لا معين و لا مشير، و قضية الملكية و المالكية الصالحة إصلاح المماليك و فصل القضاء بينهم فلا بد إذا من يوم لفصل القضاء.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ 86 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ‏ 87 و «الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» هو هنا عرش العلم و القدرة و التدبير و التقدير، و بصيغة اخرى هو عرش الربوبية المحلّقة على كافة شؤون السماوات السبع و من فيهن و من بينهن، و أرضنا منها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 272

«سيقولون» ان هذه الربوبية «للّه» مهما اعتقدوا في ربوبيات هامشية لأربابهم فانها ايضا للّه حيث هي أنفسها مخلوقة للّه‏ «قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ» اللّه حيث تشركون به و تنكرون وحيه و يوم حسابه.

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ 88 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ‏ 89.

«قُلْ مَنْ بِيَدِهِ» علما و قدرة و أية سلطة «ملكوت» حقيقة الملك و الملك ل «كل شي‏ء» فهو املك لكل شي‏ء منها لأنفسها، فناصية كل شي‏ء- و ما به الشي‏ء شي‏ء بأسره- ليس إلا بيده لا سواه، «وَ هُوَ يُجِيرُ» و ينقذ كل شي‏ء مستجيرا و سواه، حيث الفقر هو ذات كل شي‏ء، و الأخطار محلّقة على كل شي‏ء فهي بحاجة ذاتية إلى إجارة من الأخطار و الأضرار «وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ» حيث لا مجير عليه كما لا مجير له إذ لا أخطار عليه و لا يد فوق يديه.

بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ‏ 90.

فليس هنا لك قصور منا و لا تقصير في بيان الحق‏ «بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ» المطلق دون غبار عليه‏ «وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» في دعاويهم، و حتى في اعترافاتهم بهذه الحقائق فانها تضاد و اتخاذهم آلهة سواه، و عبادتهم لما سواه، بل و تركهم إياه كأن لا إله الا ما تهواه أنفسهم مما اتخذوه آلهة سواه:

[سورة المؤمنون (23): الآيات 91 الى 118]

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَتَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (92) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَ إِنَّا عَلى‏ أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (95)

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (96) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (97) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98) حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ (104) أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (105)

قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (106) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (107) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110)

إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (111) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (113) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (115)

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (117) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 275

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ 91 عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَتَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏ 92.

كون إله من دون اللّه لا يخلو من اتخاذه إلها من قبل اللّه ولدا و سواه، ام انه إله كما اللّه على سواء، و لكن‏ «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ» اتخاذا بالولادة إذ لم يلد، و لا اتخاذا تشريفيا إذ لا شرف لعباد اللّه المقربين اشرف من العبودية، و المجاز مجاز إذا أمكنت الحقيقة، فلأن حقيقة الولادة الذاتية مستحيلة في اللّه فكذلك مجازها تبنيا لبعض خلقه.

فالولد الحقيقي جزء من حقيقة الوالد، فألوهية الوالد تقتضي الوهية لولده، ثم للولد التشريفي ألوهية مخوّلة مهما لم تكن له ذاتية ولادية، و هما منفيان لأي احد تجاه اللّه.

و هنا تبقى الوهية ثالثة هي ذاتية غير ولادية و كما للّه، تنفيها عن غير اللّه: «وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ» و برهان النقض‏ «إِذاً لَذَهَبَ ...» يتمحور الالوهية الذاتية، و على هامشها الولادية ام و التشريفية.

إذا لو «كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ» و استقل هو بنفسه بما خلق، و انفصل النظام و انفصم، فإن لكلّ شأنا غير شأن الآخر، و لكلّ خلق يريده سوى ما يريده الآخر، فان انقسم الخلق بينهما و لكلّ نصيب، انقسم النظام، و ان تعارضا في كل خلق لتناقض الخلق و استحال النظام،

«إذا شاء واحد ان يخلق إنسانا شاء الآخر ان يخالفه فيخلق بهيمة، فيكون الخلق منهما على مشيتهما و اختلاف ارادتهما إنسانا و بهيمة في حالة واحدة، فهذا من أعظم المحال غير موجود، و إذا أبطل هذا و لم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنان و كان واحدا، فهذا التدبير و اتصاله قوام بعضه ببعض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 276

يدل على صانع واحد ..» «1».

فهذه الآية تضم حججا ثلاثا «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ»- «وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ»- «وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ».

فالثاني لزوم ذهاب كل آله بما خلق مستقلا بما خلقه، يعرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكلّ جزء من هذا الكون، او لكلّ فريق من الخلق، ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع، و بذلك تنفصم عرى الوحدة في التدبير و يختل النظام رغم وحدة التدبير و اتصاله.

و الثالث لزوم علو كلّ على زميله استقلالا بعرش الألوهية و قضاء على نقص الشركة، علوا على ألوهيته ذاتا ام صفات او افعالا، استقلالا بما هو قادر عليه.

و القول اننا نفرض وحدتهما في الارادة فلا يتنازعان، يرده ان الوحدة المطلقة قضيتها الوحدة من جميع الجهات فأين الاثنان، فحتى لو صحت وحدة الارادة لوحدة العلم و القدرة و الحكمة، نتساءل أ ليس بينهما اي فارق ذاتي ام صفاتي؟ ففي فرض وجود الفارق- و هو لزام التعدد- نقول ان كان الفارق لكلّ نقصا فهما ناقصان، و ان كان لكلّ كمالا فكلّ يفقد كمالا يجده الآخر، فهما- إذا- ناقصان من وجه ثان، فليسا إلهين اثنين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 118 عن تفسير القمي‏ في الآية ثم رد اللّه عز و جل على الثنوية الذين قالوا بالهين فقال: ما اتخذ اللّه ... قال قال: لو كان الهين كما زعمتم فكانا يختلفان فيخلق هذا و لا يخلق هذا يريد هذا و لا يريد هذا و ليطلب كل واحد منهما الغلبة لنفسه و لا يستبدل كل واحد بخلقه و إذا أراد ... لطلب كل واحد فيهما العلو و إذا شاء .. و هو قول اللّه عز و جل‏ «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ ...» و قوله‏ «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 277

و في فرض عدم الفارق أيا كان فلا تعدد أيا كان‏ «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» الآلهة الا اللّه كما «لفسدتا» السماوات و الأرض‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» من اي شريك بثالوثه المنحوس.

«عالِمِ الْغَيْبِ» و هو كل ما يغيب عن سواه حاضرا ام سوف يخلق «و الشهادة» و هي خلافه، ام‏

«الغيب ما لم يكن و الشهادة ما قد كان» «1»

و هما له شهادة على سواء، فلو كان معه إله لعلمه قبل خلقه، و لو كان اتخذ ولدا ام آلها سواه لكان يعلمه فيعلمه خلقه حتى يتخذوه معه آلها «فَتَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ 93 رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏ 94.

دعاء يعلمها اللّه الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حين يريه ما يوعدون ألّا يجعله في القوم الظالمين، لا ظالما كما هم و لا معينا لهم كما الأعوان، و لا مشمولا لما يوعدون كفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، فهي دعاء لمفاصلة تامة بينه و بينهم في دافع الظلم و واقعه و واقعته الموعودة للظالمين.

وَ إِنَّا عَلى‏ أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ‏ 95.

تعجيلا لما نعدهم حتى ترى، ام تأجيلا لأجلك حتى تبقى فترى آجل وعدهم، و قد يكفيك وعدنا عن رؤيته و انما عليك دفع السيئة بالتي هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 118 في معاني الاخبار ابن بابويه بسند عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: عالم الغيب ما لم يكن و الشهادة ما قد كان،

أقول: ما قد كان هو شهادة له ككل لمكان حضوره و ما لم يكن هو غيب عن الحضور كونيا و لكنه شهادة لحضوره علميا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 278

احسن حتى ترى ما ترى ام يقع ما لا ترى:

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ‏ 96.

«ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (41: 34).

فواجب الدفاع عن النفس او النفيس ام راجحه، يفرض الطريقة التي هي احسن، فقد تكون عفوا و سماحا فينقلب السي‏ء حسنا، ام تأجيلا و أنت- بينك و بين الأجل الصالح- تعامل بالتي هي احسن عله يرجع عن غيه و ضلاله، ام تستجيش كافة المحاولات الممكنة المعقولة لدفع السيئة عنك و عمن يسي‏ء إليك ام من يسي‏ء إلى سواك ام إلى نفسه او إلى شرعة اللّه ككل‏ «1».

و في آخر المطاف حيث لم تبق لك باقية من الطرق الحسنى فقضاء على عامل السوء اجتثاثا لمادة الفساد ان استطعت، و الا

«التي هي احسن التقية» «2».

«نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ» من أوصافه خارفة جارفة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 551 في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: بعث امير المؤمنين (عليه السلام) الى بشر بن عطارد التيمي في كلام بلغه فمر به رسول امير المؤمنين (عليه السلام) في بني اسد و اخذه فقام اليه نعيم بن دجاجة الاسدي فأفلته فبعث اليه امير المؤمنين (عليه السلام) فأتوه به و امر به ان يضرب فقال نعيم اما و اللّه ان المقام معك لذل و ان فراقك لكفر، قال: فلما سمع ذلك منه قال له: قد عفونا عنك ان اللّه عز و جل يقول‏ «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ» اما قولك: ان المقام معك لذل فسيئة اكتسبتها و اما قولك: و ان فراقك لكفر فحسنة اكتسبتها فهذه بهذه فأمران يخلى عنه.

(2) المصدر في محاسن البرقي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: التي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 279

«ادفع» كما تستطيع بمن معك من المؤمنين همزات الشياطين، مستعيذا في ذلك برب العالمين:

وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ 97 وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ‏ 98.

صحيح ان «ادفع- و قل» خطابان للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لكنهما لا يخصانه إذ ليسا من اختصاصاته كحامل الرسالة.

فهما كسائر الخطابات القرآنية يعمان كافة المكلفين مهما توجه إلى الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كبداية، و لكنه منطلق الخطابات كرسول، الا فيما قرنت بقرينة قاطعة تخصها به كفرض صلاة الليل و سماح الزواج اكثر من الأربع و اضرابهما من اختصاصاته.

و «همزات» جمع همزة، و هي شدة الدفع و الهزّ و الأزّ كما هي الاغتياب: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ» و قد تعنيهما الهمزات هنا لمكان الإطلاق، و قرنها ب «يحضرون» فالاستعاذة إذا تحلّق على الحالتين للشياطين «غيابا» «1» و حضورا، و هم- ايضا- أعم من الشياطين الغيّب و الحضور، فان لهم دفعا إلى الشرور و منعا عن الخيرات غيبّا و حضورا.

و لقد

«كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يعلّمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع: «بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه و عقابه و شر عباده و من همزات الشياطين و ان يحضرون» «2»

«فانه لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير القمي في الآية قال: ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين،

أقول:

فحضورهم غير ذلك الهمز مهما اشتركا في الدفع.

(2) الدر المنثور 5: 15- اخرج جماعة عن عمر بن شعيب عن أبيه عن حده قال كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 280

يضرك و بالحري ان لا يضرك» «1».

و

«كان (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول بعد استفتاح الصلاة: لا اله الا اللّه ثلاثا- اللّه اكبر ثلاثا- اللهم اني أعوذ بك من همزات الشياطين همزه و نفثه و نفخه، فقيل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ما همزه؟ قال: الموتة التي تأخذ ابن آدم اي الجنون الذي يأخذ ابن آدم، قيل فما نفثه؟ قال: الشعر، قيل فما نفخه قال: الكبر «2».

و هكذا تكون همزات الشياطين حيث تجنّن و الجنون فنون تختصرها معصية اللّه حيث يهز الإنسان هزا و يأزه أزا و دفعا إليها.

حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ 99 لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ‏ 100.

ترى و بما ذا تتعلق «حتى» هذه الغائية؟ انها متعلقة ب «أعوذ- أعوذ» فالاستعاذة من الشيطان هي ما دام هو حي يشيطن و يهمز، و متعلقة بما قبلهما ما يصلح تعلقها به، و يجمعه كفر الشياطين و نكرانهم و أقاويلهم، و ان تلك الحالة النكدة دائبة لهم‏ «حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ..».

ثم و مجي‏ء الموت هو واقعه، فهو يقول بعد انقباض روحه و انتقاله عن الحياة الدنيا «رَبِّ ارْجِعُونِ» حيث «إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شي‏ء يمنعه عن الحق فيحول بين عينيه فعند ذلك يقول:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج احمد عن خالد بن الوليد انه قال يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) اني أجد وحشة قال: إذا أخذت مضجعك فقل أعوذ ... فانه لا يضرك ..

(2) تفسير الفخر الرازي 23: 119 قال الحسن كان عليه السلام يقول ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 281

«رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ» «1».

و «ارجعون» هنا حيث تعني الرجوع إلى الحياة الدنيا، دليل قاطع لا مرد له على الحياة بعد الموت، و هي المسماة بالحياة البرزخية كما هي تصريحة الآية «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

و لماذا «ارجعون» جمعا و الرب واحد كما هو معترف به «رب» مهما مات مشركا، حيث الموت يكشف كافة الحجب مهما لم ينفع المحجوب يوم الدنيا؟

علّه خطاب لملائكة الموت بعد نداءه الرب: «وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» (8: 50).

«قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ..» و قد يخاطب الربّ نفسه: «فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً» (32: 12) «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37).

«لعلي» ترجيا لإصلاح ما فات‏ «أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ» من حياة التكليف‏ «صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» فليس‏ «فِيما تَرَكْتُ» فقط الصالحات المتروكة، حيث الطالحات المفعولة لها دور اخطر، و خطر اكثر، و لا تشملها «فِيما تَرَكْتُ».

«صالحا» هو صالح الفعل و صالح الترك بديلا عن الطالح فيهما فيما تركت من حياة التكليف، و كما تعنيه- ايضا- «نعمل صالحا غير الذي كنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 15- اخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 282

نعمل» حيث تعم عمل الواجبات و ترك المحرمات فكلّ عمل مهما اختلفا سلبا و إيجابا.

و قد يعني‏ «فِيما تَرَكْتُ» الفرصة التي تركها، و المال و البنين و المنال و كل حال من الأحوال، ام‏ «فِيما تَرَكْتُ» من التكاليف سلبية و ايجابية اما هيه مما ترك.

و الجواب كلمة واحدة «كلا» بكل تقريع‏ «إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها» ليس وراءها واقع لا من قائلها لو أرجع، و لا من اللّه حيث لن يرجعه، و كل ما في الأمر «وَ مِنْ وَرائِهِمْ» بعد الموت «برزخ» بين الحياة الاولى و الاخرى فهو الحياة الوسطى‏ «إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» بأرواحهم و أجسادهم عن أجداثهم.

وي كأن المشهد معروض بنفسه الآن كالعيان، مشهد الاحتضار و الانتصار للرجوع، ثم الرد القارع كأنه يسمع الآن‏ «إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها» لا مدلول وراءها، كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب اي رصيد «وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ» (6: 28) و لا من اللّه اية اجابة الا عذاب شديد!.

و لماذا «من وراءهم» و البرزخ أمامهم حيث يستقبل الموتى؟ علّ الوراء كناية عن الحيطة البرزخية بهم كما «كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً» (18: 79) اضافة إلى انهم لا يستقبلون ذلك البرزخ خيرة منهم و لذلك يقولون‏ «رَبِّ ارْجِعُونِ» إذا فالبرزخ هو الذي يلحقهم كمن يطلب الفارّ من وراءه، و هو لاحقه و هم عنه مدبرون.

و قد يعني البرزخ- فيما عناه من حياة وسطى- الحاجز المانع، فهو في هذا البين محجوز عن الرجوع إلى الحياة الدنيا، كما هو محجوز عن البعث إلا في يومه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 283

و ترى «كلّا» تعم كل الموتى؟ فأين الرجعة يومها؟ الراجعون المؤمنون يوم الرجعة لا تشملهم الآية حيث تخص الكافرين و اضرابهم من المجرمين، و الراجعون الكافرون هم بعضهم و لا تنفعهم تلك الرجعة بل و تضرهم، و لا تعني «كلّا» عدم الرجوع مطلقا، و انما رجوعا فيه‏ «أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ» ثم «كلا» و ان كانت عامة أو مطلقة فهي مخصصة أو مقيدة بمن يرجعون حسب آيات و روايات.

فالبرزخ البرزخ و ما ادراك ما البرزخ؟ «هو امر بين أمرين و هو الثواب و العقاب بين الدنيا و الآخرة، و هو

قول الصادق (عليه السلام): و الله ما أخاف عليكم إلا البرزخ، و اما إذا صار الأمر إلينا فنحن اولى بكم» «1»

و

«ان القبر إما روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار» «2».

فيا للّه انهم‏

«سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سلطت الأرض عليهم فيه، فأكلت لحومهم و شربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادا لا ينمون، و ضمارا لا يوجدون، لا يفزعهم ورود الأهوال، و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 553 في تفسير القمي قال قال: البرزخ ... و

فيه عن الصادق (عليه السلام) البرزخ هو القبر و هو الثواب و العقاب بين الدنيا و الآخرة

و الدليل على ذلك‏

قول العالم (عليه السلام) و الله ما نخاف عليكم الا البرزخ‏

و

فيه عن الكافي عن عمر بن يزيد قال‏ قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) اني سمعتك و أنت تقول: كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم؟ قال: صدقتك كلهم و الله في الجنة، قال قلت جعلت فداك ان الذنوب كثيرة كبار فقال: اما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع او وصي النبي و لكني و الله أتخوف عليكم في البرزخ قلت: و ما البرزخ؟ فقال:

القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة.

(2) المصدر عنه و قال علي بن الحسين عليهما السلام ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 284

يحزنهم تنكر الأحوال، و لا يحفلون بالرواجف و لا يأذنون للقواصف، غيبا لا ينتظرون و شهودا لا يحضرون، و انما كانوا جميعا فتشتتوا و ألافا فافترقوا، و ما عن طول عهدهم و لا بعد محلهم، عميت اخبارهم و صمت ديارهم، و لكنهم سقوا كأسا بدلتهم بالنطق خرسا، و بالسمع صمما، و بالحركات سكونا، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات، جيران لا يتأنسون و أحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، و انقطعت منهم اسباب الإخاء، فكلهم وحيد و هم جميع، و بجانب الهجر و هم أخلاء، لا يتعارفون لليل صباحا و لا لنهار مساء، اي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا، شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا و رأوا من آياتها أعظم مما قدروا، فكلا الغايتين؟؟؟ أدت لهم إلى مباءة، فأتت مبالغ الخوف و الرجاء، فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بصفة ما شاهدوا و ما عاينوا» «1».

و هذه صفتهم في أجسادهم دون أرواحهم بأبدانهم المثالية فإنهم فيها احياء،

«و لو كشف لك لرأيتهم حلقا حلقا مجتمعين يتحادثون» «2»

«ان الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تتعارف و تتساءل» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام) ....

(2)

نور الثقلين 3: 557 عن الكافي بسند متصل عن حبة العرني قال: خرجت مع امير المؤمنين (عليه السلام) الى الظهر فوقف بواد السلام كأنه مخاطب لأقوام فقمت لقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولا ثم جلست حتى مللت ثم قمت و جمعت ردائي فقلت يا امير المؤمنين (عليه السلام) اني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة، ثم طرحت الرداء ليجلس عليه فقال لي: يا حبة ان هو الا محادثة او مؤانسة قال قلت يا امير المؤمنين و انهم لكذلك؟

قال: نعم و لو كشف ... فقلت؟؟؟ سام ام أرواح فقال أرواح و ما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض الا قيل لروحه الحقي بوادي السلام و انها لبقعة من جنة عدن.

(3)

المصدر عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 285

انهم يعيشون في البرزخ‏

«في أبدان كأبدانهم» «1»

«في روضة كهيئة الأجساد في الجنة» «2»

«في قالب كقالبه في الدنيا «3»

و المؤمنون‏

«في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الأرواح ... فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فانها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان و ما فعل فلان فان قالت لهم: تركته حيا ارتجوه و ان قالت لهم: قد هلك قالوا قد هوى هوى.

و

في البحار 6: 234 عن المحاسن ابن محبوب عن ابراهيم بن إسحاق الجازي قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) اين أرواح المؤمنين؟ فقال: أرواح المؤمنين في حجرات في الجنة يأكلون من طعامها و يشربون من شرابها و يتزاورون فيها و يقولون ربنا أقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا قال قلت فأين أرواح الكفار؟ فقال: في حجرات النار يأكلون من طعامها و يشربون من شرابها و يتزاورون فيها و يقولون ربنا لا تقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا.

(1).

في البحار 6: 268 الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) جوابا عما يروون ان أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال: لا- المؤمن أكرم على اللّه من ان يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم.

(2)

نور الثقلين 3: 559 ح 139 عن الصادق (عليه السلام) ردا على من قال أرواح المؤمنين في حواصل طيور

و

في البحار 6: 269 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تعارف و تسأل ..

(3)

المصدر عن الكافي عن يونس بن ظبيان قال‏ كنت عند أبي عبد اللّه (عليه السلام) فقال:

ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ فقلت: يقولون تكون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام) سبحان اللّه المؤمن أكرم على اللّه من ان يجعل روحه في حوصلة طير يا يونس إذا كان ذلك أتاه محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و الملائكة المقربون عليهم السلام فإذا قبضه اللّه عز و جل صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا، فيأكلون و يشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا أقول و الاخبار الدالة على الأجساد المثالية كثيرة و من مظانها في بحار الأنوار في باب احتجاج امير المؤمنين على أبي بكر و في باب غصب الخلافة و في أبواب المعجزات من أراد تفصيلا اكثر فليراجعها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 286

قوالب من نور» «1»

فالكافرون في قوالب من ظلمة.

«و الروح جسم رقيق قد البس قالبا كثيفا» «2»

ثم يلبس بعد الموت قالبا خفيفا يتسمى البدن البرزخي، او الروح المجسم ام الجسم المروّح و هو الجسم الذي يطير به الروح و يسير في الرؤيا فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ‏ 101.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 6: 237 البرسي في مشارق الأنوار عن الفضل بن شاذان من كتاب صحائف الأبرار ان امير المؤمنين (عليه السلام) اضطجع في نجف الكوفة على الحصى فقال قنبر يا مولاي الا افرش لك ثوبي تحتك؟ فقال: لا إن هي الا تربة مؤمن او مزاحمته في مجلسه، فقال الأصبغ بن نباتة اما تربة مؤمن فقد علمنا انها كانت او ستكون فما معنى مزاحمته في مجلسه؟ فقال: يا بن نباتة ان في هذا الظهر أرواح كل مؤمن و مؤمنة في قوالب من نور على منابر من نور.

(2)

المصدر عن الكافي في حديث الزنديق‏ الذي سأل الصادق (عليه السلام) عن مسائل إلى ان قال اخبرني عن السراج إذا انطفأ اين يذهب نوره قال: يذهب فلا يعود، قال: فما أنكرت ان يكون الإنسان مثل ذلك إذا مات و فارق الروح البدن لم يرجع اليه ابدا كما لا يرجع ضوء السراج اليه إذا انطفأ؟ قال: لم تصب القياس ان النار في الأجسام كامنة و الأجسام قائمة بأعيانها كالحجر و الحديد فإذا ضرب أحدهما بالآخر سطعت من بينهما نار تقتبس منها سراج له الضوء فالنار ثابتة في أجسامها و الضوء ذاهب و الروح جسم رقيق قد البس قالبا كثيفا ليس بمنزلة السراج الذي ذكرت، ان الذي خلق في الرحم جنينا من ماء صاف و ركب فيه ضروبا مختلفة من عروق و عصب و أسنان و شعر و عظام و غير ذلك هو يحييه بعد موته و يعيده بعد فناءه، قال: فأين الروح قال.

في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث، قال: فمن صلب اين روحه؟

قال: في كف الملك الذي قبضها حتى يودعها الأرض، قال: أ فيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه ام هو باق؟ قال: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء و تفنى فلا حس و لا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها و ذلك اربعمائة سنة تسبت فيها الخلق و ذلك بين النفختين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 287

و هذه هي نفخة الإحياء- و قبلها نفخة الاماتة. «فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ» إذ لا تنفع الأنساب و لا الأسباب و لا الأحباب الا نسب الايمان و سببه‏ «وَ لا يَتَساءَلُونَ» هم عن أنسابهم إذ لا تنفع اللهم الا نسب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و صهره و كما

يروى عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ان الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي و سببي و صهري» «1»

و طبعا على شريطة الايمان فيصبح نورا على نور،

«و ان كان النسب مقطوعا الا ما وصله الله بالإسلام» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 15- اخرج احمد و الطبراني و الحاكم و البيهقي في سننه عن المسور بن مخرمة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و

اخرج البزاز و الطبراني و الحاكم و البيهقي و الضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول‏ كل سبب و نسب منقطع يوم القيامة الا سببي و نسبي‏

و

اخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كل نسب و صهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي و صهري‏

و

في نور الثقلين 3: 562 عن تفسير القمي حدثني أبي عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (عليه السلام) ان صفية بنت عبد المطلب، مات ابن لها فأقبلت فقال لها عمر: غطى قرطك فان قرابتك من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لا تنفعك شيئا، فقالت له: هل رأيت لي قرطا يا ابن اللخناء، ثم دخلت على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأخبرته بذلك و بكت فخرج رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فنادى الصلاة فاجتمع الناس فقال: ما بال أقوام يزعمون ان قرابتي لا تنفع لو قد قمت المقام المحمود لشفعت في خارجكم.

أقول عجبا لابن الخطاب كيف ينكر ذلك و هو من رواة حديث النسب عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)!

(2)

نور الثقلين 3: 564 في اصول الكافي عن امير المؤمنين (عليه السلام) جواب لرسالة طلحة و الزبير اليه و فيه: زعمتما أنكما أخواي في الدين و ابنا عمي في النسب، فاما السبب فلا أنكره، و ان كان النسب مقطوعا إلّا ما وصله اللّه بالإسلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 288

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ 102 وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ‏ 103.

و الموازين هناك هي موازين الايمان و العمل الصالح، موازين العلم و المعرفة و النية الصالحة و على حد ما يروى عن صادق آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الموازين هي موازين الانسانية.

و اما العوان بين أولاء و هؤلاء الذين ثقلت بعض موازينهم و خفت الاخرى، فلا هم مفلحون تماما، و لا هم خالدون في النار تماما، و انما لهم عوان الجزاء ثوابا و عقابا كعوان الموازين و لا يظلمون فتيلا.

و كضابطة شاملة ما يروى ان «الحسنات ثقل الميزان و السيآت خفة الميزان» فلا وزن إذا للسيئات‏ «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً» (18: 105) و انما هو للحسنات.

فيا «ايها الناس ان العربية ليست بأب والد و انما هو لسان ناطق فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم ولد آدم و آدم من تراب و أكرمكم عند اللّه أتقاكم و الدليل على ذلك قول اللّه: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ» بالأعمال الحسنة «فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ» من تلك الأعمال الحسنة «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) لا يتقدم يوم القيامة احد الا بالأعمال و الدليل على ذلك قول رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 289

ان نسب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مما يثقل الميزان شريطة الحسنات، و إنها الأصل الأصيل‏

«و اللّه لا ينفعك غدا إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح‏ «1»

إلا ان الصالح من نسيب الرسول (صلى اللّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 563 في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) طاوس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء إلى السحر و يتعبد فلما لم ير أحدا رمق إلى السماء بطرفه و قال: الهي غارت نجوم سماواتك، و هجعت عيون أنامك و أبوابك مفتحات للسائلين جئتك لتغفر لي و ترحمني و تريني وجه محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في عرصات القيامة ثم بكى و قال: و عزتك، و جلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، و ما عصيتك إذ عصيتك و انا بك شاك، و لا بنكالك جاهل و لا لعقوبتك متعرض، و لكن سوّلت لي نفسي و اعانني على ذلك سترك المرخى به علي فانا الآن من عذابك من يستنقذني، و بحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني فوا سوأتاه غدا من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا، و للمثقلين حطوا، ام مع المخفين أجوز، ام مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي و لم أتب، اما آن لي ان استحي من ربي ثم بكى و إنشاء يقول:

أ تحرقني بالنار يا غاية المنى\* فأين رجائي ثم اين محبتي أتيت باعمال قباح رديئة\* و ما في الورى خلق جنى كجنايتي ثم بكي و قال: سبحانك تعصى كأنك لا ترى و تحلم كأنك لم تعص، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن لك الحاجة إليهم، و أنت يا سيدي الغني عنهم، ثم خر إلى الأرض ساجدا قال: فدنوت منه و شلت رأسه فوضعته على ركبتي و بكيت حتى جرت دموعي على خده فاستوى جالسا و قال: من الذي اشغلني عن ذكر ربي؟ فقلت له: انا طاوس يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما هذا الجزع و الفزع؟ و نحن يلزمنا ان نفعل مثل هذا و نحن عاصون جافون؟ أبوك الحسين بن علي (عليه السلام) و أمك فاطمة الزهراء وجدك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: فالتفت الي و قال:

هيهات هيهات يا طاوس دع عني حديث أبي و امي و جدي خلق اللّه الجنة لمن أطاع و احسن و لو كان عبدا حبشيا و خلق النار لمن عصاه و لو كان ولدا قرشيا اما سمعت قول اللّه تعالى: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ» و اللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 290

و اله و سلم) أصلح كما الطالح منه اطلح كما تدل على ذلك آيات من الأحزاب‏ «1».

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ 104 أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ‏ 105.

هؤلاء هم أئمة الكفر و قادة الضلالة «2» كما ان من ثقلت موازينه هم أئمة الايمان و قادة الهداية.

و اللفح هو شديد النفخ السامّ، و الكلوح هو تقلّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو، فقد يصيب وجوههم لهب النار بنفتحها لحد تتقلّص شفاههم و تبدو أسنانهم كالرؤوس المقشرة المشوية،

«مفتوحي الفم، متربدي الوجوه‏ «3» تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على اعصابهم» «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن ...

(2)

نور الثقلين 3: 565 في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه احوال القيامة و فيه: و منهم أئمة الكفر و قادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا و لا يعبأ بهم لأنهم لم يعبئوا بامره و نهيه فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار و هم فيها كالحون.

(3) نور الثقلين، 3: 566 في تفسير القمي في الآية قال: تلهب عليهم فتحرقهم «و هم فيها طالحون» اي ..

(4) الدر المنثور 5: 16- اخرج ابن مردويه و الضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في قوله: تلفح وجوههم النار قال: .. و

فيه عن أبي هريرة عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان جهنم لما سيق إليها أهلهما تلفتهم بعنق فلفحتهم لفحة فلم تدع لحما على عظم الا ألقته على العرقوب،

و

فيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه و تسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 291

فيقال لهم قولة قارعة ضارعة «أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ» تلاوة البيان من كتاب الشرعة التدوين، و تلاوة العيان من كتاب الافاق التكوين «فكنتم» على طول خطوطها و بكل خيوطها «بِها تُكَذِّبُونَ» في قال و حال و فعال على أية حال.

و هنا الاعتراف الصارخ القارح، اعتذارا بغلب الشقوة علّه يخفف عن وطأة العذاب، و كما كان الاعتراف بالذنب من شروطات استجابة الدعوة يوم الدنيا:

قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ‏ 106.

ما كنا غالبين إذ كذبنا بآياتك بل كنا مغلوبين تحت وطأة الشقوة و الضلالة، و لكن من اين جاءت الشقوة و حلت الضلالة الا من أنفسكم تخيرا لها و تسيّرا فهم «بأعمالهم شقوا» «1» فقد كان غلبا مختارا لا يعذركم فيما كذبتم، و لكنهم على زعمهم القاحل يتطلبون الرجعة إلى حياة التكليف:

رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ‏ 107 و عل ذلك آخر المطاف في سؤالهم المستجدي لعله يجدي و كما يروى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 566 في كتاب التوحيد باسناده إلى علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: بأعمالهم شقوا

و

فيه عن كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه احوال المحشر يقول فيه‏ و قد ذكر النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): و يشهد على منافقي قومه و أمته و كفارهم بالحادهم و عنادهم و نقضهم عهوده و تغييرهم سنته و اعتدائهم على أهل بيته و انقلابهم على اعقابهم و ارتدادهم على ادبارهم و احتذائهم في ذلك سنة من تقدمهم من الأمم الظالمة الخائنة لانبيائها فيقولون بأجمعهم‏ «رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 292

عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ... فيقولون ادعوا ربكم فلا احد خير من ربكم فيقولون: «رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ» فيجيبهم: «قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ ..» «1» و قد تعني «عدنا» عودا إلى التكذيب و عودا إلى حياة الحساب بنفس الحالة، و عودا إلى الجحيم بنفس التصميم.

وي كأنهم لم يكونوا من قبل ظالمين في غلب الشقوة و الضلالة، و ان اللّه أدخلهم النار دون ظلم منهم! و لذلك الهراء القاحل، و الاعتذار الجاهل يستحقون خطاب الكلاب:

قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ‏ 108.

«اخْسَؤُا فِيها» خسأ الكلاب- و هم أضل سبيلا من الكلاب- «وَ لا تُكَلِّمُونِ» فذلك إذا آخر المجال لكلامهم المستغيث فيظلون خرسا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 16- اخرج ابن أبي شيبة و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثوا بطعام من ضريع لا يسمن و لا يغني من جوع، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلابيب الحديد فإذا دنا من وجوههم شوت وجوههم و إذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم ان ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون: او لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قال فادعوا و ما دعاء الكافرين الا في ضلال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون مالكا فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك فيجيبهم انكم ماكثون فيقولون ادعوا ربكم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 293

لا يكلّمون، اللهم إلا مع بعضهم البعض متلاومين.

و لان الخسأ هو زجر الكلب مستهينا به، و لا يخسأ الا الكلب الهراش الضاري، كذلك هم يخسئون بكذبهم فيها و ما كانوا يكذبون‏ «1».

إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ 109 فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ 110 إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ‏ 111.

هم كانوا يستغفرونني بسناد الايمان يوما فيه مناص، و أنتم تستغفرونني بسناد الشقوة و الضلالة زعم العاذرة فيها ولات حين مناص إذ قد مضى يوم خلاص.

و أنتم اتخذتموهم سخريا ساخرين اللّه و رسوله و اهل الايمان‏ «حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي» و هنا ينسب الإنساء إلى المؤمنين إذ لولاهم لما كانت سخرية و لا نسيان ذكر، فهم من اسباب نسيان الذكر دون تقصير، و هم بشقوتهم و ضلالهم سخروا منهم عامدين بكل تقصير، فنسوا بذلك ذكر اللّه، و أصبحت قلوبهم قاحلة عن ذكره إلى ملي‏ء من ذكر الشيطان، و ذلك كمثل قوله تعالى: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» (2: 10).

«إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا» على ما كنتم منهم تسخرون و عليهم تضحكون، دون تزعزع من ايمانهم و لا تلكع فيما يعملون، «جَزَيْتُهُمُ‏ ...

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 17- اخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن حذيفة ان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: ان الله إذا قال لأهل النار: اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ» عادت وجوههم قطعة لحم ليس فيها أفواه و لا مناخير تردد النفس في أجوافهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 294

أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ» ففوزهم اليوم ككل هو جزاءهم بما صبروا.

قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112).

و ترى كيف تتناسب «لا تكلمون» و ذلك السؤال حيث يتطلب كلاما في الجواب؟ علّه يعني لا تكلمون دون اذن أو أمر: «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (11: 105).

هذا، و لان الكلام الممنوع هو المرجو منه الفائدة، و اما الكلام العذاب فهو عذاب فوق العذاب.

و هذا السؤال تقريع لهم و تبكيت تثبيتا لإجرامهم القاصد على فسحة من زمن التكليف: «كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ» و رغم ان السؤال يؤكد لبث سنين، هم يحولونها إلى يوم او بعض يوم:

قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ‏ 113.

و علهم هكذا يجنّنون في الجواب لعظيم الهول المرهف الذي أنساهم عدد مكثهم، فيحولون الجواب إلى العادين الذين هم في ذكر من عدد السنين إلى يوم الدين.

قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏ 114.

و طبعا «قليلا» بجنب الآخرة لا لأداء التكليف، و هم طول هذا القليل في غفلة الشهوة و شهوة الغفلة دون ان يقدموا لأنفسهم.

و «في الأرض» هنا كما في البعض مما سواها تقصد الحياة الأرضية دنيوية و برزخية، و كما أجابهم اللّه في اخرى‏ «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ» (30: 56) و حقا إن زمن اللبثين قليل بجنب الآخرة لأمور عدة ذكرناها في طه و سواها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 295

أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ‏ 115.

فحيث لا بعث و لا رجوع إلى اللّه للحساب و الجزاء فالخلق- إذا- عبث عبث الظلم، فان خلق الخلق دون فصل القضاء ظلم، و عبث اللاغاية الصالحة- حيث الحياة الدنيا بنفسها- بهذه الظلامات و الحرمانات- ليست غاية صالحة، و الرجوع إلى اللّه يجعل الخلق صالحا ذا غاية صالحة، فالخلق دون بعث عبث، سبحانه و تعالى عما يصفون.

و يا لها من آية تقريع على الغافلين المتجاهلين و

قد قال رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم): و الذي نفسي بيده لو ان رجلا موقنا قرأها على جبل لزال» «1».

و

يقول جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) في جواب من سأله:

لم خلق اللّه الخلق؟ ان اللّه تبارك و تعالى لم يخلق الخلق عبثا و لم يتركهم سدى، بل خلقهم لإظهار قدرته، و ليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، و ما خلقهم ليجلب منهم منفعة و لا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم و يوصلهم إلى نعيم» «2».

فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ‏ 116.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 17- اخرج جماعة عن ابن مسعود انه قرء في أذن مصاب، أ فحسبتم انما خلقناكم عبثا حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإذا قرأت في اذنه فأخبره فقال ...

و

فيه اخرج ابن السني و ابن منده و ابو نعيم في المعرفة بسند حسن من طريق محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي عن أبيه قال‏ بعثنا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في سرية و أمرنا ان نقول إذا نحن أمسينا و أصبحنا أ فحسبتم انما خلقناكم عبثا و انكم إلينا لا ترجعون فقرأناها فغنمنا و سلمنا.

(2) نور الثقلين 3: 566 في علل الشرايع باسناده إلى جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فقلت له: ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 296

«فَتَعالَى اللَّهُ- الْمَلِكُ- الْحَقُّ» عن العبث بالخلق، و عن ان يكون له شريك في الملك او ولي من الذل، او ان يترك خلقه سدى دون هدى بالوحي‏ «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ» عرش الربوبية و التدبير، في التكوين و التشريع «الكريم» عرش لا تضيّق فيه، بل هو كريم واسع الرحمة.

وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ‏ 117.

«لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ» قد تكون جزاء الشرط نكرانا لاي برهان على إله آخر، ام وصفا ل «إِلهاً آخَرَ» مماشاة، ان لو كان هنالك برهان له لكان مقبولا، ام قيدا توضيحيا حيث الإله الآخر لا برهان له، فهذه الدعوة و الدعوى الباطلة دون اي برهان و لا إمكانه هو من أضل الضلال و أظلم الظلم‏ «فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» يوم القيامة الكبرى‏ «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ» لا برهانا و لا واقعا متخلفا عن برهان، لا في الاولى و لا الاخرى، مهما ارعدوا و ابرقوا في هذه الأدنى، إذا فكل دعوى دون اي برهان فيه حساب عند اللّه دون اي افلاح لصاحبها، فذلك محرّم شرعيا كما هو محرم عقليا و فطريا، حيث الإنسان العاقل و المتشرع هو ابن البرهان جملة و تفصيلا، و فيما يجب عليه التقليد لعجز عن الاجتهاد، فلا يجوز التقليد- كما الاجتهاد- دون اي برهان.

و يا لها من سورة بدايتها تبشير للمؤمنين‏ «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» و من نهايتها إنذار الكافرين‏ «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ» ثم ختامها الاستغفار و الاسترحام للمؤمنين:

وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ‏ 118.

«رَبِّ اغْفِرْ» لي عما يهاجمني من دوائر السوء التي تعرقل دون رسالتي «و ارحم» ني في هذه السبيل الشائكة المليئة بالأشلاء و الدماء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏20، ص: 297

ثم «اغفر» للمؤمنين عما تعرضهم من خطايا او تعترضهم «و ارحم» المؤمنين‏ «وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» فالغفر من مصاديق الرحمة الرحيمية، فخير الراحمين هو خير الغافرين.